بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

صيغة الجمع : "فُعلان" مثل قضبان و"فِعلان" مثل غِلمان

للدكتور إبراهيم أنيس

جموع التكسير العربية التي جاءت على هاتين الصورتين قد سببت بعض الحيرة لعلماء العربية فقد حاولوا في كتبهم أن يضعوا قاعدة لها ، فجاءت قاعدتهم في نهاية الجهد عرجاء لا تفسر الحكمة في أن عدداً من صور المفرد التي لا يمت بعضها إلى بعض من حيث البنية بأي صلة ، قد جمعت على « فعلان » بكسر الأول ، وأن عدداً آخر من صور المفرد قد جمعت على « فعلان » بضم الأول !!

فأي صلة بين بنية المفردات « غراب . صرد . حوت . تاج » حتى يمكن أن يقال إنها تجمع قياسياً أو باطراد على « فعلان » بكسر الأول ؟ وأي صلة بين بنية المفردات « بطن . ذكر . قضيب » حتى يمكن أن يقال إنها تجمع قياسيا على « فعلان » بضم الأول ؟ !

ومن عجيب أمر هؤلاء العلماء أنهم إذا وجدوا فى اللغة أمثال :

[« غزلان » جمعا لغزال : وخرفان » جمعا لخروف و « نسوان » جمعا لنسوة ، « ركبان » جمعا لراكب ، « سودان » جمعا لأسود] قالوا : إن كل ذلك من المسموعات القليلة أو النادرة !!

هم يتصورون إذن أن الجمع « فعلان » بصورتيه ، مطرد فى سبع صيغ ومسموع فى خمس صيغ من صيغ المفرد !! فأى جمع هذا ؟! وأى لغة مستقيمة يمكن أن تتضمن مثل هذا النظام الذى زعموه ؟!

فإذا حاولنا أن نضع فرضا معقولا فى تأصيل هذا الجمع ، قلنا : إن أمثلته العربية ، لا تعدو أن تكون جموعا على طريقة اللغة الحبشية فى جمع المفرد المذكر بإلحاق الألف والنون !! ولذلك نفترض أن الجمع « فعلان » بصورتيه ، صيغة غريبة على العربية الشمالية المألوفة لنا . وقد جاءت هذه الصيغة على حسب الجمع فى اللغة الحبشية ، ربما عن طريق العربية القديمة فى جنوب شبه الجزيرة ، وذلك بأن ألحقت الألف والنون بالجموع العربية التى على الصور [فُعْل مثل خرس ، فُعُول مثل بطون ، فُعُل مثل غدر ، فِعْلة مثل إخوة] فى الكثرة الغالبة من الأمثلة المروية فى اللغة .

والجمع بإلحاق الألف والنون كثير الشيوع جدا فى اللغة الحبشية ، وربما كان أيضا فى العربية الجنوبية التى كانت سائدة فى اليمن القديمة .

لماذا إذن لا نفترض أن الكثرة الغالبة من الأمثلة التى رويت فى معاجمنا العربية على « فعلان » بكسر الأول أو ضمه ، لا تعدو أن تكون فى الأصل جموعا عربية مألوفة ثم جمعت ثانية على طريقة اللغة الحبشية بأن ألحقت بها الألف والنون ، فهى مما يمكن أن يطلق عليه مصطلح « جمع الجمع » !!

ولا بد هنا من وقفة قصيرة لنقول شيئا عن ظاهرة جمع الجمع ، التى لم يجد القدماء من علماء العربية ما يعللونها به سوى أن يقولوا :

[قد تدعو(١) الحاجة إلى جمع الجمع كما تدعو إلى تثنيته ، فكما يقال فى جماعتين من

---

(١) أشمونى ج ٤ ص ١١٢

الجمال « جمالان » كذلك يقال فى جماعات « جمالات » ، وإذا قصد تكسير المكسر نظر إلى ما يشاكله من الآحاد فيكسر بمثل تكسيره ، كقولهم فى « أعبد » أعابد و « أسلحة » أسالح و « أقوال » أقاويل . . . . . وقالوا فى « مصران » مصارين ، وغربان غرابين . . . . . وما جاء من الجموع على زنة مفاعل ، مفاعيل ، لم يجز تكسيره لأنه لا نظير له فى الآحاد فيحمل عليه ، ولكنه قد يجمع بالواو والنون كقولهم فى « نواكس » نواكسون وفى « أيامن » أيامنون ، أو بالألف والتاء كقولهم فى « حدائد » حدائدات وفى « صواحب » صواحبات . ومنه الحديث : إنكن أنتن صواحبات يوسف]

ولا يكاد هؤلاء العلماء يحاولون تعليل ظاهرة جمع الجمع أو تسويغها .

غير أنا نرى فى إشارة منسوبة فى لسان العرب للأزهرى يعقب بها على ما رُوى عن سيبويه من أنه كان يعتبر كلمة « مصارين » جمع الجمع . جاء فى اللسان : [المصارين جمع المصران جمعته العرب كذلك على توهم النون أنها أصلية] !!

أى أن « مصران » فى رأيه ، اعتبر مفردا عن طريق التوهم ، أو ما نسميه نحن بالقياس الخاطىء ، ثم جمع على مصارين ، وليست مصارين إذن فى رأيه من جمع الجمع !!

وظاهرة جمع الجمع قد عرفها اللغويون المحدثون فى لغات متعددة قديمة وحديثة ، ليست مقصورة على اللغة العربية ، لكى نسمح لبعض القدماء من علماء العربية ، أن يقول : « إنها من سنن العرب » ! !

ويفسر اللغويون المحدثون ظاهرة جمع الجمع على أحد أساسين :

أولهما : أن بعض الكلمات التى تتضمن دلالة الجمعية قد يكثر شيوعها جدا ، فتبلى فيها تلك الدلالة أو تضعف تدريجيا ، حتى تصبح فى وقت ما وقد اقتصرت دلالتها فى أذهان معظم الناس على الإفراد ، ويقال حينئذ إنها فقدت فكرة الجمعية ، وأصبحت بحاجة إلى أن تجمع مرة ثانية ، ولتوضيح ذلك يكفى أن نتذكر هذه الكلمات (زناد . برام . كراس . مصران) التى تجرى على ألسنتنا الآن ، ونحسبها من المفردات ، ولكنها فى حقيقة أمرها جموع ، ومفرداتها الأصلية هى على الترتيب (زند . برمة . كراسة . مصير) !

وقد أدى فقدان فكرة الجمعية إلى تكرار الجمع فى الكلمة الإنجليزية Children التى هى الآن فى أذهان معظم الإنجليز مجرد جمع الكلمة Child وفى الحقيقة أن المفرد Child قد جمع قديما على Childer حين كانت علامة الجمع « Er » ، ثم تنوسيت جمعيتها فجمعت بعد ذلك بطريقة أخرى أو علامة أخرى للجمع هى « En » وهى العلامة التى لا نزال نراها فى مثل الكلمة الإنجليزية Oxen فأصبحت كلمتنا فى نهاية المطاف Children !!

ثانيهما : أن فكرة الجمعية أو دلالة الجمعية فى كلمة ما قد لا تكفى ، أو لا تقنع المتكلم ، فيعمد إلى تقويتها رغبة فى المبالغة ، أو التهويل ، بأن يجمعها مرة ثانية ، ويبدو أن هذه هى الحال التى سيطرت على ذهن علماء العربية بين القدماء حين تحدثوا عن جمع الكلمة مرة ثانية ، وسموا ذلك جمع الجمع . فهم يتصورون فى جمع الجمع أنه يفيد عددا من الآحاد أو الأفراد أكثر مما يفيد الجمع الأول الأصلى .

ومما شجع على جمع الجمع فى العربية ، ولا سيما فيما سموه بتكسير المكسر ، أن فى العربية بعض الصيغ التى يكثر ورودها مع بعض المفردات ومع بعض جموع التكسير فى وقت واحد ، مثل « فُعُول » الكثيرة الشيوع فى مصدر الفعل الثلاثى اللازم المفتوح العين أمثال : نزول . خروج . دخول . وهى أيضا كثيرة جدا فى جمع الاسم الثلاثى أمثال : قبور . قرون . قصور .

وكذلك الشأن مع الصورة الأصيلة للاسم الثلاثى حين يكون مضموم الفاء ساكن العين مثل : جرح . قطر . حلم . فهذه الصيغة كثيرة الشيوع أيضا ومطردة فى جمع الألوان وذوى العاهات ، أمثال : حمر . زرق . عرج . صم . بكم .

وربما كانت كذلك صورة الاسم الثلاثى المضمومة الفاء والعين ، والكثيرة الشيوع فى القرآن الكريم ، إذ ورد فيه من هذه الصورة ١٧ مثلا هى :

(أفق . أكل . حلم . ثلث . دبر . ربع . زبر . سدس . شغل . عنق . هزؤ أذن . نسك . ظفر . عمر . قدس . نصب) .

وقد جاءت هذه الصورة « فُعُل » مطردة بين جموع التكسير فى أمثال : قُضُب (جمع

قضيب) ، عُمُد (جمع عمود) ، حُمُر (جمع حمار) قُذُل (جمع قذال) صُبُر (جمع صبور) ... الخ

وأخيراً صيغة « فِعْلة » مثل فتية ، صبية ، وهي الصيغة التي تشكك بعض القدماء في أنها صيغة للجمع ، ووصفوها بأنها لم تطرد في شيء وإنما سمعت في ألفاظ ، ولذلك قالوا عنها إنها اسم جمع ، وليست من صيغ الجمع !! هي إذن أكثر قبولا لأن تجمع ثانية من غيرها من صيغ جموع التكسير الأخرى أمثال : فُعُول ، فُعْل ، فُعُل ، التي أشرنا إليها آنفا .

وهكذا ترى أن الصيغ (فُعُول ، فُعْل ، فُعُل ، فِعْلة) حين عبرت عن دلالة الجمعية قد شجعت على أن يعاد جمعها مرة ثانية ، وأن تصبح مما يسمى جمع الجمع .

ويبدو أن هذا هو الذي حدث في صيغة (فعلان) بصورتيها ، فأمثلتها العربية ، لا تعدو أن تكون في الأصل جموع تكسير على الصور الآنفة الذكر ، ثم ألحقت بها الألف والنون لتقوية دلالة الجمعية فيها أو للمبالغة ، وكان ذلك اتباعا لطريقة الجمع الشائعة جداً في اللغة الحبشية — ونفترض لذلك أن العربية قد اقترضت علامة الجمع في اللغة الحبشية ، وربما كان هذا الاقتراض عن طريق العربية القديمة في جنوب شبه الجزيرة فألحقت الألف والنون ببعض الأمثلة المجموعة أصلا على الأوزان (فُعُول ، فُعْل ، فُعُل فِعْلة) .

وقد أحصينا في استقراء سريع من معاجمنا القديمة أكثر من أربعين مثلا جاءت على (فعلان) بصورتيها ، ولم نجد بينها ما يتطلب تفسيرا خاصا سوى ثمانية أمثلة هي : ذؤبان . خرفان . حملان . سيدان . جرذان . صردان . رهبان . صنوان .

وقد ورد في القرآن الكريم نحو عشرة أمثلة ليس بينها ما يتطلب تفسيرا خاصا سوى مثلين هما : رهبان ، صنوان . وأما من حيث (رهبان) فقد اعتبرها بعض اللغويين مفردا — جاء في اللسان ما نصه : (وقد يكون الرهبان واحدا وجمعا ، فمن جعله واحدا جعله على بناء فعلان ، أنشد ابن الأعرابي :

لو كلمت رهبانَ دير في القُلَل   لانحدر الرهبان يسعى فنزلْ

وأما من حيث « صنوان » فيمكن أن يقال إنها جاءت قياسا على « إخوان » لأن المفرد (صنو) يتحد فى الدلالة مع المفرد (أخ) ، أى أن الجمع (صنوان) قد نشأ دون المرور بمرحلة (فِعْلة) كما فى « إخوة » لأن الصنو » يؤنث على صنوة .

وأما سائر الأمثلة الأخرى التى تتطلب تفسيرا خاصا فنؤثر هنا أن نمر بها مرورا ودون أن نحاول تفسيرها بأكثر من أنها ربما تكون قد جمعت على هذه الصورة قياسا على أمثلة أخرى تشبهها ، وإن كنا نجهل المقيس عليه فى معظم تلك الحالات ؛ لجهلنا بتاريخ نشأة الكلمات فى أغلب الأحيان . فمثلا يمكن أن يقال : إن الجمع (حُمْلان) قد جاء قياسا على الجمع (ذُكْران)

ويعنينا هنا ، قبل تفسير القلة من الأمثلة المروية فى اللغة ، أن نصف القاعدة التى خضعت لها الكثرة من الأمثلة ، وهى تجاوز الثلاثين مثلا . ونبدأ هذا الوصف بأن نقرر أن إلحاق الألف والنون بالصيغة (فِعْلة) يأتى لنا بالجمع (فِعْلان) المكسور الأول، وإلحاقهما بالصيغ (فُعُول ، فُعْل ، فُعُل) يأتى لنا بالجمع (فُعلان) المضموم الأول . فحركة « الفاء » فى الجمع الأصلى هى التى تحدد حركة « الفاء » فى الجمع (فعلان) ، كما نقرر أيضا أن العربية فى إلحاق الألف والنون ببعض أمثلتها قد تحاشت ، فيما يبدو ، اللبس بالمثنى ولذلك مالت الى تسكين الوسط مع صيغتى (فُعول ، فُعُل)

نسوق بعد هذا الأمثلة المروية فى المعاجم القديمة ، والتى خضعت للقاعدة التى نفترضها فى تفسير الجمع المختتم بالألف والنون :

<u>أولا</u> : وزن (فِعْلان) بكسر الأول . وأمثلة هذا الوزن فى الكثرة الغالبة ، مما ورد منها فى اللغة ، لا تعدو أن تكون فى أصلها جموعا على صيغة (فِعْلة) ثم جمعت ثانية بأن ألحقت بها الألف والنون :

١ — شيخ ← شِيخة ← شيخان
٢ — فتى ← فِتية ← فتيان
٣ — صبي ← صبية ← صبيان
٤ — غلام ← غلمة ← غلمان

٥ — غزال ← غزلة ← غزلان

٦ — شجاع ← شجعة ← شجعان (المضموم الأول أكثر شهرة)

٧ — أخ ← إخوة ← إخوان

٨ — جار ← جيرة ← جيران

٩ — نار ← نيرة ← نيران

١٠ — قاع ← قيعة ← قيعان

١١ — ثور ← ثيرة (قال المبرد جمعوه على فِعْلة ثم حركوا الياء) ← ثيران .

ومن المؤكد أن أمثال (باب بيبان ، تاج تيجان ، كوز كيزان ، حوت حيتان ، نسوة نسوان) قد جاءت قياسا على بعض الأمثلة الآنفة الذكر ، أو أنها فقدت إحدى المراحل الثلاث (مفرد ← فِعْلة ، فعلان)

ثانيا : وزن (فعلان) بضم الأول ، وأمثلة هذا الوزن فى الكثرة الغالبة مما ورد منها فى اللغة ، لا تعدو أن تكون فى أصلها جموعا على إحدى الصيغ (فُعْل ، فُعُل ، فُعُول) ، ثم جمعت ثانية بأن ألحقت بها الألف والنون :

ا — فُعْل + ان = فُعْلان . واشتهر ذلك فيما يعبر عن الألوان والعاهات ،

١ — أسود ← سُود ← سُودان

٢ — أبيض ← بيض ← بيضان (كسر الأول طارئ بسبب الياء)

٣ — أعمى ← عمى ← عميان

٤ — أبكم ← بكم ← بكمان

٦ — أصم ← صم ← صمان

٦ — أخرس ← خرس ← خرسان

٧ — أعرج ← عرج ← عرجان

٨ — ولد ← وُلْد ← ولدان

(ب) فُعُل + ان = فُعْلان (بعد تسكين الوسط لئلا يلتبس بالمثنى)

١ — غدير ← غدر ← غدران

٢ ـ جدار ← جدر ← جدران

٣ ـ قضيب ← قضب ← قضبان

٤ ـ رغيف ← رغف ← رغفان

٥ ـ عبد ← عُبُد ← عبدان

٦ ـ صليب ← صُلُب ← صلبان

(حـ) فُعُول + ان = فُعْلان (بعد تسكين الوسط لئلا يلتبس بالمثنى)

١ ـ بطن ← بطون ← بطنان

٢ ـ ظهر ← ظهور ← ظهران

٣ ـ راكب (أو ركب) ← ركوب ← ركبان .

٤ ـ ذكر ← ذكور ← ذكران

٥ ـ ضيف ← ضيوف ← ضيفان (كسر الأول طارئ بسبب الياء)

ومع أن المستشرقين يشيرون فى كتبهم إلى أن إلحاق الألف والنون فى اللغة الحبشية علامة للجمع المذكر الصحيح ، ويقررون أنه قد وجدت له بعض الآثار فى اللغتين الأكادية والسريانية . وبرغم ذلك إذا عرضوا لجمع التكسير فى اللغة العربية يعتبرون إلحاق الألف والنون من علامات جمع التكسير فيها[1] ؟ !

ومن كل ما تقدم نرى أن الصيغة (فعلان) بصورتيها مما يسمى بجمع الجمع . وأنها فى الأصل جمع على إحدى الصيغ (فِعَلة ، فُعُل ، فُعَل ، فُعُول) ، ثم جمعت ثانية على طريقة اللغة الحبشية بأن ألحقت بها الألف والنون .

وفى الحق أن بعض علمائنا القدماء قد اعتبروا بعض أمثله (فعلان) مما يسمى بجمع الجمع . جاء فى اللسان : (والجدار : الحائط والجمع جدر ، وجدران جمع الجمع) .

---

(1) S. Moscati : an introduction to the Compartive grammar of the semitic Languages . p . 83 .

وليس اقتراض علامة الجمع من لغة أخرى أمراً فريدا ، أو لا نظير له بين اللغات ، فقد اقترضت الفارسية علامة جمع المؤنث السالم من العربية (ا ت) وجمعت عليها بعض الكلمات الفارسية الأصل مثل (باغ) بمعنى حديقة جمعت على (باغات) بمعنى حدائق . وكثيرا ما اقترضت الإنجليزية علامة الجمع اللاتينية فقالت مثلا فى جمع (formulae ، formula). وإذا كان قد تم اقتراض علامة الجمع بين لغتين من فصيلتين مختلفتين كالعربية والفارسية فلا غرابة أن يتم ذلك بين لغتين ساميتين هما العربية والحبشية .

وبالله التوفيق

المشرف على المجلة

ابراهيم أنيس



الثقافة العربية اليوم وغداً

— ١ —
نشأتها وتطورها

للدكتور ابراهيم مدكور

١ — الحياة الثقافية فى مجتمع ما وليدة وعى ويقظة ، وثمرة انطلاق وحرية . ولاشك فى أن الإسلام بعث فى العالم العربى وعيا نشيطا خلاقا وأسبغ عليه نعمة شاملة ،وحرية كاملة ، فتفجرت فيه عبقريات استطاعت أن تقيم حضارة لهـــا شأنها بين الحضارات الإنسانية الكبرى . وفيما بين القرنين السابع والرابع عشر الميلاديين تنافس العرب والمسلمون جميعا فى ميـــدان الثقافة ، فأنجزوا ما أنجزوا ، وأنتجوا ما أنتجوا فى نواح شتى : فى الأدب والفن ، فى العـلم والفلسفة ، فى العمران والحضارة ، فى الصناعة والتجـارة واسترعى إنتاجهم الأنظار ، وبهر أوربا فى القرون الوسطى ، وأخذت تنهل من حياضه وتحاكيه . ولم يبق شك اليـوم فى أن العلم والفلسفة لدى اللاتين مدينـان للعلم والفلسفة العربيين ، وأن الازدهار الفكرى فى باريس وأكسفورد إبان القرن الثالث عشر إنما كان صدى لما سبقه من ازدهار فى بغداد وقرطبة ، وقـد مهد ذلك كله للنهضة الأوروبية الحديثة .

ومنذ القرن الرابع عشر طغت على العالم العربى موجـة غاشمة من القهر والغلبة ، وظلمة قاتمة ضاق فيها الفكر والأفق ، وعاش النـاس فى ماضيهم يرددونه ويحاكونه ، وربما عز عليهم فهمـه وإدراكه . وكثيرا ما رددت تلك العبـارة المشهورة : « ماترك الأول للآخر شـــيئا » . فأجدبت العقول ، وكثر المحرم ، وقل المبـاح . وعطلت المصانع والمعامل ، وأغلق كثير من معاهد العلم الكبرى ، ولم يبق منها إلا الأزهر فى القاهرة ، والزيتونة فى تونس ، والقرويين فى مراكش . وما بقى ظل يدور حول نفسه ، يلخص الحقائق العلميـة فى « متون » ، ثم يوضح هـذه المتون فى « شروح » ، وقد يفسر الشروح فى « حواش » و « تقارير » ، وكل ذلك أخـذ عن السابقين . دراسات فى الغالب رتيبة غير متنوعة ، جامدة غير متحركة ، مقلدة غـير مبتكرة ، لفظية غـير موضوعية . وفى اختصار : كانت الحياة الثقافية ضيقة النطاق ، مقصورة على طائفة محدودة تعيش فى الماضى ، ولا تعبأ بالحاضر ، تنكر التطور

والتقدم ، ولا تشعر بحاجة إلى تجديد أو ابتكار .

* * *

٢ — وفى القرن التاسع عشر بدأت تهب على العالم العربى نسمة جديدة من اليقظة والحرية وظهرت بوادرها فى مصر أولا ، ثم امتد صداها شيئا فشيئا إلى بلاد عربية أخرى . وأخذ العرب يحسون بوجودهم ، ويشعرون مرة أخرى بأنفسهم . ففكروا فى استقلال ، ونظروا فى تفكير غيرهم . ولا شك فى أن الحملة الفرنسية كانت القبس الأول الذى انبعثت منه حركة البحث والتجديد ، فقد اصطحب نابليون معه أربعين من كبار العلماء جاسوا خلال الديار ، ووصفوا طيور مصر وحيواناتها ، وحللوا تربتها ، وكشفوا عن معادنها وصخورها ، ورسموا معالم اقتصادها . وأخرجوا ذلك الكتاب القيم Description de l'Egypte وأسسوا معهداً لا يزال قائما إلى اليوم ، وهو : L'Istitut d'Egypte الذى حرص نابليون على أن يرأسه بنفسه . وتلت ذلك حركة استقلالية ردت إلى مصر اعتبارها ، ودفعتها لأن تتسلح بسلاح العلم الحديث . وتزعم محمد على طوال أربعين سنة حركة علمية وحضارية فسيحة ، فأنشأ مدارس الطب والهندسة والصيدلة إلى إلى جانب المدارس الحربية . وأوفد إلى أوربا وفرنسا خاصة بعثات متلاحقة ، وكانت أولاها (١٨٢٦) مكونة من ٤٠ طالبا قصدوا باريس لدراسة الرياضة والهندسة والطب والعلوم الصناعية . وأنشئ عدد من المدارس الابتدائية والثانوية . وأقيمت مشروعات كبرى كالقناطر الخيرية ، ونظم الرى والصرف ، وشق بعض الترع والرياحات . إلا أن أبناء محمد على لم يسيروا على نهجه تماما ، فأغلقت المدارس العليا ، وتوقفت البعثات الطلابية إلى أوربا . ويظهر أنهم عنوا خاصة بالنواحى الحضارية والعمرانية ، فشيدوا القصور الفخمة ، ودار الأوبرا ، وأنشأوا السكك الحديدية والبريد والبرق .

ونود أن نشير إلى أمرين آخرين كان لهما شأنهما فى هذه الحركة الثقافية ، وأولهما : دعوة العلماء والخبراء الأجانب ، والاستعانة بهم فى النهوض والتجديد ، فى العلم والصناعة والعمران . ومنهم جماعة وضعت اللبنة الأولى فى بنيان النهضة المصرية الحديثة . وعول محمد على فى مدارسه ومصانعه على الأساتذة والخبراء الفرنسيين ، وطبعت الحياة الثقافية المصرية بطابع فرنسى واضح استمر حتى نهاية القرن التاسع عشر . ويضاف إلى هذا ثانيا السماح بإنشاء مدارس أجنبية دينية كانت أو مدنية . ولم تقتصر هذه المدارس على تعليم أبناء الجاليات الأجنبية ، بل فتحت أبوابها أيضا لأبناء المصريين ، وعززت تعليم اللغات الأجنبية بين فرنسية وإيطالية ، إنجليزية وألمانية . ونشئ فيها عدد غير قليل ممن تولوا القيادة الفكرية والسياسية فى القرن العشرين . والواقع أن الأوربيين حظوا فى مصر إبان النصف الثانى من القرن الماضى بمزايا لم يحظ بها الوطنيون أنفسهم . فوقفت عليهم أحياء خاصة فى بعض المدن الكبرى ، وعوملوا معاملة كلها رعاية وتقدير ، ونعموا بامتيازات لم تخل من ظلم للمواطنين ، ولا نظير لها فى بلادهم الأصلية . وبلغ عددهم أحيانا نسبة ملحوظة ، ويكفى أن

تشير إلى أن هذه النسبة صعدت فى الإسكندرية إلى نحو ½ السكان أيام الخديو إسماعيل . وفى هذا الاختلاط والاتصال ما سمح بتبادل ثقافات وتجارب وخبرات متعددة .

واستطاعت مصر أن تكون رائدة ، وسيبدو أثر ريادتها فى القرن العشرين على شكل أوضح ، وقل أن نجد بلدا عربيا لم يبعث إليها ببعض أبنائه لينهلوا من حياضها ، ويقفوا على مظاهر نهضتها ، وكان الأزهر من قديم قبلة طلاب العلم من البلاد الإسلامية عامة . وحرصت البلاد العربية ، إن أتيحت لها فرصة ، على أن تحاكى مصر ، وأن تحذو حذوها . وأفاد بعضها من المدارس الأجنبية ، وإن تأثر بشيء من ميولها واتجاهاتها . ولبنان ، وهو نسبيا أكثر حظا من هذه المدارس ، مدين خاصة لمعهدين كبيرين : هما الجامعة الأمريكية والجامعة اليسوعية . وهذان المعهدان من غرس القرن التاسع عشر ، ولم يخلوا من أهداف دينية ، وقد بدآ فى صورة مدرستين ثانويتين ، وإليهما يرجع الفضل على كل حال فى حركة لبنان الثقافية المبكرة . ولسنا فى حاجة أن نشير إلى أن الاستعمار فى الجملة لم يشجع التعليم العالى ولا المتخصص ، واكتفى بتخريج كتاب وسكرتاريين . وكان لا بد للبلاد العربية أن تعزز استقلالها ، لكى تستطيع أن ترسم بنفسها وسائل نهوضها وتقدمها ، وتفاوتها ثقافيا يرجع فى قدر كبير منه إلى الزمن ؛ فأقدمها عهدا بالاستقلال أرسخها قدما فى ميدان العلم والثقافة .

٣ — والقرن العشرون هو البدء الحقيقى للنهضة الثقافية العربية المعاصرة ، لأنه قرن التحرر والاستقلال ، قرن الازدهار الاقتصادى والرخاء . ولا سبيل إلى نهضة ثقافية بدون إمكانيات تعدلها وتيسر وسائلها ، وهو أخيرا قرن التحدى والمنافسة . واذا كانت الحربان العالميتان اللتان بلى بهما هذا القرن قد غذيتا الشعور القومى فى العالم العربى ، فإنهما عاقتا وسائل نهوضه وتقدمه ، وتلتهما حروب إسرائيل التى لم تعرف نهايتها بعد ، وحروب الاستقلال فى الجزائر ، وحروب الأكراد فى العراق ، والحرب الأهلية التعسة فى لبنان . وقد أنفق فيها جميعها ما أنفق من أموال وأرواح ، وعوقت دون نزاع سير التجديد والإصلاح . وبرغم هذا كله حاول من بلوا بها ما وسعهم أن يلائموا بين متطلبات السلم ومقتضيات الحرب ، ولو قدر لهم أن يسلموا من هذه الويلات لكان سيرهم فى طريق النهوض والتجديد أكمل وأسرع . ولا تخلو الشدائد من دروس تمليها ، فهى تكشف عن مواطن الضعف والنقص ، وتعين على وضوح الرؤية ، وتستحث الهمم ، وتصفى النفوس . وتدعو إلى جمع الكلمة . وكل تلك دروس ما كان أحوج العالم العربى إليها ، ونعتقد أنه أفاد منها ، ويعز عليه أن ينساها ، ونأمل أن يعمل دائما فى ضوئها .

وقد اتضحت معالم النهضة فى القرن العشرين ، وتحددت أهدافها ، واتسعت آفاقها . ويراد بها أن تكون نهضة عربية أولا تعبر عن العالم العربى فى آماله وآلامه ، تحكى واقعة ، وتصور شخصيته ، وتحتفظ للثقافة العربية بمكان لائق بين الثقافات العالمية . وفى فجر هذا القرن كانت

هناك حيرة بين الشرق والغرب، بين القديم والجديد، بين التقليد والابتكار. ولا نزاع فى أن الأمر قد وضح الآن، ذلك لأن العالم العربى يحرص على كيانه ووجوده وشخصيته. يريد أن يكون له فن وأدب، وعلم وفلسفة، وقد حقق فعلا بعض ما أراد، وليس شىء أبعث على الثقة بالنفس من التحقيق والإنجاز. ويريد العالم العربى أكثر من هذا، فيطمع فى أن يكون لفنه وأدبه منزلة بين الفنون والآداب الأخرى، وأن يسهم فى مضمار العلم والتكنولوجيا، وأن يباهى بما يحقق من كشف واختراع. يريد فى اختصار أن يعيد مجد الماضى، وأن يضيف إليه أمجاداً أخرى فى الحاضر.

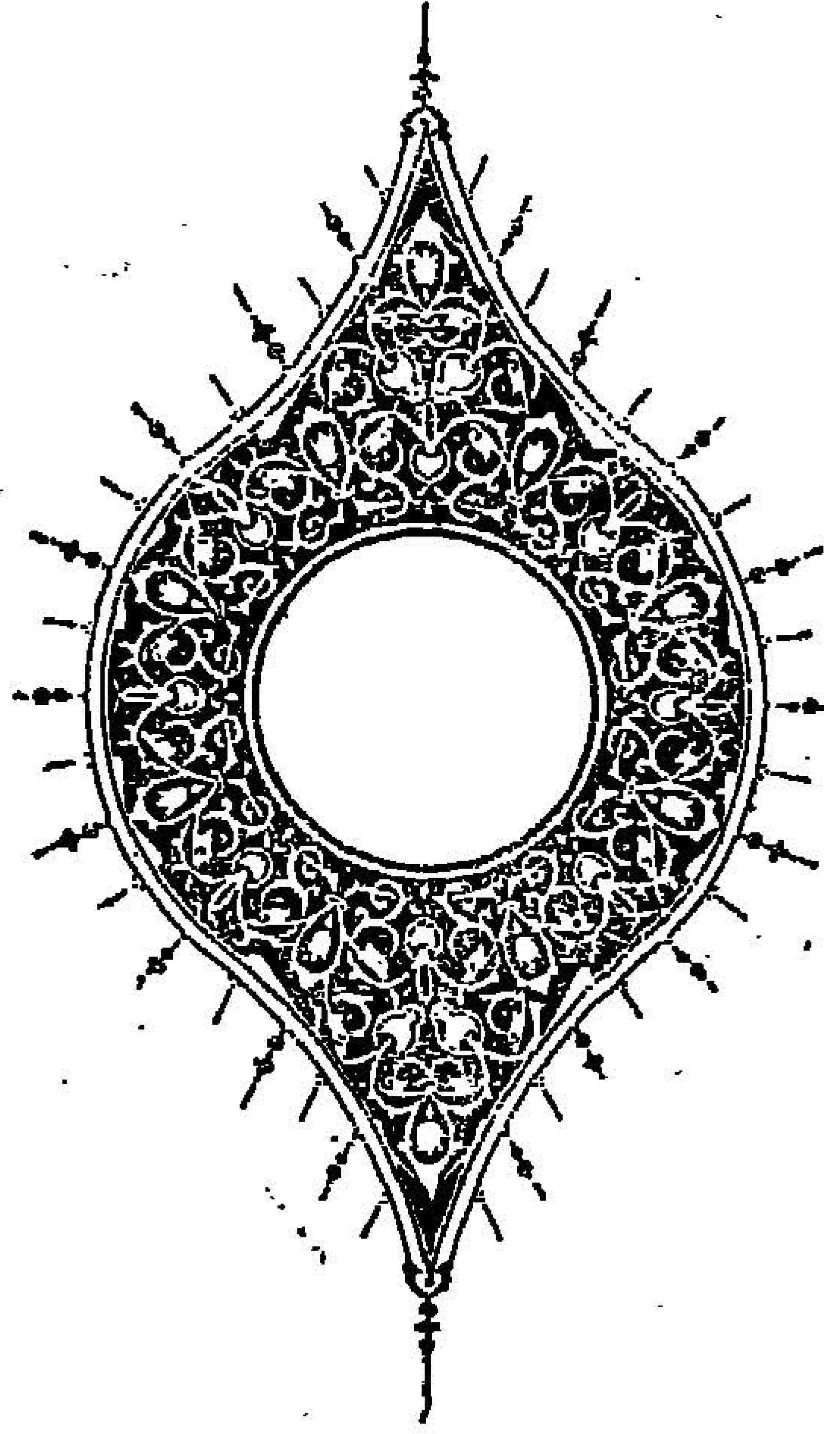
٤ — ولغته نفسها كانت محل أخذ ورد، لأن الاستعمار حاول أن يحل محلها لغات أخرى، من تركية أو إنجليزية أو فرنسية. فهل تستطيع العربية أن تستعيد مكانتها فى مظاهر حياتنا على اختلافها؟ فى الصحافة والمدرسة، فى المصنع والمتجر، فى الإدارة الحكومية والأعمال العامة فى تعامل الأفراد ومصالحهم؟ وقد آمنت مصر منذ عهد مبكر أنه لا بد من لغة وطنية، وتساءل فريق من الناس أهى الفصحى أم العامية؟ وتلك بلبلة أخرى عشنا فيها زمنا، ولكن لم يبق اليوم شك فى أن العربية هى اللغة الوطنية، وأنها كفيلة بأن تحل محل العامية واللغات الأجنبية. وبدأ سعد زغلول منذ العقد الأول من هذا القرن فى تعريب المدرسة الابتدائية والثانوية الأميرية، التى سبق للاستعمار أن كساها بكساء إنجليزى. وقد سارت مصر فى هذا الطريق شوطاً بعيداً، فعربت الكتاب والمدرس، واستكملت وسائل التعريب فى العلوم والفنون على اختلافها. ولم تقف عند المدرسة الثانوية، بل جاوزتها إلى التعليم العالى والجامعى، وعربت منه قدراً غير قليل، والنية معقودة على تعريبه جميعه. وتعريب التعليم اليوم من القضايا التى تشغل العالم العربى بأسره، وقد تحقق منه قسط غير يسير. والغالبية العظمى تؤمن بضرورته، ولا مناص من تعريبه جميعه، يوم أن تتوفر وسائله. ومن الخطأ أن يعرب التعليم العالى قبل أن يتم تعريب المراحل السابقة. وأولى بمعارضى هذا التعريب أن يسلموا أسلحتهم فى معركة فاشلة، والمسألة مسألة زمن وإعداد.

والعربية التى يستمسك بها الآن غير تلك التى كانت تستعمل فى القرن الثامن عشر، أو فى جزء كبير من القرن التاسع عشر، إنها عربية من إملاء العصر وروحه. فهى سهلة سائغة، لا غرابة فيها ولا تعقيد، ولا زخرف ولا صنعة. وهى واضحة دقيقة تصوب إلى المعنى وتؤديه فى أحكام، ولا تحتاج فى الغالب إلى معجمات وقواميس. تعنى باختيار الألفاظ المألوفة السهلة، وبتبسيط الجمل وتوضيحها، ويراد بها أن تكون يسيرة فى تعليمها وتعلمها. يتخفف ما أمكن من نحوها وصرفها، ولا يشغل الشباب من قواعدها إلا بالضرورى والعملى، ويسلك فى كتابتها وإملائها أيسر السبل. يراد بها فى اختصار أن تكون لغة الخاصة والعامة على السواء، لأننا نعيش فى عصر لا يقبل الخصوصيات، ولا يسلم بالامتيازات. وعربية هذا شأنها تقترب فيها

لغة الخطاب من لغة الكتابة، وتضيق مسافة الخلف بين العامية والفصحى، ولعلها تستطيع يوما أن تحل محل العاميات المتعددة .

وليس فى الاعتزاز باللغة القومية ما يصرف عن تعلم اللغات الأجنبية . وتقضى النظم التعليمية فى أغلب البلاد العربية بتعلم لغة أجنبية على الأقل، وقد تضاف إليها ثانية . وهذه البلاد حساسة لأى تقصير فى تعليم اللغة الأجنبية حساسيتها لما يحدث من تقصير فى تعليم اللغة القومية ؛ وتكاد توزع كلها بين الفرنسية والإنجليزية ؛ فتسود الأولى فى المغرب ، وتسود الثانية فى المشرق، وربما جمعت بلاد بينهما، وقد تضاف إليهما الألمانية أو الإيطالية. وهناك محاولات لتعميم الروسية، ولعله لوحظ من قبل أن فى العالم العربى استعداداً لتعلم اللغات الأجنبية، ولا تزال مدارس اللغات، وهى أجنبية الأصل، تؤدى رسالتها، وعليها إقبال ملحوظ . والعالم اليوم متشعب الصلات ومتعدد العلاقات، ولا يمكن أن يستغنى فيه عن تعلم لغات أجنبية، وبقدر ما يسعى العرب إلى تعلم لغات غيرهم بدأ يسعى هؤلاء إلى تعلم لغتهم .

ابراهيم مدكور
رئيس المجمع



القول في "ما" الزائدة

للدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج

قد تقع « ما » في فصيح الكلام زائدة، ولكن لا يمكن أن تكون فيه حشوا لغوا خالية من الفائدة . وأصل هذا — كما نبهنا إليه فيما سبق — أنها تنسلخ عن معانيها الوضعية ، فلا تكون مستعملة في شيء منها ، وإنما يؤتى بها لتأكيد معنى مستفاد من غيرها مما وقع في التركيب نفسه .

ومعلوم أن « ما » لها معان كثيرة : فتكون استفهامية ، واسم موصول ، وموصولا حرفيا « مصدرية » ، وشرطية ، ونافية ، وهذه أهم معانيها وأشهرها .

فإذا وردت في تركيب مجردة عن معانيها كلها ، وكان لا يمكن أن تكون مستعملة في شيء منها على أن يكون جزءاً أساسيا من المعنى المراد من التركيب فإنها تكون مزيدة . ثم هي تزاد في عدة أحوال ، أهمها — على ما قاله بعض العلماء — ثلاثة أحوال : (١) .

الحالة الأولى : أن تقع بعد شرط جازم أو غير جازم :

فالأول كما في قوله تعالى : « فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢٨ البقرة) ، فقد جاءت « ما » في هذه الآية بعد إن الشرطية الجازمة وقد أدغمت فيها .

وكما في قوله سبحانه : « أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » . (١١٠ الإسراء)

فقد جاءت هنا بعد « أيا » التي هي شرطية جازمة أيضا .

وهي في هاتين الآيتين زائدة ، فإنها قد انسلخت عن معناها الأصلي الذي كان يمكن أن يكون لها حينئذ ، وهو معنى الشرطية ، من حيث إن هذا المعنى قد استفيد من أداة الشرط قبلها ، وهي « إن » في الآية الأولى ، و « أيا » في الآية الثانية .

« والثاني » الشرط غير الجازم ، كما في قوله تعالى : « وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض » . (١٢٧ التوبة)

وقوله سبحانه : « وإذا ما غضبوا هم يغفرون » . (٢٧ الشورى)

فكلمة « ما » هنا أيضا زائدة ، إذ أنه لم يؤت

---

(١) في أمثلة الحالة الثالثة يمكن أن تكون « ما » أصلية ، وذلك بتوجيه وجيه ، كما سنقف على ذلك فيما سيأتي .

بها لإفادة معنى من معانيها الأصلية التى بيناها ، فإنها قد انسلخت عن هذه المعانى جميعها ولا أثر لها فيما يراد إفادته من المعنى الأصلى للتركيب ، فإنه مستفاد بدونها .

٢ — « الحالة الثانية » أن تقع بعد نكرة لمناسبة ما فيها من شيوع وإبهام ، وذلك كما فى قوله تعالى : « وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » (٨٨ البقرة) فإن « ما » فى هذه الآية لا يصح أن تكون اسم موصول أو موصولا حرفيا حتى يمكن أن يتخذ منها مبتدأ ؛ لأنه يكون حينئذ من غير خبر إذ أن « قليلا » منصوب لا يصلح أن يكون خبرا ، فهو معمول للفعل : « يؤمنون » أى أنه صفة موصوف محذوف معمول لهذا الفعل ، تقديره : إيمانا قليلا « أو زمانا قليلا » .

وليس من هذا القبيل — على الراجح — « ما » فى قوله تعالى : « إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما » (٢٦ البقرة) فإن « ما » هذه فى الرأى الراجح — ليست حرفا زائدا ، وإنما هى اسم نكرة وقعت صفة « لمثلا » والمعنى : لا يستحيى أن يضرب مثلا أى مثل ، وذلك كما تقول « أعطنى كتابا ما » ، أى كتابا أىّ كتاب .

ومتى كان صحيحا فى « ما » التى فى هذه الآية أن تحمل على ذلك المعنى فلا ينبغى أن تجعل حرفا زائدا لا يدل على معنى ، وهذا هو القانون العام والدستور الذى نبهنا إليه مرارا ، وهو الذى يجب السير عليه فى إعراب القرآن وتفسيره (١) .

٣ — « الحالة الثالثة » أن تقع بين الجار والمجرور ؛ كما فى قوله تعالى :

« فبما رحمة من الله لنت لهم » . (١٥٩ آل عمران) .

« فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم » : (١٣ المائدة) .

« قال عما قليل ليصبحن نادمين » : (٤٠ المؤمنون) .

« مما خطيئاتهم أغرقوا » : (٢٥ نوح) .

هذا — وإذا كانت « ما » زائدة فى هذه الأحوال الثلاثة فما الفائدة التى حققتها تلك الزيادة ؟ ومن أى طريق كان تحقيق هذه الفائدة إن كانت ؟

« والجواب » أن الفائدة التى حققتها زيادة « ما » هى توكيد المعنى الذى استفيد من غيرها مما ذكر معها فى التركيب ؛ وذلك يفيد بالضرورة توكيد الحكم المستفاد من هذا التركيب فى جملته .

فإذا زيدت بعد أداة شرط كان المقصود من زيادتها إفادة توكيد معنى الشرط ، والمعنى العام فى كل شرط هو ربط جواب الشرط ربطا يفيد ترتيب الجواب على ذلك الفعل ، فإذا زيدت « ما » على أداة الشرط فإنها تفيد توكيد ذلك الربط ، وتقوية ذلك الترتيب .

(١) بعض العلماء يجيز — كما أشرنا إلى ذلك آنفا — أن تكون « ما » فى آية : « إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما » زائدة ولكنه رأى ليس بجيد .

ومن هنا يقول « الزمخشرى » فيما كتبه فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ (١٩ ، ٢٠ فصلت) .

ما نصه : « فإن قلت » « ما » فى قوله : ﴿ حتى إذا ما جاءوها ﴾ ما هى ؟

« قلت » مزيدة للتأكيد ومعنى التأكيد فيها أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم ؛ ولا وجه لأن يخلو منها . ثم قال : ومثله قوله تعالى : ﴿ أثم إذا ما وقع آمنتم به ﴾ ، أى لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به(١) .

وهذا هو ما أفاده « أبو السعود » بوضوح واختصار إذ قال : « ﴿ حتى إذا ما جاءوها ﴾ أى حتى إذا حضروها [أى النار] ،وما مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور»(٢) .

والذى يدل على أنها تفيد بزيادتها توكيد الشرط أنها هى التى اقتضت مجىء الفعل بعده مقترنا بنون التوكيد ، وأن يكون توكيده بالنون حينئـــذ واجبا ، كما هو رأى المبرد والزجاج ، وهو أرجح الآراء .

ولذلك لم تأت « إن » الشرطية المؤكدة « بما » فى الكتاب العزيز إلا جاء الفعل بعدها مؤكدا بالنون .

« وأما طريق إفادتها التوكيد » فليس هو مجرد أنها زائدة ، فإن مطلق الزيادة التى لا يراعى فيها معنى خاص يناسب التوكيد ويساعد على تحقيقه لا يمكن أن يقال إنه مفيد للتوكيد .

ذلك المعنى الخاص هو الشىء الذى من طريقه تفيد « ما » الزائدة التوكيد ، وهو أمر يختلف باختلاف المواطن .

١) « فى الحالة الأولى » ــ وهى التى تزاد فيها « ما » بعد أداة الشرط ــ يراعى فيها أنها فى الأصل قد تستعمل شرطا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ (١٩٧ البقرة) .

فإذا كانت ــ حين وقعت بعد أداة شرط ــ قد سلخت ــ كما قلنا ــ من معناها الأصلى ، وهو الشرطية ، ولم يكن ورودها فى الكلام حينئذ لإفادة هذا المعنى إفادة أصلية ما دام أنه قد استفيد من غيرها قبلها . فإنه يمكن أن يقال : إنها تلمح إلى هذا المعنى،وتشير إليه إشارة يتحقق بها تأكيد معنى الشرطية .

وإذاً يكون التأكيد بها فى معنى التأكيد بالتكرير ، كما يقال : نعم . نعم ، ولا . لا ، فكأن الشرط فى هذه الحالة قد ذكر مرتين ، وذلك يفيد تقوية وتأكيدا من غير شك .

هذا البيان ــ الذى يتضح به وجه إفادة « ما » الزائدة بعد أداة الشرط توكيد ما استفيد من هذا الشرط ــ يشمل حالتى الشرط الجازم وغير الجازم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٩

(٢) تفسير أبى السعود المطبوع على هامش تفسير الفخر جـ ٧ ص ٦٤٥ الشرفية

ويضاف إليه — حين يكون الشرط الجازم « أيا » كما فى قوله تعالى : ﴿ أيا ما تدعوا ﴾ أن « ما » حينئذ تكون — بما فيها من إبهام مؤكدة أيضاً لما فى الشرط من الإبهام .

وفى هذا يقول العلامة أبو السعود — فى تفسير قوله تعالى : ﴿ أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ ما نصه : « والتنوين فى « أيا » عوض عن المضاف إليه . و « ما » مزيدة لتأكيد ما فى « أى » من الإبهام » ا هـ .

٢) أما فى الحالة الثانية — وهى التى فصلت فيها « ما » بين نكرة وقعت قبلها ، وعامل فى النكرة جاء بعدها فى مثل قوله تعالى : ﴿ فقليلا ما يؤمنون ﴾ — فإن السر فى أن زيادة « ما » حينئذ تفيد التوكيد هو ما تحمله من الإبهام الذى يلازم معانيها الأصلية كلها ، فكانت بهذا الإبهام مؤكدة للنكرة ، التى تدل بحسب وضعها على معنى الإبهام والشيوع .

ومما يشبه ما قلناه هنا وفى مواطن أخرى - عن زيادة « ما » وأخواتها من الحروف التى تزاد للتأكيد ، وأن هذا التأكيد ليس لمجرد أنها زائدة مطلق زيادة ، وإنما هو لأنها تشعر بمعنى يناسب معنى ما جعلت مؤكدة له — ما يقوله الإمام « الزمخشرى » فى تفسير قوله تعالى : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (٨ الصف) .

فإنه رحمه الله قال : ﴿ يريدون ليطفئوا ﴾ أصله يريدون أن يطفئوا ، كما جاء فى سورة براءة (يريد آية ٣٢ من سورة التوبة) .

ثم قال : « وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيداً له ؛ لما فيها من معنى الإرادة فى قولك : جئتك لإكرامك » (١) .

هذا - والإمام الزمخشرى قد قرر فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون ﴾ (٨٨ البقرة) أن « ما » - فى قوله سبحانه : ﴿ فقليلا ما يؤمنون ﴾ - زائدة ، وأن المعنى فإيمانا قليلا يؤمنون ، وهو إيمانهم ببعض الكتاب ، ثم لم يعرض لحكمة زيادتها ، ولم يبين المعنى الذى أفادته هذه الزيادة .

لكنه فى آية : « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » (٧٨ من سورة المؤمنون) قال فى تفسير قوله سبحانه : « قليلا ما تشكرون » مانصه : أى تشكرون شكرا قليلا ، وما « مزيدة للتأكيد بمعنى حقا » .

وهذا تفسير غريب ، إذ كيف تكون « ما » بمعنى « حقا » ؟ وبأى وضع لغوى أفادت هذا المعنى ؟ (٢) .

٣ — « وأما الحالة الثالثة » وهى التى وقعت فيها « ما » بين الجار والمجرور — فإن زيادة « ما » فيها — على مايرى بعض العلماء - تفيد التوكيد ، لكنهم لم يبينوا فى وضوح من أين كانت هذه الزيادة مفيدة للتوكيد ؟

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٥٥

(٢) ولعل مراد الزمخشرى بكلمة « حقا » ما يفيد تأكيد القلة ، كأنه قيل قليلا جداً

« وهناك رأى آخر » : أن «ما» فى هذه الحالة الثالثة أصلية ، وهو ما ذهب إليه بعض المفسرين: وذلك بأن تكون اسما نكرة بمعنى « شىء » أو « أمر » ، ثم يكون الاسم المصرح به عقيبها بدلا منها ، وبذلك يتحقق توكيد الحكم وتقويته من حيث إنه يكون مثبتا أولا بأمر مجمل ، وثانيا بمبين مفصل .

وقد يكون مما يتمشى مع هذا المعنى ويستأنس به فيه ما يقرره النحاة حين يقولون : إن العامل فى التابع هو العامل فى المتبوع ، إلا البدل ، فإنه على نية تكرار العامل .

وعلى هذا يكون قوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم » فى تقدير : « فبسبب أمر لنت لهم، بسبب رحمة من الله . وقوله تعالى : « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم » يكون تقديره : « فبسبب أمر ، بسبب نقضهم ميثاقهم لعناهم » .

ولا شك أن تخريج الآيات التى تدخل فى الحالة الثالثة على هذا الوجه الذى تكون فيه «ما» أصلية لا زائدة ، هو الذى ينبغى أن يسار عليه؛ فإنه - كما قلنا وكررنا - مادام يمكن حمل الكلمة على الأصالة لتدل على معنى من معانيها المعهودة لها فى اللغة بوجه صحيح مقبول فلا يسوغ العدول عن ذلك؛ ليقال إنها زائدة لا تفيد شيئا من تلك المعانى .

وفى هذا يقول ابن جرير الطبرى ما نصه :

« إن أهل العربية اختلفوا فى معنى « ما » التى فى قوله : « فقليلا ما يؤمنون » .

فقال بعضهم : هى زائدة لا معنى لها ، وإنما تأويل الكلام : « فقليلا يؤمنون » ، كما قال جل ذكره : « فبما رحمة من الله لنت لهم » وما أشبه ذلك ؛ فزعم أن « ما » فى ذلك زائدة، وأن معنى الكلام : «فبرحمة من الله لنت لهم » ، وأنشد فى ذلك — محتجا لقوله ذلك — ببيت مهلهل :

لو بأبانين جاء يخطبها
خضب ما أنف خاطب بدم

وزعم أنه يعنى : « خضب أنف خاطب بدم » ، وأن « ما » زائدة .

« وأنكر آخرون » ما قاله قائل هذا القول فى « ما » فى الآية وفى البيت الذى أنشده، وقالوا إنما ذلك من المتكلم على ابتداء الكلام بالخبر عن عموم جميع الأشياء ، إذ كانت « ما » كلمة تجمع كل الأشياء ثم تخص وتعم ما عمته بما تذكره بعدها » . ثم قال ابن جرير : « وهذا القول عندنا أولى بالصواب ، لأن زيادة ما لا يفيد من الكلام معنى فى الكلام غير جائز إضافته إلى الله جل ثناؤه » اهـ(١) .

ومعنى هذا أن « ما » تكون أصلية اسما نكرة بمعنى شىء أو أمر ، ثم يكون ما بعدها بدلا منها فى آية « آل عمران » : «فبما رحمة من

(١) تفسير الطبرى ج ٢ ص ٣٣٠ ، ٣٣١ دار المعارف

الله لنت لهم » ، وفى بيت مهلهل ، ولا شك أن الأسلوب يكون على هذا الوجه أقوى وآكد منه على وجه الزيادة ؛ إذ يكون الكلام به مشتملا على الحكم مرتين : مرة من طريق ما فى « ما » من معنى العموم ، ومرة أخرى على وجه الخصوص من طريق البدلية .

وهذا هو رأى الأخفش وغيره من أئمة النحو ، كما حكاه الآلوسى[1] .

وهكذا نجد « ابن جرير » يستصوب القول بأصالة « ما » فى آية « آل عمران » : « فبما رحمة من الله لنت لهم » وفى بيت « مهلهل » من حيث إن ذلك قد جاء على ما جرت به عادة العرب من التحديث عن الشىء أولا بصيغة العموم ، ثم يذكر بعد ذلك بطريق الخصوص .

وظاهر كلامه أنه لا يرى هذا الذى استصوبه فى الآية والبيت مما يمكن أن يجرى فى آية البقرة : ﴿ فقليلا ما يؤمنون ﴾ ، إذ أن حديث العموم والخصوص لا يتحقق فى هذه الآية ولا ينطبق عليها .

أما « الفخر الرازى » فإنه ذهب فى الآية التى معنا : « فبما رحمة من الله لنت لهم » مذهبا غريبا جداً ، فإنه — بعد أن حكى عن الأكثرين القول بزيادة « ما » فيها وفى الآيات التى على شاكلتها ، وهى التى فصلت فيها « ما » بين الجار والمجرور ، وقولهم : إن العرب قد تزيد فى الكلام لتأكيد ما يستغنى عنه — قال : « وقال المحققون : إن دخول اللفظ المهمل الضائع فى كلام أحكم الحاكمين غير جائز » . ثم عقب بذلك الرأى الغريب فقال ما نصه :

وهاهنا يجوز أن تكون « ما » استفهامية للتعجب ، تقديره : « فبأى رحمة من الله لنت لهم » ، وذلك لأن جنايتهم لما كانت عظيمة ، ثم إنه ما أظهر ألبتة تغليظا فى القول ولا خشونة فى الكلام ، علموا أن ذلك لا يتأتى إلا بتأييد ربانى ؛ وتسديد إلهى ؛ فكان ذلك موضع التعجب من كمال ذلك التأييد والتسديد ؛ فقيل : « فبأى رحمة من الله لنت لهم » . ثم قال الرازى : وهذا هو الأصوب عندى ، اهـ[2] .

ومعنى هذا أن « ما » فى هذه الآية ليست — فى اختياره — زائدة ؛ بل هى أصلية للاستفهام التعجبى .

وهذا رأى عجيب وغريب ؛ على رغم أن « الفخر » يقول إنه هو الأصوب عنده .

إن جعل « ما » فى الآية للاستفهام التعجبى هو شىء لا تستصوبه اللغة ولا تسوغه : ذلك أن « ما » الاستفهامية إذا وقعت بعد حرف جر فإنه يجب أن تحذف ألفها ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ عم يتساءلون ﴾ ؛ ﴿ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴾ ؛ ﴿ وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ ، ﴿ يأيها

---

(١) روح المعانى ج ٤ ص ٩٤ المنيرية

(٢) تفسير الرازى ج٣ ص ٨٠ المطبعة الحسينية

الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ﴾؛ ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾.

وهكذا لا تقع « ما » الاستفهامية المجرورة لا فى القرآن ولا فى كلام عربى فصيح إلا وألفها محذوفة، للتفرقة بين الاستفهام والخبر. وإذا وردت ثابتة الألف فى كلام يدعى أنه عربى فأقل ما يقال فيه: إنه شاذ ورديء.

هذا سبب لا تسوغ اللغة من أجله أن تكون « ما » — فى قوله تعالى: ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ — استفهامية تعجبية.

وهو أمر يرجع إلى الصورة ومخالفتها لما هو مقرر فى اللغة فى « ما » الاستفهامية المجرورة.

« وسبب آخر » يرجع إلى المعنى، وهو أن « ما » الاستفهامية — سواء أكانت تعجبية أم غير تعجبية — ليست فى اللغة بمعنى « أى » المجردة، حتى يمكن أن توصل بكلمة « رحمة » فى الآية ليصير المعنى: فبأى رحمة من الله لنت لهم؛ كما يقول الفخر الرازى؛ وإنما هى فى اللغة بمعنى « أى شيء »(١).

وذلك كما فى قوله تعالى: «عم يتساءلون»؛ فإن معناه عن أى شيء يتساءلون. وقوله سبحانه — حكاية لقول ملكة سبأ —: « وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون »، فإن معناه: فناظرة بأى شيء وبأى رد وجواب يرجع المرسلون.

فإذا أخذت « ما » بمعناها هذا فى آية: « فبما رحمة من الله لنت لهم » لم يستقم الأمر على ما يريده الرازى؛ إذ لا يكون معنى الآية حينئذ فبأى رحمة من الله؛ وإنما يكون: فبأى شيء رحمة من الله؛ ويكون ذلك ضربا من اللفظ الذى يستحيل أن يقع مثله فى القرآن الكريم.

« والزمخشرى » ماذا يرى فى « ما » الاستفهامية هذه التى وقعت بعد حرف جر؟ إنه قد اضطربت كلمته فى ذلك:

ففى قوله تعالى: « قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم » (١٦ الأعراف) نجده يقول ما نصه: « وقيل « ما » للاستفهام، كأنه قيل بأى شيء أغويتنى؟ ثم ابتدأ « لأقعدن ». [ثم قال]: « وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على « ما » الاستفهامية قليل شاذ » اهـ(٢).

لكنه فى آية ٢٧ من سورة « يس » — فى قوله تعالى —: « قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى » — يقول: « يحتمل أن تكون « ما » استفهامية؛ يعنى بأى شيء غفر لى ربى »؛ ثم استدرك فقال: إلا أن قوله: « بم غفر لى » بطرح الألف أجود وإن كان إثباتها جائزاً »(٢).

وهكذا يجيز « الزمخشرى » أن تكون « ما » الاستفهامية الواقعة بعد حرف جر ثابتة الألف،

---

(١) القاموس المحيط، مادة « ما » من باب الألف اللينة

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٨١

ولم يجعل ذلك من الأمور الشاذة التي جاءت على خلاف القواعد العامة، أو على خلاف الاستعمال الغالب في اللغة ، كما قال في آية الأعراف . وكل ما قاله في ذلك أن الأجود هو طرح الألف ، وفرق كبير بين أن يقال : « إن إثبات الألف قليل وشاذ » وأن يقال : « إن الأجود خلافه » والزمخشري هو صاحب القولين .

* * *

« وبعد » فإننا نريد هنا قبل أن ننهي هذا البحث أن نورد آية من سورة « الانفطار » وردت فيها كلمة « ما » على وضع خاص كان مثار اجتهاد المجتهدين من علماء اللغة والمفسرين .

وذلك في قوله تعالى : « يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ؛ الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك » .

اختلفت آراء أولئك المجتهدين في إعراب هذه الآية الثامنة ومعناها :

فقال بعضهم : إن « ما » في قوله سبحانه : « ما شاء ركبك » زائدة ، وجملة « شاء » بعدها صفة لصورة ؛ والتقدير « في أي صورة شاءها ركبك » أي ركبك في صورة عظيمة عجيبة شاءها فقوله سبحانه وتعالى : « في أي صورة» متعلق بالفعل ركبك .

ووصف الصورة بالعظم أو بالحسن والإعجاب آت من أن كلمة «أي» هي في الأصل للاستفهام وللشيء العظيم الفخم أو الحسن المعجب من شأنه أن يستفهم عنه وعن مقدار عظمه وحسنه وفخامته ، وقد جرى الاستعمال في ذلك بنقل « أي » من الاستفهام لتدل على الاتصاف بالحسن أو العظم والفخامة ؛ فيقال : رأيت رجلا أي رجل ، ولقيت عالما أي عالم أي رجلا عظيما وعالما فاضلا.

فقوله تعالى : «في أي صورة ما شاء ركبك » معناها في صورة عظيمة أو صورة حسنة بديعة .

وهذه الجملة : « في أي صورة ما شاء ركبك» قد فصلت عما قبلها فلم تعطف عليه كما عطف قوله سبحانه : « فسواك فعدلك » لأنها وقعت بيانا للتعديل وإفادة أن التعديل الذي هو العدل — كما في قراءة حفص : « فعدلك بالتخفيف — مراد به إتقان الصورة وإحكامها وجعلها متسقة متناسقة الأعضاء والأجزاء ، متناسبة الأركان والأطراف .

هذا هو حاصل معنى الآية وإعرابها على القول بأن كلمة « ما » فيها زائدة .

وهناك قول آخر أن « ما » هذه أصلية ، وأنها اسم موصول وقعت خبرا لمبتدأ محذوف والتقدير : « في أي صورة هي ما شاء » أي هي التي شاءها ، والجملة من المبتدأ والخبر صفة لصورة ؛ وقوله تعالى : « في أي صورة » متعلق بقوله : « ركبك » كما في القول الأول ؛ والتقدير « في أي صورة هي ما شاءها ركبك » ، أي في صورة عظيمة وعجيبة ؛ والمعنى أنه سبحانه وتعالى ركبك في صورة عظيمة بديعة هي التي شاءها .

وجملة « في أي صورة ما شاء ركبك » مستأنفة وقعت بيانا لمعنى العدل أو التعديل في قوله سبحانه : « فعدلك » كما في القول الأول

سواء ؛ ولذلك فصلت ولم تعطف على ما قبلها كما عطف قوله تعالى : « فسواك فعدلك » .

والخلاصة أنه على القول الأول تكون « ما » زائدة ، وجملة « شاء » بعدها فى محل جر صفة لصورة ؛ وعلى القول الثانى هى أصلية اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة من المبتدأ والخبر فى محل جر صفة لصورة أيضاً .

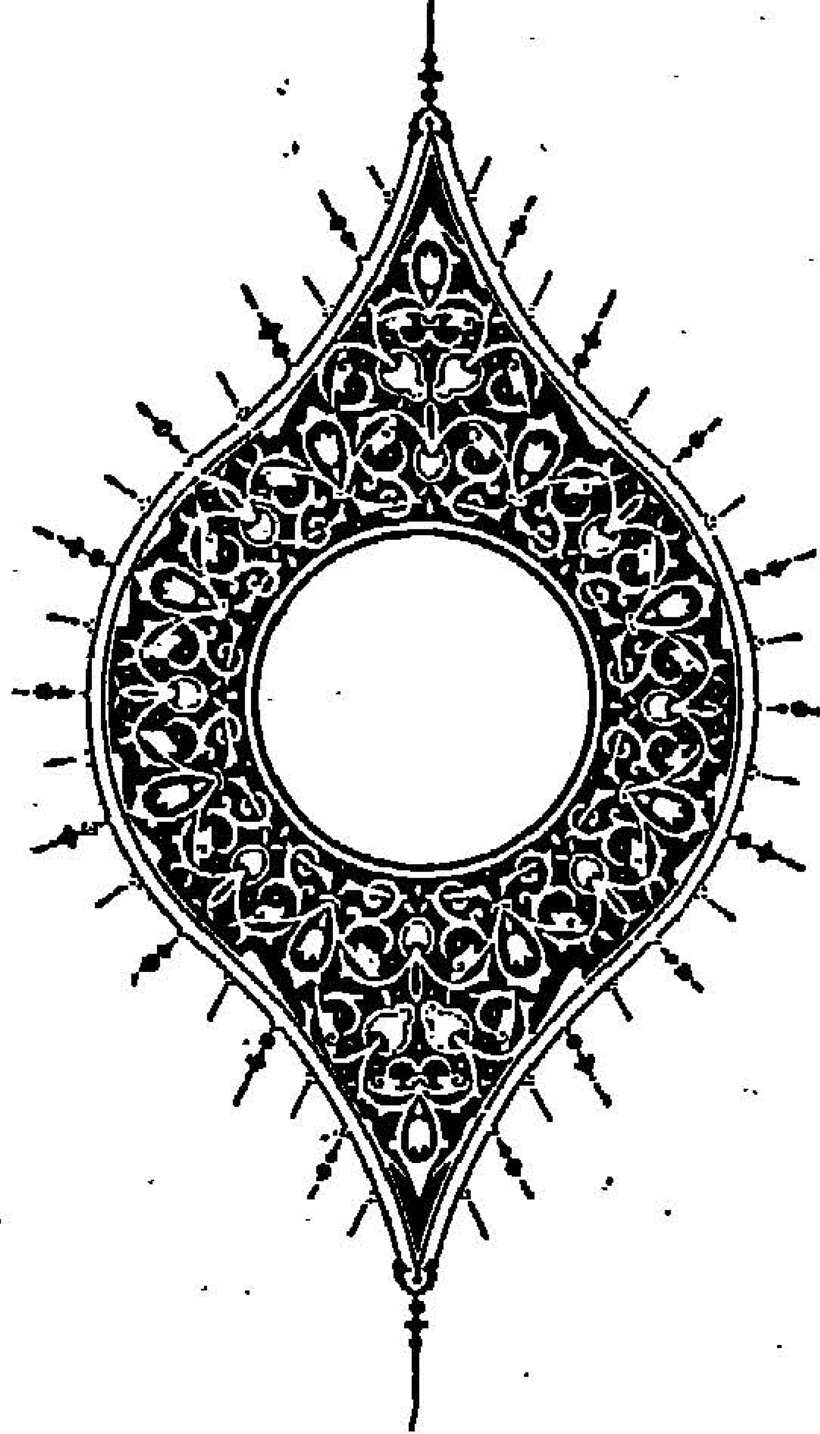
وجملة : « فى أى صورة ما شاء ركبك » مستأنفة على كلا القولين ، لأنها بيان لقوله سبحانه : « فعدلك » .

وإذاً لا فرق بين القولين فى المعنى والمراد من الآية ، ولا فى إعرابها إلا فى كلمة « ما » وما يترتب على الحكم بأنها زائدة أو أصلية .

ثم إن القول بأن « ما » فى الآية أصلية هو الأقوى والأحق بالاتباع ، فإن المعنى على أساسه جلى وواضح ، وقد قلنا فى مواطن كثيرة : إنه ما دام يمكن حمل اللفظ على معنى من معانيه الأصلية فإنه يجب الاعتداد به فيه ، ولا ينبغى جعله زائدا غير مفيد شيئاً من تلك المعانى .

هذا — واختيار القول بأصالة « ما » فى هذ الآية وإعرابها على النحو الذى بيناه هو مما وفق الله للاهتداء إليه ، على خلاف ما أطال القول فيه كثير من العلماء ، كما ذكره الآلوسى فى تفسيره ، والله أعلم .

عبد الرحمن تاج
عضو المجمع الراحل



الإنسان العربى
فى القرن الخامس عشر الهجرى
علميا وتكنولوجيا
للدكتور عبد الحليم منتصر

ماذا عسى أن يكون حال الإنسان العربى ، فى القرن الخامس عشر الهجرى ، الذى يبدأ فجره بعد سنوات معدودات ؛ ولعلنا أن نحدد مجال التكهن بحاله ، من الناحية العلمية والتكنولوجية .

لقد مضى على هذا الإنسان العربى قرابة أربعة عشر قرنا ، مذ نعم بنعمة الإسلام الحنيف ، وإن معجزته الكبرى كتاب هو القرآن الكريم ، وإن أول آية « اقرأ باسم ربك الذى خلق » . وإن كثيرا من آياته الكريمة لتحض فى دأب على طلب العلم ، والتفكير فى ملكوت السموات والأرض ، وفى الكون والكائنات كقوله تعالى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، وقوله : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ، وقوله أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، وقوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

ومن أقوال الرسول (ص) : « لغدوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة » . وقوله : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء » وقوله « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » وقوله « الناس من أمتى ثلاث فئات : عالم ومتعلم والباقى همج » ، وقوله : « لا خير فيمن كان من أمتى ليس بعالم ولا متعلم » ، وقوله : « اطلبوا العلم ولو بالصين وقوله « لا يزال طالب العلم عالما ، حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل » ، وقوله « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » :

وكان الخلفاء فى العصر الإسلامى الأول ، يعدون أنفسهم حماة للعلم ، ويرون أن قصورهم يجب أن تكون مراكز تشع منها الثقافة والعرفان ومثابة يلتقى عندها العلماء والأدباء . ومنهم من خصص فى قصره دورا ومساكن ومقاصير ، يرتب فى كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعلمية ويجرى عليهم الأرزاق السنية ، ليقصد كل من اختار علما أو صناعة رئيس ما يختاره ، فيأخذ عنه ؛ وقد بدأت بقصر معاوية الخليفة الأموى الأول ، وازدهرت فى عصر عبد الملك بن مروان ، والوليد ابن عبد الملك فى العصر الأموى

وفى عهد الدولة العباسية ، اتخذت هذه الصالونات العلمية أهميتها لتتناسب مع أهمية ذلك

العصر، وأصبحت الاجتماعات العلمية تعقد فى أوقات منتظمة، وشملت قصور الأمراء والعظماء إلى جانب قصور الخلفاء، واتخذ لها الأثاث الفاخر والرياش المناسب لرفاهية هذا العصر. وتنوعت هذه الصالونات، فقد كان منها الأدبى ومنها العلمى والفنى والموسيقى. وظلت صالونات العلم والأدب -فيما يروى الأغانى- أرفعها قدراً. وفى عهد الرشيد- وكان واسع الثقافة - جمع حوله صفوة من العلماء والأدباء، وكذلك فى عهد المأمون، بلغت هذه الصالونات وتلك المجالس العلمية الذروة.

يقول «هوجز» إن عصر المأمون أزهى عصور النهضة العلمية فى العصر العربى الإسلامى إذ كان الخليفة نفسه عالما من أساطين العلماء، واختار أصحابه ورجال الدولة من الصفوة الأفذاذ فى الشرق والغرب، هذا إلى جانب الأساتذة والمشرين والمترجمين والمفكرين، الذين عـّلى بهم بلاطه وزين ملكه. ويقول «سيد أمير على»: إن بلاط المأمون كان يموج بجمهرة عظيمة من رجال العلم والأدب والشعراء والأطباء والفلاسفة الذين استدعاهم المأمون من كل رجا من أرجاء العالم المتمدين، وشملهم جميعا بعنايته مهما اختلفت مشاربهم وجنسياتهم. وبلغ بيت الحكمة أوجه فى عصر المأمون، وتقاطر المترجمون على بغداد، ونقلت العلوم المختلفة من اللغات اليونانية القديمة والقبطية والهندية والسريانية إلى اللغة العربية التى كانت اللغة العلمية فى العالم الإسلامى، وامتدت رقعة الإمبراطورية العربية من حدود الصين شرقا إلى حدود فرنسا غربا.

فكل من أراد أن يكتب علما تقرؤه الناس لجأ إلى اللغة العربية فكتب وألف بها.

وكذلك كانت منازل العلماء، وقصور الخلفاء والأمراء، ودور الكتب: بيت الحكمة فى بغداد، ودار الحكمة فى القاهرة، ودار العلم فى الموصل، كما كانت المساجد: المنصور فى بغداد والأموى بدمشق، والأزهر بالقاهرة، والقيروان فى تونس، والقرويين فى المغرب، وقرطبة فى الأندلس، والكبير فى صنعاء، كل هذه كانت قبل إنشاء المدارس، تؤدى فى العصر العربى الإسلامى ماتؤديه الجامعات ومعاهد العلم فى العصر الحاضر.

وكان تقدير الدولة للعلم والعلماء، والإنفاق بسخاء على العلم والعلماء، هما طابع هذا العصر الذهبي الزاهر. وحتى بعد أن انقسم العالم العربى إلى دويلات، بقى تنافس الحكام والولاة فى رعاية العلم والعلماء قائما.

ومن العلماء من كان يتخذ التدريس مهنة، ومنهم من كان يعمل تطوعا لتثقيف الناس وتعليمهم عن طريق حلقات تعيمية أو بتأليف الكتب ونشرها. وكانوا أغلب الأمر موضع تقدير العامة والخاصة وقد نصح أحد الخلفاء برسالة جاء فيها: «واعلم أن مواقع العلماء من تلك مواقع السرج المتألقة، والمصابيح المتعلقة، وعلى قدر تعاهدك تبذل الضياء، وتجلو بنورها الأشياء». وقيل لأحد الخلفاء: هل بقيت لك بقية لم تنلها؟ قال: «بقيت واحدة هى أعلى من جميع ما نلته، وأنفم من كل ما باشرته، بل لم نقرب منها فضلا عن أن تساويها منحة أو مرتبة، تلك هى أن أجلس مجالس العلماء، أملى وأشرح وأفيد».

وكان أبو الأسود الدؤلى يقول: « ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام الناس ، والعلماء حكام الملوك » وكذلك تهيب والى المدينة أن يمشى إلى الإمام مالك ليقدم إليه الإمام الشافعى قائلا : « مشى من جوف مكة إلى جوف المدينة ،حافيا راجلا ، أهون على من أن أقف بباب مالك ». تلك كانت سمة العلماء فى هذه العصور الإسلامية الزاهرة .

يقول ابن جبير: « وتكثر الأوقاف على طلاب العلم فى البلاد الشرقية كلها . فمن شاء الفلاح من نشء مغربنا ، فليرحل إلى هذه البلاد فيجد الأمور المعينات كثيرة ، وأولها فراغ البال من أمر المعيشة ».

وكذلك كان الحال فى مصر : يقول « لين » يجتمع فى الأزهر الطلاب من البلاد المختلفة من العالم الإسلامى من ساحل الذهب فى غرب إفريقيا إلى الملايو فى شرق آسيا ، وقد حدد رواق خاص لكل قطر من الأقطار ، ويتلقى دروسهم على شيوخ أجلاء ورعين ، وليس التعليم بالمجان فحسب ، بل إن الطلاب يتلقون جرايات وأطعمة من أوقات تسد حاجتهم ، فالأزهر فى رأى لين . مثال نموذجى لمجانية ، تلك المجانية المفتوحة لجميع الطلاب على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم من غير أى تمييز لعنصر أو طبقة من الطلاب . وفى العهد الأيوبى كان كل تلميذ بمصر يلقى سكنا يأوى إليه ، ومدرسا يعلمه ، ومراقبا يقوم بجميع أحواله .

من ذلك نرى أن ما يتيه به العصر الحديث ، من مجانية التعليم ، وتكافؤ الفرص ، وتقديم المنح والجوائز ، كل ذلك ليس من مستحدثات العصر الحديث .

وكذلك كان معروفا ما نسميه بالبعثات العلمية وذلك منذ الجيل الإسلامى الأول ، حين تفرق علماء الصحابة فى الأقطار ، وأقام كل منهم مركزاً علمياً فى البلد الذى حل فيه ، فحلقة فى اليمن ، وثانية فى الكوفة ، وثالثة فى مصر ، ورابعة فى البصرة ، وخامسة فى المدينة ... وهكذا . وأصبح لكل مدرسة طابعها المميز ، فكان الناس يسعون إلى حلقات هؤلاء الأساتذة لينتفعوا بعلمهم . وفى الجيل التالى كانت العلوم قد تشعبت ، وظهرت نواحى تخصص لم تكن معروفة قبلا . واشتهر كل أستاذ بتخصص معين يدرسه فى حلقة المسجد ، وزادت الحلقات فى المسجد الواحد ، وزاد عدد المساجد فى المدينة الواحدة ، وغدت القيمة العلمية للطالب ، تتناسب مع عدد الرحلات التى قام بها لطلب العلم ، والشيوخ الذين حضر عليهم . وإذا لاحظنا أن وسائل الانتقال لم تكن ميسرة كما هى الحال الآن ، قدرنا الجهد الذى بذله هؤلاء الرواد فى طلب العلم وتدوينه . يقول نيكلسون : كان طلاب العلم يرحلون فى حماسة بالغة عبر القارات الثلاث ، ثم يعودون إلى بلادهم كما يعود النحل محملا بالعسل . ثم يعكفون على التدوين ، فيخرجون كتبا هى بدوائر المعارف أشبه ، وهى المصادر الأولى للعلوم الحديثة ، بكل ما تحمله كلمة العلوم من معنى .

وتروى عن هذه الرحلات قصص ، هى إلى الأساطير أقرب ، فمنهم من عبر القارات وقطع

آلاف الأميال على ظهر بعير . ومنهم من لم يكن يملك سوى قدميه، فسار راجلا. ويذكر التاريخ رحلة يحيى بن يحيى الليثى، من قرطبة إلى المدينة ليسمع من مالك ، ثم إلى مكة ليسمع من سفيان بن عيينة ، ثم إلى مصر ليسمع من الليث بن سعد ، ثم يكر راجعا إلى الأندلس . ورحلة البخارى فى جمع الأحاديث التى استغرقت ستة عشر عاماً ، كذلك رحلات حنين بن إسحاق ، ورحلة البيرونى فى الهند التى عاش فيها أربعين عاماً ، يطوف بين أرجائها الشاسعة ، يدرس لغاتها وعاداتها وتاريخها وجغرافيتها ودياناتها . وكذلك يروى عن « ابن منده » : أنه قام برحلة علمية طويلة ، جلس فيها إلى ألف وسبعمائة شيخ ، وجمع جملة من الكتب كانت عند عودته أربعين حملا .

وفى القرن الخامس الهجرى ، كانت الرحلات إلى المدارس التى ازدهرت فى هذا العهد ، حيث يجد الطلاب المقام والمأوى والأساتذة الذين يطلبون لديهم العلم ، واشتهرت رحلات أخرى ، قام بها علماء ممتازون ، زاروا مختلف البلاد . وسجلوا ملاحظاتهم ودراساتهم فى كتب الرحلات ، التى تعتبر من أغنى المصادر ، مثل ياقوت ، وابن جبير ، وابن بطوطة والمقدسى وغيرهم . وكان هؤلاء الرحالة ، سواء من طلاب العلم أو شيوخه، يلقون حيث يحلون إكراما وكرما بالغين .

ولم يكن حظ المرأة فى هذه العصور بأقل كثيراً من حظ الرجال ، على تفاوت فرص التعليم بين المرأة والرجل ؛ فقد اشتهر كثيرات من النساء بالعلوم الدينية ورواية الحديث والأدب والطب، ومنهن من كن شيخات لبعض الشيوخ ، تعلموا عليهن، ورووا عنهن، وحضروا عليهن الدروس. وتخير ابن عساكر من بين شيوخه وأساتذته الذين تلقى عنهم العلم ، إحدى وثمانين امرأة .

وكان المأمون أول من نادى بألا يكون نشاط بيت الحكمة متوقفا على سخاء الخلفاء والأمراء ، فهيأ للعلماء أرزاقا سخية ، يتقاضونها فى أوقات ثابتة بغيض ريعها عن التكاليف لهذه المؤسسة العظيمة. كذلك جرى العمل من بعده على أن يكون لكل معهد أو مدرسة وقف ثابت يفى بنفقاتها . وكذلك فعل الحاكم بأمر الله حين أوقف على دار الحكمة كما أوقف على الأزهر أوقافا ثابتة ، وكان يقول : أريدها أوقافا أبدية ، لا تزول بزوال الحاكم . وروى عن بعض الحكام ، أنهم كانوا يقسمون الخراج أثلاثا . ويجعلون الثلث للتعليم .

وكذلك نتبين كيف سطعت الحضارة العلمية الإسلامية فى هذه العصور الزاهرة ، وكيف هيأ الخلفاء والحكام والأمراء ورجالات الدولة ، الأسباب لنشر نور العلم والعرفان فى أرجاء الوطن العربى ، مما مكن لأمة العرب أن تستعلى فى هذه الأحقاب الموغلة فى القدم ، وتدل بعلماء من أمثال ابن الهيثم وابن سيناء والبيرونى والكندى والجاحظ وابن مسكويه والفارابى وابن النفيس وجابر والرازى وغيرهم ممن يفرنون إلى أعاظم العلماء فى كل عصر وآن . وكذلك استطاعت الأمة العربية أن تكون الإمبراطورية الشاسعة فى أقل من قرن من الزمان ، واستعلت الأمة العربية بالإسلام أولا وبالعلم ثانيا : الإسلام بقيمه من جد وأمانة وإخلاص ووفاء، والعلم بما يعطى من قوة دافعة ، فالقوة دائما فى ركاب العلم .

تلك كانت حال الأمة العربية فى العصر الإسلامى ، وذاك كان حال الإنسان العربى فى عصر الحضارة العلمية الإسلامية أعطى ، وكان مسرفا فى عطائه ، وأشع على العالم كما تقول المستشرقة سيجريد هونكه : نورا وعلما ومعرفة وقدم لأوروبا زاد نهضتها العلمية ، عن طريق الأندلس حيث بقى الانسان العربى سبعة قرون متصلة ، وعن طريق صقلية حيث حكم زهاء ثلاثة قرون ، وعن طريق الحروب الصليبية التى استمرت زهاء قرنين من الزمان ، وعن طريق الإمبراطورية العثمانية حين غزت شرق أوروبا . وظلت كتب العلماء العرب فى العصر الإسلامى ، مراجع معتمدة فى جامعات أوروبا عدة قرون : وظهر من يقول من المؤرخين المنصفين، إنه كان لابد من ظهور ابن الهيثم والبيرونى وابن سينا وجابر والرازى والصوفى والبتانى ، لكى يتسنى ظهور كبلر وجاليليو وكوبرنيق .

وإنه لولا أعمال العلماء العرب فى العصر الإسلامى ، لاضطر علماء النهضة الأوروبية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ، ولتأخر سير المدنية عدة قرون . ويقول آخرون : لولم تصبنا محنة المغول والتتار والترك والاستعمار ، لكانت هذه النهضة التى تفاخر بها أوروبا من نصيب الأمة العربية ، ومن صنع الإنسان العربى ، ولتقدم علمها فى التاريخ بضعة قرون ، ولتكون لغتها هى العربية . ولكنها إرادة الله أن نزرع نحن ليجنى غيرنا الثمار . ولعله درس لنا وعبرة وعظة ، أن ننهض من هذه الغفوة التى طالت واستطالت بضعة قرون ونحن الأُلى تكلمنا فى الجاذبية قبل نيوتن ، وتحدثنا عن التطور قبل داروين، ومارس علماؤنا وأطباؤنا التشريح قبل علماء أوروبا بقرون ، وعرفنا الدورة الدموية قبل هارفى ، وتكلمنا فى العناصر والذرة وضغط الغازات قبل تورشيلى ، وشارل وبويل وعرفنا البندول قبل جاليلو ، وقلنا بأن الشمس مركز الكون قبل كوبرنيق ؛ إنها حقائق علمية ، ليس إلى نكرانها من سبيل ، سبق بها الإنسان العربى الإنسان الأوروبى . ولكنه الزمن الدوار ، وهى القوة فى ركاب العلم دائما ، ولقد كنا أقوياء عندما كنا علماء ، وعندما كانت لدينا حرية رأى على إلى أبعد الحدود ، وعندما كانت الدولة ترعى العلم والعلماء إلى أبعد الحدود ، وتنفق على العلم والعلماء بسخاء منقطع النظير ، وعندما كان الانسان العربى العالم يستعلى بعلمه إلى أبعد الحدود ويسعى إليه حيث كان .

والآن : لن تجد من يمارى بأن الإنسان العربى متخلف ، يحاول جاهدا أن يلحق بالركب فى عصر الذرة ، والإلكترون ، والحاسبات الإلكترونية وسفن الفضاء ، وغزو الفضاء ، والوصول إلى القمر ، ومحاولة الوصول إلى الكواكب الأخرى : عصر الحضارة العلمية والتكنولوجيا العلمية ، التى تستغلها الدول المتقدمة فى كل مرفق من مرافق الحياة فيها ، فى المأكل والمشرب والملبس ، والاتصالات السلكية واللاسلكية ، وفى سلمها وحربها ، فى مواصلاتها عبر البحار، وعلى متن الهواء، بالطائرات الأسرع من الصوت ، والغواصات . عصر الصواريخ عابرة القارات ،وعصر النوادى النرية الذى يتزايد عدد أعضائه يوما بعد يوم وسنة بعد أخرى .

وإذا نظرة إلى المجتمع العربى فى الوطن العربى

بعامة نجد أن القاعدة العريضة أمية أو تكاد، بل إن رصيدنا من الأمية يزداد عاما بعد عام؛ وذلك لأن الزيادة فى السكان لا تقابلها زيادة فى عدد المتعلمين، أو أن الزيادة فى عدد المتعلمين لا تتناسب مع الزيادة الهائلة فى السكان، وكذلك ارتفعت نسبة الأمية فى العشرين سنة الأخيرة من ٥٠٪ إلى أكثر من ٨٠٪ فكيف تفهم هذه القاعدة العريضة الأمية - وقد اجتمع عليها الجهل والفقر - مشكلات العصر؟ وكيف تستجيب لأحداثه؟

إن أهمية التعليم فى المجتمعات الحديثة ليست بالنسبة للموهوبين فحسب، ولكن ينبغى أن يكون الكل قادرا على القراءة والكتابة كل ساعة من كل يوم، حتى يكونوا قادرين على الحكم على الأحداث، وفهم مجرياتها والتصرف بمقتضاها. إذا لم توجد هذه القاعدة العريضة المتعلمة فلن يرتفع البناء، وحتى لو ارتفع إلى حين فإنه سينهار وشيكا، ثم إن هذه القاعدة العريضة المتعلمة هى وحدها القادرة على تقبل ومساندة هذه القمة من الموهوبين الممتازين، حتى يكون ثمة توازن فى المجتمع العربى بين القاعدة والقمة بشرط أن يكون التعليم وفق احتياجات المجتمع من المتخصصين الدارسين من زراعيين ومهندسين وأطباء وصيادلة أو كيميائيين أو باحثين علميين أو جيولوجيين فى مختلف فروع المعرفة الأساسية أو التطبيقية، وأن يكون ذلك وفق تخطيط مدروس، بحيث لا يكون هناك فائض عاطل، يكون عبئا على المجتمع

ومن الخير إنشاء معاهد متخصصة لتخريج الفنيين والتقنيين كل حسب استعداده وميوله. وليس من المفيد أن نوجه كل هذه الحشود نحو تعليم جامعى أكاديمى. قد لا يكون متفقا مع رغباتهم وميولهم؛ إذ ليس من المعقول أن يكون كل مواطن جامعيا. نعم ينبغى أن تكثر من المعاهد التكنولوجية المختلفة، ويجب أن يكون لكل منها طابعه وشخصيته ومجالات تفوقه ولا ينبغى أن يخجل مواطن من الانتماء إليه أو الانتساب له، مادام إنتاجه مرموقا ومقدرا ومطلوبا، ومادام يعمل جاهدا للتفوق فى الأداء؛ إذ أن النهضة تحتاج إلى جهود كل فرد وتفوقه فى الأداء أيا كان تخصصه.

وها نحن نخطو إلى عتبات القرن الخامس عشر الهجرى، ولنا هذا التاريخ المشرق الوضاء وها هى الدول العالمة القوية المتقدمة، تسبقنا بأشواط وأشواط، يبدو أن ليس من قطعها من سبيل. وها قد أفاء الله على الإنسان العربى بثروة بترولية هائلة، يتحلب لها ريق الدول القوية، وها هى ثروات بعض الدول العربية تقدر بأرقام فلكية، ويبدو أنها لا تكاد تقع تحت حصر، بل تفوق كل تقدير. وإنها لفرصة سانحة لعل الإنسان العربى أن يهتبلها، بكل ما استطاع من سرعة، ومن قوة، فيلجأ إلى تعليم أبناء الأمة العربية جميعا فالعلم والتعليم هما أولا وثانيا ... وعاشرا. والسبيل الوحيد إلى القوة والمجد. وينبغى أن يكون ذلك وفق خطة مدروسة متكاملة، فتنشأ المدارس فى كل قرية بل فى كل دسكرة، وتنشأ المعاهد التكنولوجية فى كل مركز، وتنشأ الجامعات والمعاهد المتخصصة

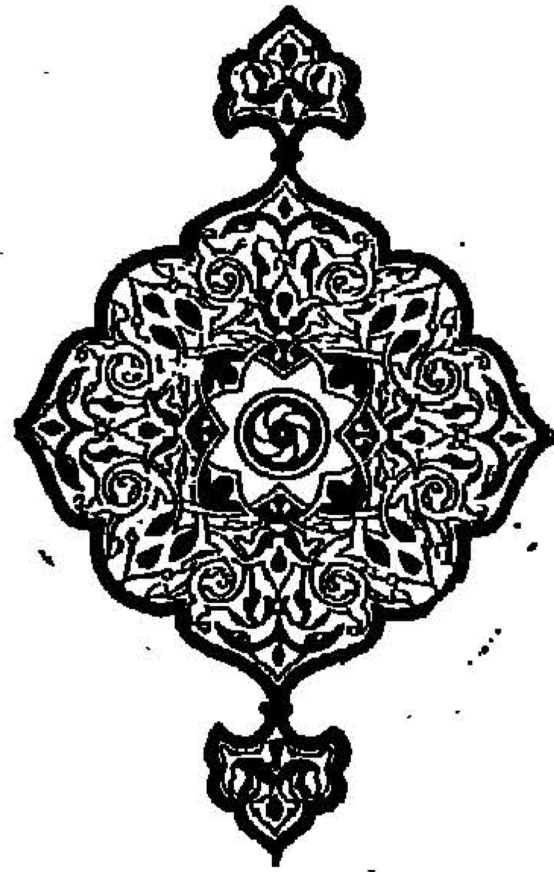
فى كل قطر ، كل بحسب احتياجاته وعدد سكانه ، و تنشأ مراكز البحث العلمى فى كل قطر وفى كل صقع ، بحسب الاحتياجات الزراعية أو الصناعية أو المعدنية . وها هى الرقعة المنزرعة والقابلة للزراعة فى حاجة إلى أموال لاستصلاحها واستزراعها ، وهاهى الأرض الصحراوية المنبسطة، والتى تبلغ مساحتها تسعة أعشار مساحة الوطن العربى كله ، فى حاجة إلى إعذاب المياه الملحة المحيطة بها فى البحار والمحيطات، وثمة ثروات وموارد معدنية مخبوءة فى باطن الأرض هنا وهناك ، تحتاج إلى العلم والخبرة لاستخراجها واستنباطها وهاهم أبناء الوطن العربى . على أهبة الاستعداد لخدمة أوطانهم . . ماوجدوا التقدير والتوقير اللازمين فلا تجذبهم الدول القوية المتقدمة بما تسبغه عليهم من تقدير ، وما تغدقه عليهم من أسباب ، وما يجدونه لديها من إمكانيات علمية ومادية ، ومعملية ، ومكتبية ، وما تهيء لهم من وسائل البحث العلمى المنظم .

ومالنا وقد أفاء الله علينا من نعمائه هذا الثراء الواسع العريض ، مالنا لانجتذب نحن الخبرات الأجنبية ، فنستوردها ، لترفع من إمكانياتنا وتزيد فى خبراتنا ، ونمكن للإنسان العربى فى أرضه أولا ، وإنه لقادر بعدذلك أن يستعلى بقوته وأن يدل بعلمه ، فيأتى إلينا العلماء من كل حدب وصوب يعاونون فى استغلال ثرواتنا ، المعدنية والزراعية والصناعية والعمرانية والعلمية .

ما أشد حرصى على أن أرى هذا الذى أدعو إليه واقعاً ، فيتعلم المائة مليون عربى الذين يقطنون أرض الوطن العربى ، من المحيط إلى الخليج ويتسلحون بالعلم والخلق والقيم التى دعا إليه الدين الحنيف ، من صدق وأمانة وجد وإخلاص وتفان فى سبيل الواجب ، وعمل مثمر بناء فى سبيل رفعة الإنسان العربى وقوته ومنعته وهو فى طريقه إلى مشارف القرن الخامس عشر الهجرى .

والله المستعان، وهو الموفق، وعلى الله قصد السبيل

عبد الحليم منتصر
عضو المجمع



من إيجاز الحذف فى القرآن الكريم

للدكتور احمد الحوفى

يجرى القرآن الكريم على أنواع من الإيجاز، منها إيجاز الحذف بالاستغناء عن كلمة أو جملة أو جمل، لأن فى الكلام المذكور ما يدل على المحذوف لفظاً أو سياقا، فلا خفاء فى معرفة المحذوف، ولا إخلال بالفهم؛ ولهذا اشترطوا أن يكون فيما أبقى دليل على ما ألقى(١).

والغرض من هذا الحذف إثارة انتباه المخاطب وإثارة شوقه إلى إدراك المعنى، فيعظم فى نفسه شأنه حينما يدركه، كما أنه يشعر بمسرة حينما يستنبط بنفسه ماحذف من الكلام.

هذا إلى ما فى الحذف من تحصيل المعنى الكثير باللفظ القليل، مع الوفاء بالمعنى وتشويق المخاطبين.

والأصل فى خبر المبتدأ ألا يحذف، لأن المبتدأ والخبر معاً يؤديان المعنى المراد.

فإذا كان الخبر جملة اسمية أو فعلية فلا بد من اشتمالها على رابط يعود إلى المبتدأ أو يصله بالخبر.

مثال الجملة الاسمية قوله تعالى: (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٢).

وقوله سبحانه: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون)(٣).

وقوله جل وعز: (والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) (٤)

ومثال الجملة الفعلية قوله تعالى: (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس)(٥).

وقوله سبحانه: (وربك يخلق ما يشاء ويختار)(٦).

وإنه ليسترعى الانتباه أن أسلوب القرآن الكريم امتاز فيما امتاز به بحذف خبر المبتدأ فى كثير من الآيات.

ولقد اختلف المفسرون فى هذا الحذف على التفصيل الذى سأعرضه وأعقب عليه، متدرجا مع المفسرين تدرجا زمانياً مرتباً على سنوات الوفاة.

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٣/١١١
(٢) سورة البقرة ٣٩
(٣) سورة النحل ٢٧٤
(٤) سورة النحل ٤١
(٥) سورة المؤمنون ٧٥
(٦) سوة القصص ٦٨

(الآية الأولى)

قال تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركو به شيئا ، وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ؛ إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا)(١) . فأين خبر (الذين) ؟

ذهب الطبرى (٣١٠ هـ) إلى أن الله لا يحب المختال الفخور الذى يبخل ، ويأمر الناس بالبخل . وقال إن (الذين) يحتمل أن يكون فى موضع رفع رداً على مافى قوله (فخوراً) من ذم ، ويحتمل أن يكون نصبا على النعت لمن (٢).

وذهب الزمخشرى (٥٣٨ هـ) إلى أن (الذين) بدل من قوله (من كان مختالا فخوراً) أو نصب على الذم ، أو رفع على الذم ، ويجوز أن تكون (الذين) مبتدأ خبره محذوف ، كأنه قيل الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل أحقاء بكل ملامة(٣) .

وذهب القرطبى (٦٧١ هـ) إلى أن (الذين) فى موضع نصب على البدل من (من كان مختالا) ولا يكون صفة ، لأن (من) و (ما) لا يوصفان ولا يوصف بهما ، ويجوز أن يكون فى موضع رفع ، فيعطف عليه قوله تعالى : (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس) ويجوز أن يكون ابتداء والخبر محذوف ، أى الذين يبخلون لهم كذا ، أو يكون الخبر (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) ، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى(٤) .

أما النيسابورى (٧٢٨ هـ) فلم يذكر شيئا(٥) ، وكذلك ابن كثير (٧٧٤ هـ)(٦) .

تعقيب

١ — يبدو التكلف فى إعراب (الذين) نعتا لمن أو بدلا من (من) لأن هذا الإعراب قائم على تأويل « من كان مختالا فخورا » بالجمع لينسجم التعبير مع (الذين) .

كما يبدو التكلف فى إعراب (من) مفعولا لفعل ذم محذوف ، لأن الآية السابقة تنص على كراهية الله تعالى للمختال الفخور ، وهذه الكراهية أشد من الذم ، فكيف يستحق المختال الفخور كراهية الله له ، ولا يستحق هذه الكراهية البخيل بنعم الله الذى يأمر غيره بالبخل بل يستحق الذم فحسب ؟

---

(١) سورة النساء ٣٦ — ٣٧
(٢) تفسير الطبرى ٥/٥٤
(٣) الكشاف ١/٢٦٨
(٤) تفسير القرطبى ١٩٢٥
(٥) النيسابورى فى هامش الطبرى ٥/٤٨
(٦) ابن كثير ١/٤٩٦

هذا إلى أن الذوق لا يستريح إلى هذا التقدير ولا يستريح إلى إعراب (الذين) مفعولا لفعل محذوف تقديره أعني . .

وأما إعراب (الذين) مبتدأ عطف عليه « والذين ينفقون » ليكون الخبر مؤخرا على هذه الصورة فإنه إبعاد للخبر عن المبتدأ .

٢ ــ فما التقدير الذي يستحق الإيثار ؟
لقد ذكر هذا التقدير بعض المفسرين فيما سبق ، وهو أن (الذين) مبتدأ خبره محذوف.

فإذا أردنا تقديره تقديرا صحيحا كان علينا أن نتدبر ختام الآية الكريمة ، وهو قوله تعالى « وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » ، وتقدير هذا الخبر يجيء على هذه الصورة : الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله كفاز بنعم الله ، أو مستحقون لعذاب الله ، وقد أعد الله للكفار عذابا مهينا .

ومن هنا يتبين أن التذييل « وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » دل على خبر المبتدأ ، وأغنى عنه .

الآية الثانية

قال سبحانه : « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر . ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا »(١)

ذكر الطبري أن (الذين) في موضع جر عطفا على (الكافرين) في الآية السابقة « وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا »(٢)

ولم يتعرض الزمخشري لموقع (الذين)(٣)
وقال القرطبي (٦٧١ هـ) إن (الذين) معطوف على « الذين يبخلون » ، وقيل هو عطف على (الكافرين) فيكون في موضع خفض(٤) .

وقال النيسابوري (٧٢٨ هـ) إن (الذين) معطوف على « الذين يبخلون »(٥)

ولم يتعرض ابن كثير (٧٧٤ هـ) لموقع (الذين)(٦)

تعقيب

أستبعد إعراب (الذين) في موضع جر عطفا على (الكافرين) في الآية السابقة ، لأن الذين ينفقون أموالهم مراءاة للناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ألصق بالكفر من الذين يبخلون بنعم الله ويكتمون خيره وفضله ، فكيف يوصف هؤلاء البخلاء بالكفر ويتوعدهم الله

---

(١) سورة النساء ٣٨
(٢) تفسير الطبري ٥/٥٦
(٣) الكشاف ١/٢٦٨
(٤) تفسير القرطبي ٥/١٩٣
(٥) تفسير النيسابوري على هامش الطبري ٥/٤٨
(٦) تفسير ابن كثير ١/٤٩٦

بعقاب الكفار، ثم يجيء تابعا لهم ومعطوفا عليهم الذين ينفقون مراءاة للناس الجاحدون بوجود الله تعالى المنكرون ليوم القيامة ؟

هذه ملاحظة، والملاحظة الثانية أن « الذين ينفقون » لو كانت معطوفة على (الكافرين) لكان الأولى أن يكون الأسلوب والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس .

وأما إعراب « الذين ينفقون » معطوفا على « الذين يبخلون » فإنه لم يحقق شيئا ، لأن الخبر مازال في حاجة إلى تقدير فما الوجه الصحيح ؟

أرى أن خبر (الذين) محذوف دل عليه قوله تعالى « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » أي : الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر عصاة لله ، أو خاضعون للشيطان ، أو مستحقون عذاب الله، ومن يكن الشيطان قرينا له جره إلى هذا المصير .

(الآية الثالثة)

وقال تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون »(١)

أين خبر (الذين) ؟

لم يذكر الطبري شيئا(٢) .

ورأى الزمخشري أن « لا نكلف نفسا إلا وسعها » جملة معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب في اكتساب مالا يكتنهه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح(٣) .

ومعنى هذا أن جملة « أولئك أصحاب الجنة » هي الخبر .

ورأى القرطبي أن « لا نكلف نفسا إلا وسعها » كلام معترض ، وأن خبر (الذين) هو « أولئك أصحاب الجنة »(٤) .

ورأى النيسابوري هذا الرأي ، وزاد عليه أنه يصح أن تكون جملة « لا نكلف نفسا إلا وسعها » هي الخبر ، والعائد محذوف تقديره لا نكلف نفسا منهم(٥) .

ولم يذكر ابن كثير شيئا عن موقع (الذين)(٦)

تعقيب

خير ما قالوه في إعراب الآية الكريمة أن

---

(١) سورة الأعراف ٤٢
(٢) تفسير الطبري ٨/١٣٣
(٣) الكشاف ٢/٦٢
(٤) تفسير القرطبي ٧/٢٠٧
(٥) على هامش الطبري ٨/٩٥
(٦) ابن كثير ٢/٢١٤

«الذين آمنوا» مبتدأ خبره «أولئك أصحاب الجنة».

ولكن هذا لا يمنع من تقدير خبر محذوف مفهوم من قوله تعالى (أولئك أصحاب الجنة) تقديره مثلا: ثوابهم عظيم، فيكون الأسلوب على هذه الصورة: الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثوابهم عظيم، لا يكلف الله نفسا من العمل الصالح إلا ما تطيقه، أولئك أصحاب الجنة.

ومعنى هذا أن نهاية الآية الكريمة أشارت إلى خبر المبتدأ ودلت عليه.

(الآية الرابعة)

وقال سبحانه وتعالى: (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا؛ إن ربك من بعدها لغفور رحيم)(١).

لم يذكر الطبري ولا الزمخشري ولا القرطبي ولا النيسابوري ولا ابن كثير شيئا عن موقع (الذين)(٢).

ويبدو من ختام الآية الكريمة بقوله تعالى: (إن ربك من بعدها لغفور رحيم) أن الخبر محذوف تقديره: مغفور لهم، أو مقبولة توبتهم أو ناجون من النار.

(الآية الخامسة)

وقال سبحانه: (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة، إنا لا نضيع أجر المصلحين(٣)).

لم يعرض الطبري لإعراب (الذين(٤)).

وذكر الزمخشري وجهين: أحدهما أن (الذين) مرفوع بالابتداء وخبره (إنا لا نضيع أجر المصلحين)؛ لأن المحسنين في معنى الذين يمسكون بالكتاب، كقوله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا(٥)).

والرأي الآخر أن (الذين) مجرور بالعطف على (الذين يتقون) في قوله تعالى: (والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون).

ويكون قوله تعالى: (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) اعتراضا(٦).

لكن هذا القول محتاج إلى تصويب، لأن الاعتراض هو (أفلا تعقلون) وأما (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) فهو تذييل لا اعتراض.

---

(١) سورة الأعراف ١٥٣
(٢) الطبري ٤٩/٩ والكشاف ٩٥/٢ والقرطبي ٢٩٢/٧ والنيسابوري ٤٨/٩ وابن كثير ٢٤٨/٢
(٣) سورة الأعراف ١٧٠
(٤) تفسير الطبري ٧٤/٩
(٥) سورة الكهف ٣٠
(٦) الكشاف ١٠٢/٢

ولم يتعرض للإعراب القرطبي ولا النيسابوري ولا ابن كثير(١) .

تعقيب

أستبعد أن يكون (الذين يمسكون بالكتاب معطوفا على « الذين يتقون » في الآية السابقة ، لأن الذين يتقون أعم من الذين يمسكون بالكتاب ، ولأن بين المعطوف والمعطوف عليه قوله تعالى « أفلا تعقلون » ولأن العطف كان يتعين لو جاءت الآية على هذا النسق : والذين يمسكون بالكتاب .

كذلك أستبعد أن يكون الخبر « إنا لا نضيع أجر المصلحين » لأنه لا رابط في هذه الجملة يعود على المبتدأ ، وإعرابها خبرا يقتضى تقدير رابط هو منهم مثلا ، ولا داعى لإعراب قائم على تقدير ما دام التعبير محتملا لوجه آخر .

فما هذا الوجه الاخر ؟

أرى أن قوله تعالى : « إنا لا نضيع أجر المصلحين» تذييل يوحي بالخبر المحذوف ، وأصل التعبير هو : والذين يمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة ثوابهم عظيم عند الله ، إن الله لا يضيع أجر من يحسنون عملا .

(الآية السادسة)

وقال تعالى : « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور (٢)» .

ما موقع (الذين) من الإعراب ؟

رأى الطبرى أن (الذين) رد على الذين في قوله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » قبل هاتين الآيتين(٣) .

ورأى الزمخشري أن (الذين) في محل نصب بدل من قوله تعالى : « من ينصره » أو في محل جر تابع للذين في قوله تعالى : « الذين أخرجوا من ديارهم(٤) » .

ونقل القرطبي عن الزجاج أن (الذين) في محل نصب على البدل من (من) في قوله تعالى: « ولينصرن الله من ينصره » وقال غير الزجاج إنها في موضع جر على البدل من الذين في قوله سبحانه: « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا (٥)» .

وذكر النيسابوري أنها بدل من قوله تعالى : « الذين أخرجوا » أو بدل من « من ينصره(٦)» .

أما ابن كثير فلم يذكر شيئاً (٧) .

---

(١) القرطبي ٧/٣١٣ والنيسابوري ٩/٦٩ وابن كثير ٢/٢٦٠

(٢) سورة الحج ٤٠ — ٤١ .

(٣) تفسير الطبرى ١٧/١٢٦

(٤) الكشاف ٣/٣٥

(٥) تفسير القرطبي ١٢/٧٢

(٦) على هامش الطبرى ١٧/٩٣

(٧) تفسير ابن كثير ٣/٢٣٦

تعقيب

أستبعد أن تكون كلمة (الذين) معطوفة على الذين فى قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون » أو على الذين فى قوله سبحانه : « الذين أخرجوا من ديارهم » أو أن تكون بدلا من الذين فى هذه الاية الأخيرة ؛ لأن الفصل طويل بين المعطوف والمعطوف عليه ، وبين البـــدل والمبدل منه .

وخير من هذا أن تكون بدلا من (من) فى قوله تعالى : «من ينصره» كما ذكر الزمخشرى والقرطبى والنيسابورى .

ولكننى أفضل أن تكون كلمة الذين مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله تعالى : « ولله عاقبة الأمور » فيكون التقدير مثلا : لهم العاقبة ، أو لهم النصر ، أو هم الغالبون .

(الآية السابعة)

وقال سبحانه : « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار(١) » .

فإذا أردنا معرفة موقع « الذين يجادلون » من الإعراب وجدنا عدة آراء :

أما الطبرى فإنه ذكر أن الذين فى موضع نصب بدل من « من هو مسرف » (٢) .

وأما الزمخشرى فإنه ذهب إلى أن « الذين يجادلون » بدل من «من هو مسرف » فإن قلت : كيف جاز إبداله منه وهو جمع وذاك موحد ؟ قلت لأنه لا يريد مسرفا واحدا ، فكأنه قال كل مسرف . فإن قلت : ألا يجوز أن يكون « مسرف » جمعا ، ولهذا أبدلت منه « الذين يجادلون ؟

قلت : بلى ، هو جمع فى المعنى ، وأما اللفظ فموحد محمل البدل على معناه .

ويجوز رفع «الذين يجادلون» على الابتداء ، ولا بد فى هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير فى (كبر) تقديره جدال الذين يجادلون كبر مقتا .

ويحتمل أن يكون « الذين يجادلون» مبتدأ ، « وبغير سلطان أتاهم » خبرا ، وفاعل (كبر) قوله تعالى (كذلك) أى كبر مقتا مثل ذلك الجدال ، و « يطبع الله » كلام مستأنف .

ومن قال : كبر مقتا عند الله جدالهم ، فقد حذف الفاعل . والفاعل لا يصلح حذفه ، وفى « كبر مقتا » ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم والشهادة على خروجه من حد إشكاله من الكبائر .

---

(١) سورة غافر ٣٤ — ٣٥

(٢) تفسير الطبرى ٤٢/٢٤

وعلق ابن المنير بأن الأولى أن يجعل الضمير فى « كبر » راجعا إلى مصدر الفعل المتقدم وهو تقديرى كبر جدالهم مقتا ، ويجعـل « الذين يجادلون » مبتدأ على تأويل حذف المضاف ، تقديره : جدال الذين يجادلون فى آيات الله ، والضمير فى « كبر مقتا » عائد إلى الجدال المحذوف ، والجملة مبتدأ وخبر(١) .

وذكر القرطبى أن « الذين » فى موضع نصب على البدل من « من هو مسرف مرتاب » ، ونقل عن الزجاج أن الأصل كذلك يضل الله الذين يجادلون فى آيات الله ، فالذين فى محل نصب ، ثم قال : ويجوز أن تكون الكلمة مرفوعة على معنى هم الذين ، أو على الابتداء والخبر « كبر مقتا »(٢) .

وذكر النسفى (٧٠١ هـ) أن « الذين » بدل من « من هو مسرف » وجاز إبداله وهو جمع لأن المراد كل مسرف(٣) .

وذكر النيسابورى نقلا عن الزمخشرى أن كلمة الذين مبتدأ على تقدير حذف المضاف أى جدال الذين يجادلون كبر ، ثم قال وجوز آخرون أن يكون التقدير : الذين يجادلون كبر جدالهم ، على حذف الفاعل للقرينة(٤) .

تعقيب

لا أستبعد إعراب (الذين يجادلون) بدلا من (من هو مسرف مرتاب) .

ولكننى أوثر أن يكون « الذين يجادلون » مبتدأ خبره محذوف مفهوم من ختام الآية الكريمة ، والتقدير على هذا : الذين يجادلون فى آيات الله بغير دليل مبطلون أو ممقوتون أو مطموس على قلوبهم ، بئس هذا الجدال الممقوت ، كذلك يطمس الله على قلوب المتكبرين .

وهذا التقدير لا يحوجنا إلى تمحل ولا إلى تأويل .

الآية الثامنة

قال تعالى : (والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد(٥)) .

فما إعراب « الذين يبخلون » ؟

قال الطبرى : إن أهل العربية اختلفوا ، فقال بعضهم : استغنى بالأخبار التى لأشباههم ولهم فى القرآن الكريم ، كما قال تعالى : (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى(٦)) ولم يكن فى هذا الموضع خبر ، وقال آخرون من أهل العربية : الخبر قد جاء فى الآية التى قبل هذه(٧) .

يريد قوله تعالى : (والله لا يحب كل مختال فخور)

---

(١) الكشاف وهامشه ٣٧١/٣
(٢) تفسير الطبرى ٣١٣/١٥
(٣) تفسير النسفى ٢٤/ ٥٠
(٤) على هامش الطبرى ٤٥/٢٤
(٥) سورة الحديد ٢٣/ ٢٤
(٦) سورة الرعد ٣١
(٧) تفسير الطبرى ١٣٦/٢٧

وقال القرطبي إن «الذين» فى موضع خفض لأنها نعت للمختال ، وقيل فى موضع رفع لأنها مبتدأ ، أى الذين يبخلون فالله غنى عنهم(١) .

تعقيب

الاستغناء بالأخبار التى لأشباههم لا يمنع من تقدير خبر ، لأن الآية الكريمة «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال» فيها خبر لو محذوف ، لكنه يقدر بنحو لكان هذا القرآن .

أما القول بأن الخبر جاء فى الآية السابقة لهذه الآية فمعناه أيضا أن الخبر محذوف ، لكن ماهو ؟

أرى أن الخبر مفهوم من ختام الآية ، وهو قوله تعالى : (ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) . فيكون تقدير الخبر هو : لا يحيق بخلهم إلا بهم ، أو لا يضرون الله شيئا ببخلهم .

(ثانيا)

حذف خبر إن

الأصل فى خبر إن أن يذكر لتتم الجملة ، سواء أكان مفرداً نحو قوله تعالى : (إن ربك حكيم عليم(٢)) . أم جملة اسمية نحو قوله سبحانه : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم(٣)) ، أم جملة فعلية مثل قوله سبحانه : (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، وكذلك نجزى المجرمين(٤)) .

لكن خبر إن حذف فى بعض الآيات ، لدلالة السياق عليه ، كما حذف خبر المبتدأ .

الآية الأولى

قال سبحانه وتعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار(٥)) .

فأين خبر إن الأولى ؟

لقد اختلف المفسرون فى هذا على التفصيل الذى سأعرضه متدرجاً معهم تدرجاً زمانياً مرتباً على سنوات الوفاة ثم أعقب عليه ، وأبدى الرأى الذى أراه .

١ ـ ذكر الطبرى (٣١٠هـ) ثلاثة أوجه :

الأول أن خبر إن الأولى قوله تعالى : (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) فيكون معنى الكلام إنا لا نضيع أجر من عمل صالحا ، فترك الكلام الأول ، واعتمد على الثانى بنية التكرير ، كما قال الشاعر :

إن الخليفة إن الله سربله
سربال ملك به ترجى الخواتيم

---

(١) تفسير القرطبي ١٧/٢٥٩
(٢) سورة الأنعام ٨٣
(٣) سورة لقمان ٨
(٤) سورة الأعراف ٤٠ الجمل : الحبل الغليظ
(٥) سورة الكهف ٣٠ ـ ٣١

والثانى أن يكون قوله تعالى : (إن الذين آمنوا) جزاء(١) ، فيكون معنى الكلام إن من عمل صالحا فإنا لا نضيع أجره، فتضمر الفاء فى « إنا » .

والثالث أن يكون خبر إن (أولئك لهم جنات عدن) فيكون معنى الكلام إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم جنات عدن(٢)) .

٢ — وذكر الزمخشرى (٥٢٨ هـ) ثلاثة آراء :

الأول أن « أولئك » خبر إن ، و « انا لا نضيع » اعتراض .

والثانى أن جملتى « انا لا نضيع » و « أولئك لهم جنات عدن » خبران معاً .

والثالث أن « أولئك » كلام مستأنف بيان للأجر المبهم . ثم قال : إن قلت : أين الضمير الراجع الى المبتدأ فى جملة « إنا لا نضيع » اذا جعلتها خبرا ؟

قلت : « من أحسن عملا » و « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ينتظمهما معنى واحد ، فقام « من أحسن عملا » مقام الضمير ، أو المراد من أحسن عملا منهم ، كقولك السمن منوان بدرهم(٣) .

٣ — وذكر القرطبى (٦٧١ هـ) رأيين :

أولهما أن جملة « إنا لا نضيع » خبر إن ، لأن فى الكلام إضماراً ، أى لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم .

والآخر أن الخبر « أولئك لهم جنات عدن » وجملة « إنا لا نضيع » معترضة (٤) .

٤ — وذكر النيسابورى (٧٢٨هـ) رأيين أيضا ، هما :

الأول أن الخبر جملة « أولئك » لأن جملة « إنا لا نضيع » معترضة .

والثانى أن جملة « إنا لا نضيع » خبر ، وجملة « أولئك » خبر آخر ، أو كلام مستأنف لبيان الأجر أو لبيان المبهم ، والرابط بين اسم إن وخبرها « إنا لا نضيع » هو معنى العموم ، لأن « من أحسن عملا » يقوم مقام الرابط المحذوف ، والتقدير من أحسن عملا(٥) .

٥ — أما ابن كثير (٧٧٤ هـ) فلم يعرض لهذا الموضوع(٦) .

تعقيب

١ — نستطيع أن نعترض على اختيار جملة « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » خبراً بأن هذا الاختيار محتاج إلى تقدير رابط ، سواء أكان الرابط كلمة منهم أم العموم فى « من

(١) يقصد بالجزاء الشرط
(٢) تفسير الطبرى ١٥/١٠٩
(٣) الكشاف ٢/٣٨٩
(٤) تفسير القرطبى ١٠/٣٩٦
(٥) على هامش الطبرى ١٥/١٢٨
(٦) تفسير ابن كثير ٣/٢٨

أحسن » ، والاستشهاد ببيت الشعر غير سديد ، لأن بيت الشعر فيه ضمير ملفوظ يعود الى الخليفة .

كذلك نستبعد أن يكون الخبر هو الجملتان معاً ، جملة « إنا لا نضيع » ، وجملة « أولئك » لأن هذا تكلف .

ولا نرتضى أن تكون جملة « إنا لا نضيع » معترضة والخبر جملة « أولئك » لأن الفصل بين اسم إن وخبرها طويل أما تقدير « إن الذين آمنوا » بمعنى الشرط وجواب الشرط هو « إنا لا نضيع » على اضمار الفاء فيه ، فإنه تكلف مركب .

٢ ــ وانه لخير من هذا كله أن تقدر خبر إن محذوفاً دلت عليه بوضوح جملة « إنا لانضيع أجر من أحسن عملا » وجملة « أولئك لهم جنات عدن » .

فما تقديره ؟

تقديره الذى أستريح اليه : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثوابهم عظيم أو جزاؤهم الجنة أو مقربون إلى الله تعالى .

وليس فى هذا التقدير تكلف ولا تمحل ، بل انه ضرب من بلاغة الإيجاز المعتمدة على اللمح وعلى فحوى الكلام المذكور .

الآية الثانية

قال تعالى : (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم[1]) .

فأين خبر إن ؟

١ ــ لم يذكر الطبرى شيئاً[2] .

٢ ــ وقال الزمخشرى إن الخبر محذوف لدلالة جواب الشرط عليه ، تقديره إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم ، وكل من ارتكب ذنباً فهو كذلك[2] .

٣ ــ وقال القرطبى : الخبر محذوف مقدر عند قوله تعالى « والباد » تقديره خسروا أو هلكوا .

وجائز أن يكون ــ وهو الوجه ــ الخبر « نذقه من عذاب أليم » قال أبو جعفر : وهذا غلط ، ولست أعرف ما الوجه فيه ، لأنه جاء بخبر إن بجزوماً ، وأيضاً فإنه جواب الشرط ،

---

(١) سورة الحج ٢٥
(٢) تفسير الطبرى ١٧/١٠٣
(٣) الكشاف ٣/٣٠
(٣) تفسير القرطبى ١٢/٣٢
(١) على هامش الطبرى ١٨/٨٢
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٢١٤

ولو كان خبر إن لبقى الشرط بلا جواب ، ولاسيما والفعل الذى فى الشرط مستقبل ، فلا بد له من جواب(١) .

٤ — وقال النيسابورى خبر إن محذوف دل عليه جواب الشرط ، كأنه قيل إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله نذيقهم من عذاب أليم ، ومن يرد فيه بإلحاد فهو كذلك (٢) .

٥ — ولم يذكر ابن كثير شيئا(٣) :

تعقيب

١ — لا يصح أن تكون جملة « نذقه من عذاب أليم » هى خبر إن ، لأن هذا يفتقر الى تكلف يأباه الأسلوب الجيد ، فما بالنا بأسلوب القرآن الكريم ؟ وقد سبق فيما ذكره القرطبى ما يغنى .

٢ — ومن المصادفات الطيبة أنى وجدت ما كنت أوثره وأميل اليه ، اذ جاء فى تفسير الزمخشرى والقرطبى ما وافقه ، وهو أن الخبر محذوف دلت عليه جملة الشرط ، والتقدير إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام عذابهم شديد .

الآية الثالثة

قال سبحانه : (إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟ اعملوا ماشئتم ، إنه بما تعملون بصير .

إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . ما يقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك ، إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم(٣) .

أين خبر إن فى قوله تعالى : « إن الذين كفروا بالذكر » ؟

١ — لم يذكر الطبرى شيئا هنا(٤) .

٢ — وقال الزمخشرى : جملة « إن الذين كفروا » بدل من جملة « إن الذين يلحدون فى آياتنا » لأنهم لكفرهم به طعنوا فيه ، وحرفوا تأويله (٥) .

٣ — وقال القرطبى : الخبر محذوف تقديره هالكون أو معذبون ، وقيل الخبر « أولئك ينادون » وقوله تعالى « ما يقال لك » كلام معترض .

---

(١) تفسير القرطبى ١٧/١٠٣
(٢) على هامش الطبرى ١٧/٨٢
(٣) سورة فصلت ٤٠ — ٤٣
(٤) تفسير الطبرى ٢٤/٧٨
(٥) الكشاف ٣/٣٩٣

والرأى الأول هو المختار عند النحويين جميعا فيما علمت كما قال النحاس(١) .

٥ — ولم يذكر النيسابورى شيئا(٢) .

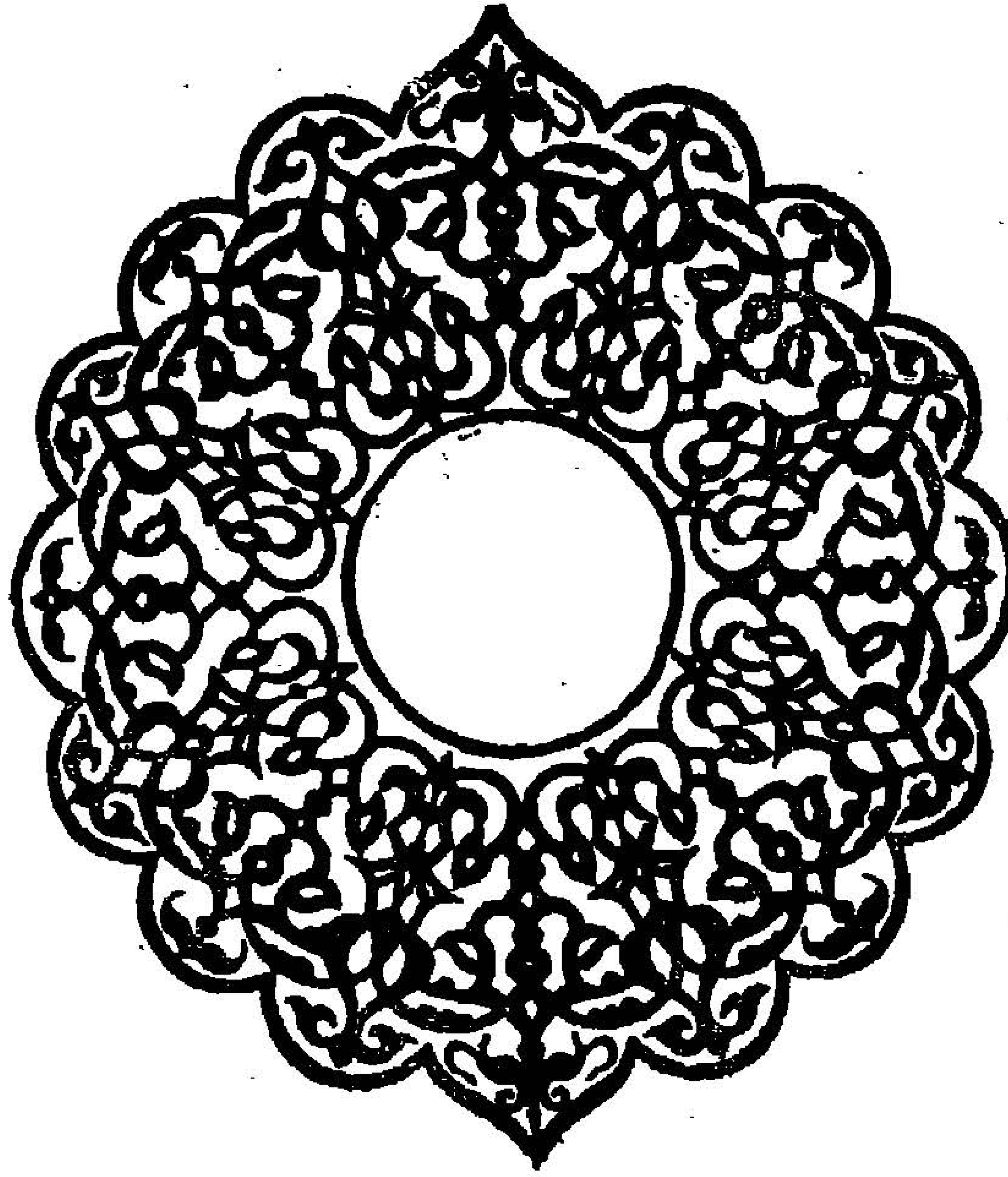
٥ — أما الزركشى (٧٩٤ هـ) فإنه رأى أن الخبر محذوف ، أى يعذبون ، وقال إنه يجوز أن يكون الخبر « أولئك ينادون من مكان بعيد(٣) » .

تعقيب

١ — يبدو التكلف فى إعراب « إن الذين كفروا » بدلا من « إن الذين يلحدون » وفى جعل « أولئك ينادون من مكان بعيد » خبرا لإن ، وذلك أن بين اسم إن وخبرها أربع آيات .

٢ — ويتبين الصواب فى تقدير الخبر محذوفا دلت عليه الآيات الثلاث ، أى إن الذين كفروا بالقرآن وهو حق كله مصيرهم الى النار ، أو عقابهم شديد ، أو عذابهم أليم .

أحمد الحوفى
عضو المجمع



(١) تفسير القرطبى ٣٦٧/١٢

(٢) على هامش الطبرى ١٢/٢٥

(٣) البرهان فى علوم القرآن ١٤٠/٣

تحقيق لسان العرب

— ٥ —

للأستاذ عبد السلام هارون

٨٠١ — (شقرق) ٥٣ س ١٩ وبيروت ١٨٦ : « الليث : الشقراق والشرقراق لغتان : طائر يكون فى أرض الحرم فى منابت النخيل » . ونحو هذا النص فى القاموس ، وصوابه « فى أرض الجرم » كما فى المخطوطة والتهذيب . وقال الزبيدى فى تاج العروس معلقا : « هكذا فى النسخ والصواب بأرض الجرم بالجيم كما هو نص الليث » والجرم : الحر ، نقيض الصرد .

٨٠٢ — (صيق) ٧٦ س ٢٣ وبيروت ٢٠٨ : « أنشد ابن الأعرابى :

لى كل يوم صيقة فوقى تأجل كالظلاله »

وضبطه الصحيح : « كالظلالة » بكسر الظاء ، كما فى التهذيب والقاموس . وفى القاموس : « وبالكسر : السحابة تراها وحدها وترى ظلها على الأرض » . ونسب البيت فى التاج إلى أسماء بن خارجة .

٨٠٣ — (طرق) ٩٠ س ٧ وبيروت ٢٢٠ والمخطوطة : قال الأعشى :

فلما جزمت به قربتى

تيممت أطرقة أوخليفا »

والصواب أن البيت لصخر الغى فى ديوان الهذليين ٢ : ٧٦ وشرح السكرى ١ : ٣٠ واللسان (خلف) . وهو من قصيدة أولها :

لشماء بعد شتات النوى

وقد كنت أخيلت برقاً وليفا

٨٠٤ — (طرق) ٩٠ س ٧ وبيروت ٢٢٠ والمخطوطة كذلك قول الراجز فى صفة فحل من الإبل :

تقابلا خالاته عماته آباؤه فيها وأمهاته

وليس بين خالاته وعماته ثأر أو قتال ، ولكن بينهما — علم الله — وفاقا تاما فى الكرم والعتق . والمقابل : الكريم النسب من قبل الأبوين ، وهنا قابلت الخالات العمات فى الكرم والنجابة . فالصواب « مقابلا » بفتح الباء الموحدة .

٨٠٥ — (طلق) ١٠١ س ٦ وبيروت ٢٣١ والمخطوطة أيضا قول النابغة :

تناذرها الراقون من سوء سمها

تطلقه طورا وطورا تراجعه

والبيت مشهور فى شعر النابغة ، والصواب « تراجع » بدون هاء كما فى الديوان ٥١ . وأول القصيدة :

عفا ذو حسى من فرتنى فالفوارع
فجنبا أريك فالتلاع الدوافع

٨٠٦ (طوق) ١٠٢ س ٢١ وبيروت ٢٢٢ والمخطوطة : « التهذيب : أنشد عمر بن بكر » ، والصواب « عمر بن بكير » بالتصغير ، كما فى التهذيب وبغية الوعاة ٣٦٠. وقال السيوطى : « عمر ابن بكير صاحب الحسن بن سهل . قال ياقوت : كان نحويا أخباريا راوياً ناسبا ، عمل له الفراء معانى القرآن ، وصنف كتـــاب الأيام فى الغزوات » .

وفى فهرست ابن النديم ٩٨ : « قال أبو العباس ثعلب : كان السبب فى إملاء كتاب الفراء فى المعانى أن عمر بن بكير كان من أصحابه ، وكان منقطعا إلى الحسن بن سهل ، فكتب إلى الفراء : إن الأمير حسن بن سهل ربما سألنى عن الشىء بعد الشىء من القرآن فلا يحضرنى فيه جواب ، فإن رأيت أن تجمع لى أصولا ، أو تجعل فى ذلك كتابا أرجع إليه. فقال الفراء لأصحابه : اجتمعوا حتى أمل عليكم كتابا فى القرآن . فجعل لهم يوماً .

٨٠٧ — (عذق) ١٠٩ : ٢٤ والمخطوطة : « اعتذق فلان بكرة من إبله ، إذا أعلم عليها ليقبضها » ، والصواب « ليقتضبها » كما فى التهذيب واللسان (قضب) وفيه : « اقتضب فلان بكراً ، إذا ركبه ليذله قبل أن يراض . وناقة قضيب وبكر قضيب بغير هاء » وفيه أيضا : « و [illegible] واقتضبتها : أخذتها من الإبل قضيباً فرضتها » .

٨ ٨ — (عذق) ١١٠ : ١١ وبيروت ٢٢٩ . « كذبت عذّاقته وعذّابته » . وفى المخطوطة . « عذابته » باهمال نقط هذه الباء التى بعد الألف ، والصواب « عذانته » بالنون ، كما فى التهذيب . فى اللسان (عذن) أن العذانة : الاست ، والعرب تقول : كذبت عذانته . وقد وجدت معنى هذا التعبير فى اللسان (عفق) ، وفيه : « وكذبت عفاقته ، أى استه ، إذا حبق » .

٨٠٩ — (عرق) ١١١ : ١٩ وبيروت ٢٤١ والمخطوطة أيضا . « وهذا مثل قولهم : حتى يشيب الغراب ويبيض الفأر » بالفاء والهمز لكن فى المخطوطة : « الفار » بدون همز ، وهو تصحيف عجيب ، والصواب « ويبيضّ القار » كما فى التهذيب ، والحيوان ٥ . ٥٢٨ . ولعل السر فى هذا التصحيف إرادة المصحف أن يجعل الأمر كله مسرحا للحيوان ما بين غرابه وفأره . والقار ، بالقاف هو الزفت أو شىء شبيه به . وأنشد فى اللسان (غرب) لمعاوية الضبى :

فهذا مكانى أو أرى القار مغربا
وحتى أرى صم الجبـــال تكلم

وقال فى تفسيره : « ومعناه أنه وقع فى مكان لا يرضاه ، وليس له منجى إلا أن يصير القار أبيض وهو شبه الزفت — أو تكلمه الجبال . وهذا مالا يكون ولا يصح وجوده عادة » .

٨١٠ - (عرق) ١٢١ : ٤ وبيروت ٢٤٩
والمخطوطة كذلك قول الشماخ :

ما إن يزال لها شأو يقدمها
مجرب مثل طوط العرق مجدول

والصواب « محرب » بالحاء المهملة وكسر الراء المشددة ، كما فى التهذيب . والشأو ، عنى به الزمام ، كما فى اللسان (شأى) عند رواية البيت . وقد شبه الشأو بالطوط ، وهو الحية . والعرق : الجبل . أما المحرب فهو من التحريب ، وهو التحريش ، وهو هنا الحث على سرعة السير . كما أن رواية البيت فى اللسان (شأى ، طوط) : « يقومها » . وفى (طوط) فقط : « يقومها مقوم » . وهذا ما نحمل على الريبة فى صحة « يقدمها » . والبيت مع هذا لم يرد فى قصيدته التى على هذا الروى فى ديوانه وإن كان قد ورد فى حواشى الطبعة الثانية .

٨١١ — (عفق) ١٢٥ : ٤ وبيروت ٢٥٣
والمخطوطة قول الشاعر :

ولاتك معفاق الزيارة واجتنب
إذا جئت إكثار الكلام المعيبا

وفى التاج « المعقبا » صوابهما « المعيب » بالجر ، صفة للكلام كما فى التهذيب . أو « لمعقب » بالجر أيضا .

٨١٢ — (عقق) ١٢٨ : ٤ والمخطوطة : « وروى شمر أن المعقر بن حباب البارقى » . وإنما هو « المعقر بن حمار » ، كما ورد فى طبعة بيروت ص ٢٥٦ . والخبر فى مجالس ثعلب ٣٤٧ . وهو المعقر بن أوس بن حمار كما فى الاشتقاق ٢٨١ . واسم المعقر « سفيان » كما فى الأغانى ١٠ : ٤٤ — ٤٥ والمزهر ٢ : ٢٧٣ والخزانة ٢ : ٢٩١ ونوادر المخطوطات ٢ : ٢٢٣ . قالوا : سمى معقرا بقوله :

لها ناهض فى الوكر قد مهدت له
كما مهدت للبعل حسناء عاقر

وهو صاحب البيت السائر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينـاً بالإياب المسافر

وفى اللسان نفسه (عقر) : « ومعقر : اسم شاعر ، وهو معقر بن حمار البارقى » .

٨١٣ - (عقق) ١٢٩ : ١٦ وبيروت ٢٥٧
والمخطوطة قول رؤبة :

* طير عنها النسر حولى العقق *

وصوابها : « طير عنها اللس » ، كما فى المقاييس (عقق) . واللس ، من قولهم : لست الدابة الحشيش تلسه بلسانها لسا : تناولته ونتفته بجحفلتها » . وأما النسر فهو للطير الجارح ، يقال نسر البازى اللحم بمنقاره : نتفه .

٨١٤ — (عقق) ١٣٢ : ١٠ وبيروت ٢٦٠
والمخطوطة أيضا : « وقال ابن برى : هو للأشعر الجعفى » ؛ وإنما هو « الأسعر » بالسين المهملة كما فى التهذيب والصحاح . وانظر المؤتلف ٤٧ والاشتقاق ٤٠٨ والمزهر ٢ : ٢٤٨ وسمط اللآلى ٩٤ ونوادر المخطوطات ٢ : ٢٩٣ واللسان والتاج (سعر) . واسمه مرثد بن أبى حمران الجعفى ، سمى الأسعر لقوله :

فلا يدعنى قومى لسعد بن مالك

لئن أنا لم أسعر عليهم وأثقب

٨١٥ — (علق) ١٣٨ : ٥ وبيروت ٢٦٦ والمخطوطة كذلك : « قال المفضل البكرى » . وإنما هو « النكرى » بالنون المضمومة ، نسبة إلى نكرة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس . وهو المفضل بن معشر بن أسحم بن عدى بن سويد بن عذرة بن منبه بن نكرة . واسم المفضل عامر ، كما فى كتاب ألقاب الشعراء لابن حبيب فى نوادر المخطوطات ٢ : ٣١٦ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٦٢ . سمى المفضل بقصيدته المنصفة المروية فى الأصمعيات ١٩٩ .

٨١٦ — (علق) ١٤١ : ٥ وبيروت ٢٦٦ والمخطوطة ، قول الشاعر :

وماهى إلا فى إزار وعلقة

مغار ابن همام على حى خثعما

والشاعر هذا هو حميد بن ثور كما فى كتاب سيبويه ١ : ٢٣٤ من تحقيق كاتبه ، وليس فى ديوانه كما فى حواشى الكتاب . و « مَغار » بالفتح لاوجه له ، إذ لا يقال غار على القوم ؛ وإنما يقال أغار عليهم . وفى الكتاب الكريم : « فالمغيرات صبحا » . فالصواب « مغار » بضم الميم مصدر ميمى من أغار .

٨١٧ - (عنق) ١٤٤ : ١٦ وبيروت ٢٧٢ والمخطوطة أيضا : « ذكر السراب وانقماس الحبال فيه إلى أعاليها » ، الصواب « وانقماس الجبال » بالجيم لا بالحاء . كما فى التهذيب .

٨١٨ (عنق) ١٤٥ : ١٨ وبيروت ٢٧٣ والمخطوطة كذلك : « والمعتنق : مخرج أعناق الحبال » صوابه « الجبال » بالجيم كما فى التهذيب. ومن عجب أن قبله فى اللسان نفسه : « وعنق الجبل : ما أشرف منه » .

٨١٩ (عنق) ١٤٦ : ١٩ وبيروت ٢٧٤ والمخطوطة ، قول أبى ذؤيب :

بأطيب منها إذا ما النجو

م أعنقن مثـــل هوادى ...

مع نقص آخر البيت . وكتب مصحح بولاق : « هكذا هو فى الأصل . وهو ناقص الآخر » . وأقول : تمامه كما فى اللسان (صدر) وشرح السكرى ١١٧ : « هوادى الصدر » . وفى ديوان الهذليين ١ : ١٤٩ : « مثل توالى البقر » ، ويروى كذلك : « توالى الصدر » كما شرح السكرى .

٨٢٠ — (عنق) ١٤٧ : ١٨ وبيروت ٢٧٤ والمخطوطة : « أنشد ابن الأعرابى لقربط يصف الذئب » . صوابه : « قرط » وهو الملقب بذى الخرق . انظر المؤتلف والمختلف ١٠٩، ١١٩ والخزانة ١ : ٢٠ . وفى القاموس عند الكلام على ذى الخرق : « وقرط ، أو ابن قُرط » . أى ويقال ذو الخرق بن قرط .

٨٢١ — (عوق) ١٥٣ : ٢٢ وبيروت ٢٨٠ والمخطوطة أيضاً قول الشاعر :

وعاندت الثريا بعـــد هدء

معـاندة لهـــا العيوق جارا

وهو خطأ ، صوابه « جار » بالرفع كما فى

المفضليات ٣٤٠ . والبيت لبشر بن أبي خازم فى ديوانه ٦٦ والمفضليات ، من قصيدة أولها :

ألا بان الخليط ولم يُزاروا
وقلبك فى الظعائن مستعار

٨٢٢ — (عيق) ١٥٤ : ١٩ وبيروت ٢٨١ قول ساعدة بن جؤية :

ساد تجرم فى البضيع ثمانيـــا
يَلوى بعيقات البحار ويجنب

ووردت « يلوى » فى المخطوطة بكسر الواو فقط ، ووجه ضبطها « يلوى » بضم الياء وكسر الواو . انظر التصحيح رقم ٢٤٩ .

٨٢٣ — (غرق) ١٦٠ : ١٢ وبيروت ٢٨٦ والمخطوطة أيضاً قول الراجز :

إذ أنت غرناق الشباب ميال
ذو دأيتين ينفحان السربال

والصواب « ينفجان » كما فى مجالس ثعلب ٦٤٣. ينفجان، من النفج بالجيم، ومعنى ينفجان يملآن ويرفعان . وذلك أن الدأيات أطول الضلوع كلها وأتمها

٨٢٤ — (فأق) ١٧٠ : ٢٢ وبيروت ٢٩٦ : « وإكاف مفَـأق : مفرج » صوابه « مفـْأق » ، كما فى المخطوطة والتهذيب.

٨٢٥ — (فتق) ١٧١ : ٢٠ والمخطوطة ، قول الشاعر :

* كنصل الراعبى فتيق *

والراعبى ، بالراء : جنس من الحمام حسن الهديل عظيم البدن ، ذكره الجاحظ فى مواضع كثيرة من كتاب الحيوان . فأنى يكون للحمام نصال أو رماح ؟! والصواب « الزاعبى » بالزاى المعجمة ، كما ورد فى اللسان (زعب) ، وقد جاء مصححاً فى طبعة بيروت ١٩٧ .

والزاعبى : الرمح الذى إذا هُزَّ كأن كعوبه يجرى بعضها فى بعض ، للينة .

٨٢٦ — (فرق) ١٧٥ : ٣ وبيروت ٣٠ والمخطوطة : « وهى قوله تعالى : وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق » . وصواب التلاوة: « فأوحينا » بالفاء ، وهى الآية ٦٣ من سورة الشعراء . نسأل الله العافية من تحريف كتابه . انظر لأمثال هـذه التحريفات تحقيق النصوص ٤٨ - ٤٩ من الطبعة الرابعة.

٨٢٧ — (فرق) ١٧٦ : ٢١ وبيروت ٣٠٢ : « إذا لم تكن واصبة متصلة النبات » . ووردت « واصه » فى المخطوطة مهملة النقط جميعه ، والصواب «واصية» بالياء المثناة التحتية. وفى اللسان (وصى) : « وأرض واصية : متصلة النبات » والوصىُّ كذلك : النبات الملتف .

٨٢٨ — (فرق) ١٧٧ : ١٧ — ١٨ وبيروت ٣٠٢ والمخطوطة أيضاً : «يوم الفرقان، وهو يوم بدر، لأن الله أظهر من نصره ما كان بين الحق والباطل» . والعبارة منقوصة ، وتمامها كما فى التهذيب : « أظهر من نصره ما كان فيه فرقان بين الحق والباطل » .

٨٢٩ — (فرق) ١٧٩ : ١٤ قول كثير:

وذفرى كـكاهل ذيخ الخليف
أصاب فريقة ليل فعاثا

وقد أهمل ضبط فاء « الخليف » فى كل من بيروت ٣٠٤ والمخطوطة ، وإن كان السكون فى

المخطوطة قد وضع فوق ياء الخليف، كما هو المتبع فى كثير من الضبط القديم، يضعون السكون فوق ياء المسد. والصواب « الخليف » بكسر الفاء.

والبيت من بحر المتقارب. والمتقارب عروضان فقط: الأولى الصحيحة، والثانية المجزوة المحذوفة. أما الصحيحة فلا يعتريها من العلل إلا علة الحذف للسبب الخفيف، وهى جائزة كما صرح الدمنهورى بذلك فى حاشيته ٦٦. وأما علة القصر وهى حذف ساكن السبب الخفيف وإسكان متحركه فلا تصح فى هذه العروض، وهى ما تترتب على نطق « الخليفْ » بالإسكان. وأما ما يترتب على ضبط الفاء بالتحريك فهو زحاف القبض وهو حذف الخامس الساكن، وهو جائز وورد فى كثير من أشعار العرب كقول المرقش الأكبر فى المفضليات ٢٥٠:

دما بدم وتعفى الكلوم
ولا ينفع الأولين المهل

وقول عوف بن عطية فى المفضليات ٤١٣:

أحيِّ الخليل وأعطى الجزيل
حباء وأفعل فيه اليسارا

وقول حاجب بن حبيب فيها ٣٦٩:

يجم على الساق بعد المتان
جموماً ويبلغ إمكانها

وقول أبى فراس فى ديوانه ٢ : ٢٦ :

وأنت الكريم وأنت الحليم
وأنت العطوف وأنت الحدب
وما زلت تسعفنى بالجميل
وتنزلنى بالجناب الخصب

وقد وردت علة القصر المشار إليها فى الضرب الثانى من العروض الأولى الصحيحة، كما فى قول أمية بن أبى عائذ الهذلى فيما مثل به صاحب متن الكافى:

ويأوى إلى نسوة بائسات
وشعرى مراضيع مثل السعال(١)

ومما يجدر التنبيه عليه أن هذا الخطأ قد تكرر سابقا فى مادة (عيث) من اللسان. فليراجع وليصحح.

٨٣٠ — (فرق) ١٨١ : ١٠ وبيروت ٣٠٦ والمخطوطة، قول الراجز.

وهى إذا أدرَّها العيدان
وسطعت بمشرف شبحان

وفى المخطوطة وردت الياء فى « العيدان » مهملة النقط، كما وردت الشين والباء فى « شبحان » مهملة النقط. أما الكلمة الأولى فصوابها.

---

(١) نسب البيت فى حاشية الدمنهورى ٦٦ إلى أبى أمية الهذلى، والصواب ما أثبت. كما أن الرواية المشهورة فى البيت:

ويأوى إلى نسوة عطل وشعثا مراضيع مثل السعالى

وإطلاق الروى بالكسر هو الأكثر. وقال صاحب الخزانة ١ : ٤١٨ : « وأنشد هذا البيت العروضيون، منهم الأخفش بن سعيد « مثل السعال » بإسكان اللام ... لأنهم جعلوه من المتقارب من الضرب الثانى من العروض» وذكر البكرى فى السمط ٦٠ أن قصيدة هذا البيت يجوز فيها التقييد والإطلاق.

« العبدان » مثنى عبد . وصواب الثانية : « شيحان » بالياء المثناة التحتية لا بالباء الموحدة. والشيحان هنا : الطويل ، وهو صفة للعنق المشرف .

وقد وردت « شبحان» بعد الرجز مصحَّفة كذلك . فلتصحح بالياء .

٨٣١ - (فرزدق) ١٨٢ : ١٠ — ١١ وبيروت٧٠٧ والمخطوطة أيضا : « يقال للعجين الذى يقطع ويعمل بالزيت مشتق » ، وصوابه « مشنَّق » كما فى التهذيب واللسان نفسه مادة « شنق » . وفيه . : والمشنق العجين الذى يقطع ويعمل بالزيت . .

٨٣٢ - (فلق) ١٨٦ : ٩ ، ١٠ وبيروت ٣١١ : « والفلَق : المقطرة . وفى الصحاح : والفلق : مقطرة السجان » والصواب: « المقطرة» بكسر الميم كما فى التهذيب والصحاح والقاموس « قطر » حيث نص صاحب القاموس على كسر الميم ، وكما تقتضيه أسماء الآلات . وقال فى الصحاح : « وهى خشبة فيها خروق تدخل فيها أرجل المحبوسين ». وفى القاموس :« خشبة فيها خروق على قدر سعة رجل المحبوسين .

٢٢٨ — « فلق » ١٧٦ : ١٦ وبيروت٢١١ والمخطوطة كذلك ، قول الكميت :

فى حومة الفيلق الجأواء إذ نزلت
قسراً وهيضلها الخشخاش إذ نزلوا

صوابه « قسر» بالرفع، وهى قبيلة من بجيلة وقد سبق تفصيل القول فى هذا التنبيه رقم٥٦٦.

٨٣٤ — فوق) ١٩٥ :٦ وبيروت٣١٩ والمخطوطة ، قول الشاعر :

وحُدوسَ السرى تركت رديئا
بعد جد وجـــرأة ورشاقه

صوابه « وعَدوسَ السرى تركت رذيا » ، كما فى أمالى الزجاجى ٤٩ وهى التى اعتمد عليها ابن منظور فى هذا النص . أما العدوس فهو من الإبل القوى على سرى الليل ، يقال عدوس للذكر والأنثى أيضا . وأما الرذى فهو من الإبل المهزول الهالك الذى لا يستطيع براحا ولا ينبعث . والأنثى رذية . وقبل البيت :

رب كأس هرقتها ابن لؤى
حذر الموت لم تكن مهراقه

٨٣٥ — (فوق)١٩٦ :٩ :ويقال ما بُلِّلتُ منه بأفوق ناصل » صوابه : « ما بلت » كما فى التهذيب واللسان (بلل ٧٠) حيث ذكر هذا المثل وقال : « وبَلِلت به بلا : ظفرت به ». والأفوق: السهم الذى انكسر فوقه والناصل : الذى سقط نصله. وقد وردت بهذا الضبط الصحيح فى طبعة بيروت ٢٢٠ وجاءت فى المخطوطة مجردة من الضبط .

٨١٦ - (قرق) ١٩٧ : ٢٢ وبيروت ٣٢٢ قول الراجز :

* صهباً وقربانا تناصى قرقا *

وقد وردت بهذا التحريف أيضا فى اللسان « قرقس ». وفى المخطوطة وردت « قربانا» مهملة نقط الباء، والصواب « قريانا » بالياء المثناة التحتية ، كما فى التهذيب وديوان رؤبة ١١٠ . والقريان : جمع قرى ، وهو مسيل الماء من التلاع .

٨٢٧ — (قوق) ٢٠١ :١:٢٠١ وبيروت ٣٢٥ والمخطوطة كذلك قول النابغة :

كأن غديرهم بجنوب سِلّى
نعام قاق فى بــلد قفار

والنسبة إلى « النابغة » موهمة أنها للنابغة الذبيانى ، وليس كذلك ، بل هو النابغة الجعدى كما فى كتاب سيبويه ١ : ٢١٤ بتحقيق كاتبه وانظر ملحقات ديوانه ٢٤٢ . ونسبه ابن برى إلى شقيق بن جزء بن رباح الباهلى . كما أن صوابه « كأن عذيرهم » بالعين المهملة بعدها ذال معجمة . والعذير : الصوت ، كما فى تفسير سيبويه للبيت ، وكما عند الشنتمرى. ولم أجد له سنداً إلا نص الكتاب . وقد وردت الرواية على الصواب أيضا فى اللسان (سلل) والانصاف لابن الأنبارى ٤٧ .

٨٣٨ — (قيق) ٢٠١ : ١٤ وبيروت ٣٢٥ والمخطوطة : « حجارة غاصٌ بعضها ببعض » والوجه « عاصٌ بعضها ببعض » كما فى التهذيب أى مستمسك بعضها ببعض .

٨٣٩ — (لبق) ٢٠٢ : ١ وبيروت ٣٢٦ والمخطوطة : « وامرأة لبقة : ظريفة رقيقة ، ويليق بها كل ثوب » والوجه « يلبق » كما فى التهذيب ، وكما تقتضيه طبيعة اشتقاق المادة . ولا تزال هذه الكلمة الفصيحة مستعملة فى لغة أهل الكويت والخليج العربى .

٨٤٠ — (أفق) ٢٠٦ :٢٥ وبيروت ٣٣١ والمخطوطة ، قول الشاعر :

ويا رب ناعية منهم
تشد اللفاق عليها إزارا

وهذه هى أيضا رواية ديوان الأعشى ٣٨. ومما يؤيدها أن قبله فى القصيدة :

فأقللت قوما وأعمرتهم
وأخربت من أرض قوم ديارا

لكن رواية التهذيب ، وهى مظنة النقل « فيارب ناعمة منهم » ولهذه الرواية وجهها .

٨٤١ — (مرق) ٢١٦ :٢ وبيروت ٣٤٥ « سمعت بعض العرب يقول : أطعمنا فلان مرقة مرقَين ، يريد اللحم إذا طبخ ثم طبخ لحم آخر بذلك الماء » ، وجاءت كلمة « مرقين » فى المخطوطة مهملة الضبط . ووجه ضبطها « مرقِينَ » بلفظ الجمع لا بلفظ التثنية ، كما فى المقاييس والتهذيب . ويؤيده ما ورد فى اللسان (علا ٢٢٧) من استعمال العرب لهذه الكلمة بلفظ الجمع وفيها : « وسمعت العرب تقول : أطعمنا مرقة مرقين ، تريد اللحمان إذا طبخت بماء واحد . وأنشد :

قد رويت إلا دهيدهينا
قليصات وأبيكرينا

فجمع بالنون لأنه أراد العدد الذى لا يحدُّ آخره . وكذلك قول الشاعر :

فأصبحت المذاهب قد أذاعت
بها الإعصار بعد الوابلينا

أراد المطر بعد المطر غيرَ محدود . وكذلك عليون : ارتفاع بعد ارتفاع ».

وذكر أن هذه الأسماء تعرب إعراب جمع المذكر السالم لأنها على لفظه .

٨٤٢ — (مرق) ٢١٨ : ١٨ وبيروت ٣٤٢ قول الشاعر :

يا ليتني لك مئزر متمرّق
بالزعفران لبسته أياما

وجاء بعده : « متمرّق : مصبوغ بالعصفر » لكن وردت « متمرق » فى المخطوطة مضبوطة بتشديد الراء فقط . والصواب « متمرق » بزنة اسم الفاعل كما فى التهذيب ، وهو ما يقتضيه قول ابن منظور نفسه : « وتمرق الثوب : قبل ذلك » .

٨٤٣ — (مشق) ٢٢٠ : ١٨ « إذا اصطكت أليتاه حتى تشحجا » ، وفى بيروت ٢٣٤ « تشحجتا » وليس للتشحج سند فى اللفظ ولا فى المعنى ، والصواب « تسحجا » بالسين المهملة كما فى المخطوطة ، أى تتسحجا ، بحذف إحدى التاءين . والتسحج : التقشر .

٨٤٤ — (نبق) ٢٢٨ : ٣ — ٤ وبيروت ٣٥١ والمخطوطة : « ابن الأعرابى : أنبق ونبق ونبّق ، كله إذا غرس شراكا واحدا من الوادى » . ووضع فى المخطوطة سكون على ألف « الوادى » ، وصواب هذا « الودى » كما فى التهذيب واللسان (بنق ١١ : ٣١١ س ١٣) . والودى على فعيل : فسيل النخل وصغاره ، واحدته ودية .

٨٤٥ — (نبق) ٢٢٨ : ٨ وبيروت ٣٥١ والمخطوطة أيضا : ينتبق الكلام انتباقا وينتبطه أى يستخرجه » صوابه « ينتبق الكلام » بالتعدية ، كما فى التهذيب . وفى القاموس مع تاج العروس : « (وانتبق الكلام) انتباقا وانتبطه انتباطا : (استخرجه) » .

٨٤٦ — (نفق) ٢٢٦ : ٩ وبيروت ٣٥٨ قول الشاعر :

شدا ومرفوعا بقُرب مثله
للورد لا نفِق ولا مسئوم

وفى المخطوطة : « مقرب » باهمال نقط الحرف الأول ، ومع عدم ضبط « مثله » . ووجهه : « يقرِّب مثلَه » كما فى التهذيب وديوان لبيد ١٢٩ . والبيت من قصيدة له فى الديوان . والشد : العدو . والمرفوع : أشد من الشد . أى مثل هذا الشد يقرب الحمار للورد .

٨٤٧ — (نوق) ٢٤٢ : ١٨ وبيروت ٣٦٤ قول الراجز :

مُخة ساق بأيادى ناقِ
أعجلها الشاوى عن الاحراق

وبعده : « ويروى بين كفَّىْ ناقٍ » وفى المخطوطة : « ساقى بأيادى ناقى » و « كفى ناقى » . والصواب فى نص الرجز :

* مخة ساق بأيادى ناقى *

وفى التعليق بعده : « بين كفى ناقى » بغير همز . والساق معروفة ، وبداخلها المخ وهو نقى العظم . والناقى : الذى يستخرج النقى من العظم ، يقال نقوت العظم ونقيته .

٨٤٨ — (همق) ٢٤٨ : ١٥ قول الراجز :

* لبابة من همق عيشوم *

وفى المخطوطة : « لبانةٌ »، صوابهما « لباية » بالياء المثناة التحتية ، كما فى اللسان (لبى) وطبعة بيروت ٣٦٩ . واللباية : البقية من النبت عامة ، وقيل البقية من الحمض ، أو هو شجر الأمطىّ .

٨٤٩ — (وبق) ٢٤٩ : ٢٠ وبيروت ٢٧٠ والمخطوطة قول الشاعر ، وهو خفاف ابن ندبة السلمى كما فى الأصمعيات ١٥ :

وخاد شرورى والستار فلم يدع
تعاراً له والواديين بموبق

صوابه « وجاد » بالجيم ، كما فى التهذيب والأصمعيات . جاده : أصابه بالجود ، وهو المطر الغزير . والذى فى التهذيب والأصمعيات : « يعار » بالياء بدل التاء . وشرورى والستار ويعار : مواضع فى بلاد بنى سليم . وأما « تعار » بالتاء فهو من بلاد قيس .

٨٥٠ — (ودق) ٢٥١ : ٢٣ وبيروت ٢٧٢ والمخطوطة قول الراجز .

* كوم الذرى وادقة سراتها *

والرجز لعمر بن لجأ(١) فى الأصمعيات ٢٤ والخزانة ٣ : ٤٧٨ والعينى ٣ : ٥٨٣ .

وقبل الشطر :

* أنعتها إنى من نعاتها *

فالصواب « وادقة سراتِها » بنصب سرات بالكسرة ، كما يقتضيه روى الرجز . والكلمة موضع استشهاد نحوى على أن وادقة صفة مشبهة وفاعلها ضمير مستتر فيها ، وسراتها منصوب بالكسرة على التشبيه بالمفعول للصفة المشبهة .

عبد السلام محمد هارون

(للبحث بقية)

(١) عند العينى أن صاحب الرجز « عمر بن لحاء » وضبطه بقوله « بالحاء المهملة » وصوابها « لجأ » كما سبق فى التنبيه رقم ٧٣١ .

قول في النحو

للأستاذ محمد شوقي أمين

قواعد

اللغة العربية التى احتوتها كتب النحو ، تنطوى على كثير من الفروع والتفصيلات والاستثناءات، وذلك طوع الاختلاف صور الكلام فى التقديم والتأخير والحذف والايصال، والإظهار والإضمار، ومايتخلل أركان الجمل من القيود أو الصلات أو الفضلات. ومن هذه الصور ما هو قياسى ، وما هو غالب ، وما هو كثير ، وماهو قليل ، وما هو نادر ، وماهو شاذ.

وإن بسط هذه التفصيلات ، وبيان منزلتها من القلة والكثرة ، ليجعل قواعد العربية واسعة كل السعة ، ويبلغ بتفصيلاتها وتفريعاتها مبلغا لا يحصله إلا متفرغ للنحو ، صارف أطول عمره وأفسح دهره فى التعرف والحفظ والمذاكرة.

وقد جرى أهل العربية منذ القدم على أن هذه هى اللغة ، وأن رجال النحو والتصريف إنما قعدوا هذه القواعد ، ونسقوا تلك التفصيلات ، استنباطا من كلام العرب المعتد به فيما حصلوه . فهم بما ضبطوا من قواعد ، وما رتبوا من مسائل، يصورون أساليب الكلام الفصيح فى جملته وتفصيله .

والنحاة فى الغالب يحتجون لكل قاعدة ولكل جزئية من جزئيات القواعد بأمثلة من البيان العربي ، وأكثرها يستشهدون به من الشعر وحجتهم فى إيثار الشواهد الشعرية أن النثر غير متناقل ولا محصل فى الصدور ، إلا أقله . ولكن الشعر أكثره محفوظ مروى ، وهو بوزنه ضابط لنطق الكلمة المراد الاحتجاج بها ، مصور لصيغة الجملة التى هى مناط الاستنباط .

على أننا لو تأملنا مليا لعلن لنا جليا أن كثيرا مما يسرده النحاة ، ويعمرون به أبواب القواعد، من أشتات التفصيل والتفريع، وألوان الجواز والاستثناء ، وصنوف الضوابط والشرائط ، لا صورة له فى النثر المأثور عن العرب .

وعلى الرغم من أن أهل العربية — على ترادف الأحقاب — قد لقنوا هذه التفصيلات جميعا ، فان بيان البلغاء من الكتاب ، تخلو تعبيراته وجمله من أكثر ما يقتضيه ذلك التفريع والتنويع فى كتب النحاة . فالتراكيب المستعملة فى النثر العربى خلال خمسة عشر قرنا لاتجرى إلا فى قليل من تلك الصور التى تشتمل عليها أبواب النحو والتصريف .

فعلام تدل هذه الظاهرة ؟

أليست تدل على أن العلة فى كثرة فروع القواعد، راجعة إلى طبيعة الشعر العربى فى تقيده بالوزن والقافية، فهو لذلك يقسر الشاعر العربى على أن يتصرف فى أنماط الكلام وأساليب التعبير، ليسلس له عنان الوزن، ويسلم له سماط القوافى ؟

وإذا كان ذلك التفريع والتفصيل أثرا للشعر العربى وحده، باعتبار ما فيه من ضرورات مباحة، ألجأت إليها طبيعة النظم، فلماذا تبسط هذه الضرورات المباحة فى الشعر على أنها من قواعد النحو الشاملة للكلام شعره ونثره ؟

حقا عنى النحاة بذكر ما خالف القواعد فى الشعر، ونصوا أبياتا تتجلى فيها ألوان الخلاف، وعدوا ذلك من الضرورات الشعرية، حتى لقد أطلقوا عليها اسما خص بها وعرفت به، ذلك هو اسم «الضرائر»، ولكن هذه الضرائر التى عنى النحاة بالنص عليها، ليست إلا جانبا مما حشدوه من فروع القواعد، واحتجوا له بالشواهد من الشعر، وأطلقوا أحكامه إطلاقا، كأنه جزء من القواعد العامة للكلام منثوره ومنظومه، دون أن ينصوا على أنه ظاهرة من ظواهر الكلام المنظوم خاصة، وأنه مما لا يجرى فى منثور الكلام.

كان للعرب مطلق التصرف فى أساليبهم كما يريدون ونحن لما قالوا مسجلون، وبهديهم مقتدون، وهذا نثرهم الذى أثر عنهم فى الجاهلية والاسلام وكذلك نثر القرآن والحديث ليس فيه إلا شىء قليل من تلك التفصيلات التى زخرت بها قواعد النحاة.

ولنجدن الكاتب يبلغ أعلى مراتب التجويد فى الكتابة، ويسمو إلى أرفع طبقات البلاغة فى الإنشاء، على حين أن طرائق تعبيره، وألوان أساليبه، لا يعلق بها كثير مما تبارت كتب النحو فى تدوينه وتفصيل أحكامه.

فان نحن رجعنا إلى الشعر ألفيناه يحفل بكل ما أتعب النحاة أنفسهم فيه، وجهدوا جهدهم لضبطه، وما ذلك إلا لأن أولئك النحاة حين انبروا لضبط قواعد الكلام، وتسجيل ظواهر التراكيب والأساليب، جعلوا نصب أعينهم فى معظم أمرهم ما تيسر لهم جمعه من القصائد والمقطعات والأبيات، فكان الشعر مادتهم الغزيرة ومنهلهم المورود، إليه رجعوا أكثر مارجعوا، وعليه عولوا أكثر ما عولوا، ومنه استخرجوا أوفر ما استخرجوا من القواعد والأحكام.

وجلى أن الوزن والقافية يتحكمان فى الشعر العربى كبير تحكم، وأنهما يريدان الشاعر على أن يميل بأساليب بيانه تقديماً وتأخيراً، وإظهارا وإضمارا، وحذفا وإيصالا، تطويعا للوزن، وتأليفا للقافية. فالشعر مغاير للنثر فى الصوغ، مخالف له فى التركيب، ولا يعزب هذا عن النظرة العابرة فى أية قطعة منثورة حين يوزن بها شىء من القول النظيم.

وإننا لنلمح ذلك فى الشعر ، قديمه ومحدثه على السواء ، وأولئك هم الشعراء المعاصرون يجرون فى تركيب الجمل على أنحاء نفقدها فى النثر ، وهيهات أن يلجأ إليها الكاتب المترسل ، أو يرضى بها أو يجدها موافقة للانسياق فى الكلام .

ولقد يكون الشاعر كاتبا ، يستوى عنده النثر والنظم إتقانا وبراعة ، فهو فى كليهما مجود متأنق ، ولكنه إذا نظم تتابعت فى نظمه أنماط من التعبير متشابكة تقتضى تلك التفصيلات النحوية ، فإذا نثر جرى كلامه فى صور سهلة ميسورة من ناحية التركيب النحوى ، مع الجزالة وحسن السبك من ناحية التأليف البلاغى .

وليس الوزن والقافية وحدهما هما اللذان يحدوان الشاعر أن يصطنع تلك الألوان المتباينة من التراكيب ، فربما تيسر الوزن والقافية مع التركيب السهل المألوف ، بيد أن الشعر العربى قد اتخذ له منذ القرون الأولى طابعا خاصاً يسميه النقاد الأقدمون : « عمود الشعر » وأبين خصائص هذا الطابع نسج العبارات وتأليف التراكيب ، ولذلك كله سلطانه على صاغة القريض ، فقد اتصلت تلك التراكيب الشعرية بالأذهان ، وتمكنت فى الملكات ، وهى تعرض للشاعر اعتياداً وانقياداً ، ومتابعة ومحاكاة ، وطلبا لذلك الإيقاع الموسيقى الذى نحسه فى شعر القدامى ومن تابعوهم على تعاقب العصور .

أليس يخلص لنا من هذا أن قواعد النحو فى أغلب تفصيلاتها تسجيل لظواهر التراكيب الشعرية ، غير مفتقر إليها ولا معول عليها من يتصرف ناثرا فى فنون الكلام ؟

ولو تدبرت الأمثلة التى يستشهد بها النحاة أو يصوغونها صوغا لتصوير بعض الفروض التى يبسطونها فى تفريعات القواعد ومحترزاتها وقيودها ، لاستبان لك أنها لا تسوغ عادة فى البيان المرسل ، وأنها ليست من مألوف ما تجرى به عذبات الألسن فى القول المنثور .

وإن اليسير من هذه الأمثلة - مما لا تكلف فيه ولا تعقيد - لو استعمله كاتب على جهة التأنق فى السبك ، لوضح للقارئ أن نثر هذا الكاتب يدخل فى باب الشعر ، ولمر بالخاطر أن هذا الكاتب يستعير تلك الأمثلة من محفوظه الشعرى ويجريها مجرى التمثل ، تحلية وزينة ، وذلك لما هو قار فى النفوس من أن للنثر أساليب فى نسق الجمل والتراكيب غير الأساليب الشعرية المتوارثة .

ربما يقال إن تلك التفصيلات النحوية تفيد فى فهم الشعر ومعرفة أساليبه ، وهذا حق لا خلاف عليه . ولكن يجب أن نفرق بين أمهات القواعد التى هى طبيعة اللغة ، وعليها يدور مرسل الكلام ، وبين التفريعات والتنويعات التى أملاها على النحاة ما وجدوه فى قصيد الشعراء من تراكيب ألجأ إليها وزن الشعر وقافيته ، وأصبحت طابعاً للشعر العربى كله أوجله .

وإذا كان النحاة قد بسطوا قواعد شاملة لم يميزوا فيها بين شعر ونثر ، فذلك لأن الشعر - كما أسلفنا القول - كان معولهم فى الاستنباط ،

ولأنهم فى مطلع وضع العلوم وتقعيد الفنون جردوا عنايتهم لتسجيل ظواهر الكلام العربى مرسله وموزونه على وجه عام .

وشأن النحو فى هذا الصنيع كشأن « البلاغة » بدأت أول ما بدأت لوامع وملامح فى كتب الأدب ، لا تمييز فيها ولا تقسيم ، وما زالت تنمو وتتطور حتى انقسمت بيانا ومعانى وبديعا ، ولكن النحو ظل ينمو ويزدهر دون أن ينقسم نحوا للنثر ونحوا للشعر ، ومن حق هذا أن يمتاز عن ذاك ، وأن تكون لكل منهما أحكامه وضوابطه .

لقد أحسن النحاة الأولون صنعا حين حصلوا كل شيء وجدوه ، وأقاموا من قواعده وأحكامه علما واسع الأبواب والفصول ، ضافى الذيول ، إلا أنه بقى على حاله منذ مطلعه ، فلم يصب حظه من ذلك التطور الذى أصابه غيره من العلوم ، وما أحقه هو بأن يتطور ، وفقا لما تقتضيه قواعده وأحكامه التى تشمل جنسين متمايزين من الكلام ، هما المنظوم والمنثور ، والجمع بينهما فى القواعد والأحكام خلط وإيهام .

فعلينا اليوم أن نخرج بالنحو من جموده ، وأن نخطو به خطوة جديدة ، فنستقرى أبوابه بابا بابا ، ونستقرى قواعد الباب قاعدة قاعدة ، مستقصين ما لكل من محترزات وقيود ، ومن ضوابط وشرائط ، منتخلين ما يساق عليها من أمثلة وشواهد ، ثم ننظر : أترجع هذه الصورة إلى الشعر وحده ، أم تسوغ فى نسق الكلام المرسل ؟ وقليلة هى أم كثيرة ؟ وعامة هى أم مقصورة على إحدى اللهجات ؟

فإن نحن أخذنا هذا المأخذ فى دراسة النحو ، أفردنا أمهات القواعد ورءوس الأحكام من أشتات الفروض والصور التى تتردد بين القلة والندرة والشذوذ ، واستصفينا نحو النثر من نحو الشعر .

ذلك قول فى النحو ، أجملته فى هذا الفصل ، وقد اختمرت عندى فكرته منذ عهد ، فرأيت أن أكاشف به ، عسى أن يكون مدرجة إلى توجيه النحو العربى وجهة جديدة ، فيها لمتعلميه تيسير ، وفيها لذلك العلم المكين مزيد من الدقة وحسن التقسيم .

صفحة من نحو الشعر (١)

صور من ضمير الشأن

(١) يكون فى الفعل ضمير الشأن ، كإضمار اسم كان فى قوله :

إذا مت كان الناس صنفان شامت
وآخر مثن بالذى كنت أصنع

ومن ذلك قول الشاعر :

إذا ما المرء كان أبوه عبس
فحسبك ما تريد إلى الكلام

ومنه قول آخر :

متى ما يفد كسبا يكن كل كسبه
له مطعم من صدر يوم ومأكل

(١) نماذج توضح فكرة البحث وسنده .

وكإضمار اسم ليس فى قول الشاعر :

هى الشفاء لداء لو ظفرت بها
وليس منها شفاء الداء مبذول

(ب) وضمير الشأن منوى فى ظن وأخواتها ، وأن وأخواتها كإضماره فى (إخال) فى قول الشاعر :

أرجو وآمل أن تدنو مودتها
وما إخال لدينا منك تنويل

ويؤولونه كذلك على تقدير لام الابتداء مضمرة ، كقول الشاعر :

كذاك أدبت حتى صار من خلقى
أنى وجدت ملاك الشيمة الأدب

كتاب سيبويه ح ١ — ٢٦ — ٢٩٦

المفصل لابن يعيش ح ٧٧ ، ح ٣ — ١١٦

ابن عقيل — باب ظن وأخواتها

صور من الفصل

١ — بين الناسخ وما دخل عليه

(ا) يفصل بين الحرف الناسخ وما دخل عليه بالجملة ، مثل قوله :

كأنّ وقد أتى حول كميل
أثافيهـــا حمامات مثول

(ب) ويفصل بين حرف النفى ومنفيه فى (ما زال) وأشباهها .

كقوله : ولا أراها تزال ظالمة

وقوله : ولا وأبى دهماء زالت عزيزة

ويجوز تقديم الخبر على الفعل وحده ، إذا كان النفى بما ، نحو :

ما قائما زال زيد .

ولا يمتنع تقديم خبر مادام على دام وحدها ، فتقول : لا أصحبك ما قائما دام زيد .

المغنى ح ٢ ص ٤٩

الخصائص ح ١ ص ٣٢١

ابن عقيل — باب كان وأخواتها

٢ — بين الجار والمجرور

من مواضع الجملة المعترضة بين شيئين لإفادة الكلام تقوية وتسديداً أو تحسينا ، الموضع الذى تكون فيه الجملة بين الجار والمجرور ، كقوله : اشتريته بأرى ألف درهم .

المغنى ٢ — ٤٩

٣ — بين المتضايفين

مسائل الفصل الجائزة فى السعة ثلاث :

إحداها أن يكون المضاف مصدراً والمضاف إليه فاعله ، والفاصل مفعوله كقوله : فسقناهم سوق البغاث الأجادل .

والثانية أن يكون المضاف وصفا والمضاف إليه مفعوله الأول والفاصل مفعوله الثانى كقوله : وسواك مانع فضله المحتاج .

والثالثة أن يكون المضاف لا يشبه الفعل وأن يكون الفاصل قسما ، كقولهم :

هذا غلام والله زيد .

وغير هذه المسائل يختص بالشعر .

الأشمونى — باب الإضافة

الضرائر ١٤٣

صورة من حذف المضاف إليه

يحذف المضاف إليه ، ويبقى المضاف كحاله لو كان مضافا ، فيحذف تنوينه مثل قوله :

سقى الأرضين الغيث سهل وحزنها
فنيطت عرى الآمال بالزرع والضرع

الأشمونى - باب الإضافة

صور من إعمال المصدر

(ا) يعمل المصدر المحلى عمل الفعل ، فتكون الألف واللام بمنزلة التنوين ، ومنه قوله :

فإنك والتأبين عروة بعد ما
دعاك وأيدينا إليك شوارع

لكالرجل الحادى وقد تلع الضحا
وطير المنايا فوقهن أواقع

وقوله :

ضعيف النكاية أعداءه
يخال الفرار يراخى الأجل

وقوله :

لقد علمت أولى المغيرة أننى
كررت فلم أنكل عن الضرب مسمعا

(ب) وإذا أضيف المصدر إلى فاعله ، ففاعله مجرور لفظا مرفوع محلا ، فيجوز فى تابعه مراعاة اللفظ فيجر ، ومراعاة المحل فيرفع ، كقوله :

حتى تهجر فى الرواح وهاجها
طلب المعقب حقه المظلوم

فرفع المظلوم لكونه نعتا للمعقب على المحل .

(ج) وإذا أضيف المصدر إلى المفعول فهو مجرور لفظا منصوب محلا ، فيجوز فى تابعه مراعاة اللفظ أو المحل ، ومن مراعاة المحل قوله :

قد كنت داينت بها حسانا
مخافة الإفلاس والليانا

فالليان معطوف على محل الافلاس .

كتاب سيبويه — ح ١ ص ٩٩
ابن عقيل — باب أعمال المصدر

المفعول لأجله يصحب الألف واللام

ما صحب الألف واللام يجر ، ويجوز النصب ، ومنه قول الشاعر :

لا أقعد الجبن عن الهيجاء
ولو توالت زمر الأعداء

وقول الشاعر :

فليت لى بهم قوما إذا ركبوا
شنوا الاغارة فرسانا وركبانا

الأشمونى — باب المفعول له
كتاب قواعد اللغة العربية
للمدارس باب المفعول لأجله

انجزام الفعل بالاستفهام

ومما جاء منجزما بالاستفهام ، قوله :

متى أنام لا يؤرقنى الكرى
ليلا ولا أسمع أجراس المطى

كأنه قال إن يكن منى نوم فى غير هذه الحال لا يؤرقنى الكرى ، كأنه لم يعد نومه فى هذه الحال نوما .

كتاب سيبويه ح ١ — ٤٥٠

واو دخولها كخروجها

ومن أقسام الواو قسم يكون فيه دخول الواو كخروجها ، وهى الزائدة ، أثبتهـــا الكوفيون والأخفش وجماعة ، والزيادة ظاهرة فى قوله :

فما بال من أسعى لأجبر عظمه
حفاظا وينوى من سفاهته كسرى

وقوله :

ولقد رمقتك فى المجالس كلها
فإذا وأنت تعين من يبغينى

المغنى ح ٢ — ٣٢

صور من عمل « أن »

١ — رفعها للفعل المضارع بدون فصل

خلاف بين البصريين والكوفيين فى تعليل رفع المضارع بعد « أن » ، فالكوفيون يقولون إنها مثل « ما » المصدرية ، والبصريون يقولون إنها مخففـــة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن والحديث ، وقد يرد بعدها صدر الجملة الواقعة خبراً بدون قد والنفى وما إليه ، كقول الشاعر :

يا صاحبى فدت نفسى نفوسكما
وحيثما كنتما لاقيتما رشدا

أن تحملا حاجة لو خف محملها
وتصنعا نعمة عندى بها ويدا

أن تقرآن على أسماء ويحكما
منى السلام وإلا تشعرا أحدا

وكقول ابن الدمينة :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى
بها كبدا ليست بذات قروح

أبى الناس ويح الناس أن يشترونها
ومن يشترى ذا علة بصحيح

وكقول الآخر :

إنى زعـــيم يا نويقـــة
إن ســـلمت من الرزاح

أن تهبطـــين بلاد قوم
يرتعـون من الطـــلاح

وكقول الآخر :

إذا كان أمر الناس عند عجوزهم
فلا بد أن يلقون كل يبـاب

وكقول الآخر :

علموا أن يؤملون فجادوا
قبل أن يسألوا بأعظم سؤل

٢ — نصبها للفعل المضارع بدون ذكر

ينصب الفعل المضارع بأن مضمرة ، ومنه قول طرفة :

ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

فأضمر أن أولا ، ثم أظهرها ثانيا فى بيت واحد . وتقديره : ألا أيهذا الزاجرى أن أحضر الوغى.

ومن طريف مايروى أن « دماذ » كتب إلى بكر المازنى النحوى يقول :

تفكرت فى النحو حتى مللت
وأتعبت نفسى به والبدن

فكنت بظاهره عالما
وكنت بباطنه ذا فطن

خلا أن بابا عليه العفاء
فى النحو يا ليته لم يكن

إذا قلت : لم قيل لى هكذا
على النصب قيل بأضمار أن

فقد خفت يا بكر من طول ما
أفكر فى أمر « أن » أن أجن

٣ — بروز اسمها إن خففت

إذا خففت « أن » بقيت على ماكان لها من العمل ولكن لا يكون اسمها إلا ضمير الشأن محذوفاً ، وخبرها لا يكون إلا جملة ، وقد يبرز اسمها وهو غير ضمير الشأن كقوله :

فلو أنك فى يوم الرخاء سألتنى
طلاقك لم أبخل وأنت صديق

وكقوله :

لقد علم الضيف والمرملون
إذا اغبر أفق وهبت شمالا

بأنك ربيع وغيث مريع
وأن هناك تكون الثمالا

المفصل ح ٧ — ٩ ، ١٥ و ح ٨ — ١٤٣

ابن عقيل — باب أن وأخواتها

عيون الأخبار — الجزء الثانى ذيل أمالى القالى .

شرح التبريزى للقصائد العشر

سر العربية للثعالبى .

صورة من تنكير ماحقه التعريف

حد الكلام فى اسم كان وخبرها إذا جاء أحدهما نكرة والآخر معرفة أن تكون النكرة هى الخبر والمعرفة هى الاسم .

ولكن « ابن مالك » يقول فى شرح التسهيل : « يخبر فى بابى كان وان بمعرفة عن نكرة اختياراً .

ويقول « الزمخشرى فى المفصل أن ذلك :

« من القلب الذى يشجع عليه أمن الإلباس » .

ومن النحاة من يذهب إلى أن كل ذلك يجوز ، ولا يعد من الضرورات .

ومن شواهده وأمثلته قول القطامى :

قفى قبل التفرق يا ضباعا
ولا يك موقف منك الوداعا

وقول حسان :

كأن سبيئة من بيت رأس
يكون مزاجها عسل وماء

وقول أبى قيس الأنصارى :

ألا من مبلغ حسان عنى
أسحر كان طبك أم جنون

وقول الفرزدق :

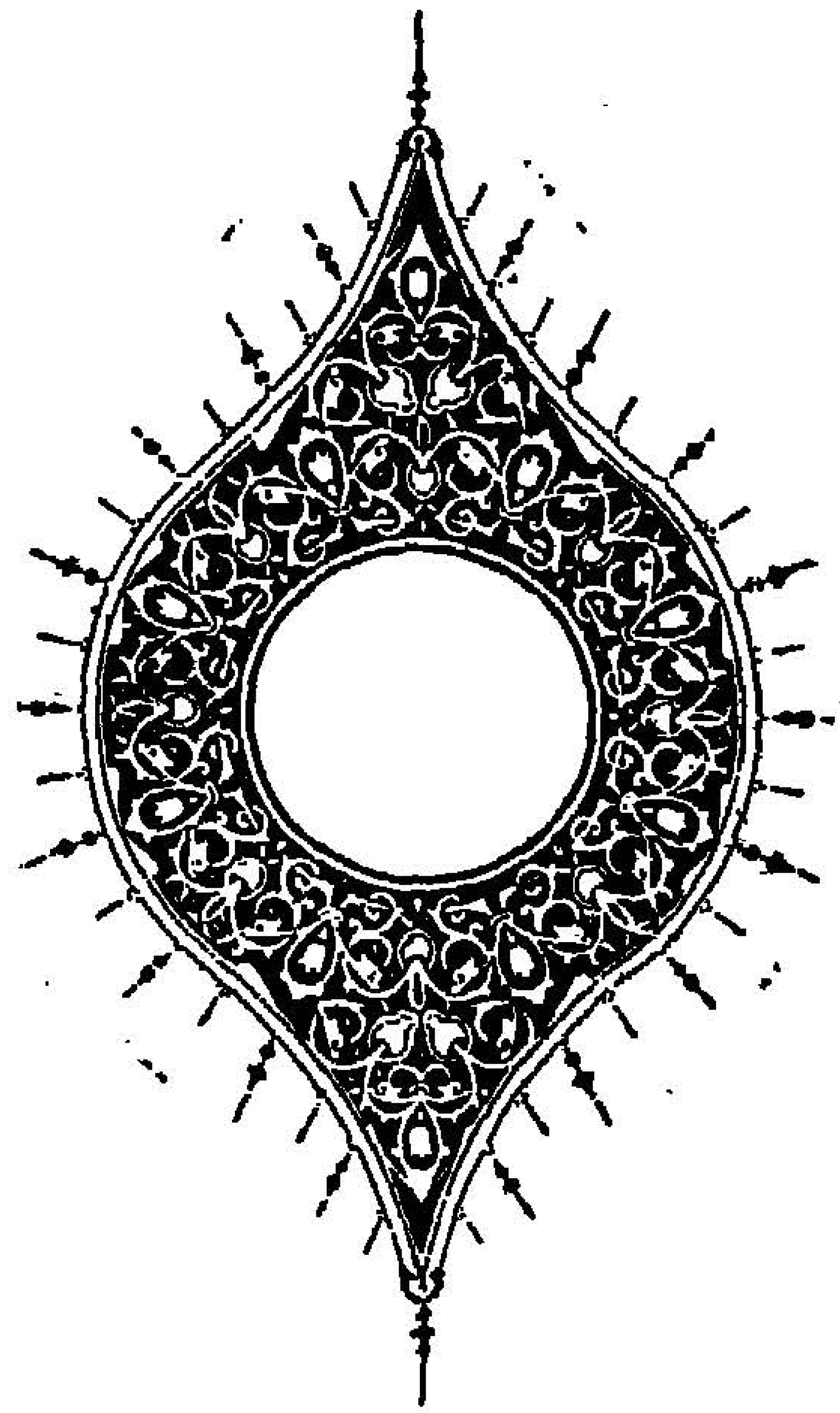
أسكران كان ابن المراغة إذ هجا
تميما بجوف الشام أم متساكر

وقول خداش بن زهير :

فإنك لا تبالى بعد حول
أظبى كان أمك أم حمار

ابن يعيش — ح ٧ - ٩١
المغنى — ح ٢ — القاعدة ١٠
الضرائر — ص ٢٣٥

محمد شوقى أمين
عضو المجمع



مفهوم الجمال فى اللغة العربية

للدكتور عثمان أمين

تكاد اللغة العربية تنفرد عن اللغات الحية الأخرى بخصيصة جديرة بالتنويه، وإن تكن قد خفيت زماناً على الكثيرين: تلك هى وفرة الألفاظ الدالة على الشىء منظوراً إليه فى مختلف درجاته وأحواله ومتفاوت صوره وألوانه. وهذه الميزة العربية، ميزة التلوين الداخلى الذى كأنما يرسم الماهية الواحدة، بالأطياف والظلال، صوراً متعددة، تغنينا باللفظ الواحد عن العبارة المطولة نحدد بها المعنى المقصود.

واللغة العربية، كما قال «ابن جنى»، من أكثر لغات الأرض دلالة معنوية، بل إن الكثير من ألفاظ العربية قد فقد على مر الزمان دلالته الحسية. وإن ما يجعل اللغة العربية أكثر مرونة من غيرها من اللغات الحية المعروفة هو أنها أكثر اللغات قبولا للاشتقاق. والاشتقاق باب واسع تستطيع به اللغة أن تؤدى معانى الحضارة على اختلافها، وهو يقوم بدور لا يستهان به فى تنويع المعنى الأصلى وتلوينه، إذ يكسبه خواص مختلفة بين طبع وتطبع، ومبالغة وتعدية، ومطاوعة ومشاركة ومبادلة، مما لا يتيسر التعبير عنه فى اللغات الآرية مثلا إلا بألفاظ خاصة ذات معان مستقلة. وصيغ الألفاظ العربية تفرق تفرقة واضحة بين «الجوانى» و«البرانى»، بين ما هو حركة فى النفس وما هو حركة فى الجوارح(1).

و«علم البديع» فى اللغة العربية — كما عرفوه — هو «علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ورعاية وضوح الدلالة، أى الخلو من التعقيد المعنوى» وهذا التعريف نفسه يدل على أن هذه اللغة تجعل استقامة المعنى ووضوح الدلالة مقياساً لفن البلاغة وشرطاً لجمال العبارة.

وهذه الخصائص تصدق فى اللسان العربى على لفظ «الحسن» ومفهومه الأصلى واشتقاقاته كما تصدق على غيره من ألفاظ ومفاهيم.

* * *

المفهوم الرئيسى: «الحسن» بمعنى «الجمال»

المفاهيم المشتقة منه: الحسنى — الإحسان — الاستحسان — الحسنة — التحسين

والمفاهيم المشتقة من الجمال: التجمل — الإجمال — المجاملة.

فيقال حسن أى جمل، فهو حسن وهى حسناء، أى جميل وجميلة. والحسن والجميل هو ما يرتاح له الحس والعقل والخلق والذوق. ويكون الحسن والجمال فى الصورة والهيئة، والقول، والفعل.

(1) عثمان أمين: «فلسفة اللغة العربية» (القاهرة 1965)

ويعطينا « الثعالبي » أمثلة لغوية تدل على تقسيم الحسن ودرجاته الحسية : « الصباحة » تكون في الوجه ، و « الوضاءة » في البشرة ، و « الحلاوة » في العينين ؛ و « الملاحة » في الفم ؛ و « الرشاقة » في القد ، و « الظرف » في اللسان (٢) وعن محاسن خلقة المرأة يقول « الثعالبي » إذا كانت رقيقة الجلد ناعمة البشرة فهي « بضة » ؛ وإذا كانت لطيفة الخصر فهي « هيفاء » ؛ وإذا كانت لطيفة الخصر مع امتداد القامة فهي « ممشوقة » ؛ وإذا كانت متثنية من اللين والنعمة فهي « غادة » و « غيداء »(٣)

وعن « محاسن الصوت والسماع » يقول السراج الطوسي : « روى في الحديث عن النبي « صلعم » أنه قال : ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت ... وروى عنه قوله : زينوا القرآن بأصواتكم ... وقد ذم الله تعالى الأصوات المنكرة بقوله عز وجل : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » ، وفي ذم الأصوات المنكرة محمدة « للأصوات الطيبة ... وعن يحي بن معاذ الرازي أنه قال : « الصوت الحسن روحة من الله تعالى لقلب فيه حب الله تعالى »(٤) .

وكان العرب يرون للغناء شرائط من الحسن إذا توفرت للمغنى كان « محسناً » . قال مالك بن أبي السمح : سألت ابن أبي إسرائيل عن المحسن المصيب من المغنين ، فقال : « هو الذي يشبع الألحان ، ويملأ الأنفاس ، ويعدل الأوزان ويفخم الألفاظ ، ويعرف الصواب ، ويقيم الاعراب ، ويستوفي النغم الطوال ، ويحسن مقاطع النغم القصار ، ويصيب أجناس الايقاع ، ويختلس مواضع النبرات ، ويستوفي ما يشاكلها من النقرات »(٥) .

وواضح أن لفظ الحسن أو الجمال لم يقف عند حد الدلالة على الحسن الظاهر أو الجمال المحسوس ، بل جاوزه إلى الدلالة على الحسن والجمال في المعاني والنيات والمواقف والتصرفات وهذا الانتقال يتفق تمام الاتفاق مع منطق اللغة العربية في تدرجها من الظاهر إلى الباطن ومن المحسوس إلى المعقول .

ومادة « الحسن » في اللغة العربية — بمالها من اشتقاقات — مرتبطة إرتباطاً وثيقاً بالأخلاق فألفاظ : الاحسان ، والمحاسنة ، والحسنى ، والتحسين والاستحسان ، والحسنة تعبر كلها في اللغة العربية عن دلالات جمالية أخلاقية .

فيقال : الاحسان فعل ما هو حسن : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم » (قرآن كريم) .

وفي هذا المعنى روى صاحب العقد الفريد عن أرسطو أنه كتب إلى الاسكندر : « أملك الرعية بالاحسان إليها ، تظفر بالمحبة منها :

---

(٢) الثعالبي : « فقه اللغة » ص ٦٧ (القاهرة ١٩٣٨) .

(٣) المصدر السابق : ص ١٦٢ .

(٤) أبو نصر السراج الطوسي : « اللمع » القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٥) النويري : « نهاية الأرب » ج ٥ ص ١٢٢ .

فان طلبك ذلك بإحسانك أدوم بقـــاء منه باعتسافك » (٦).

وأحسن الشيء : أجاد صنعه أى أتقنه ،قال تعالى : « خلقكم فأحسن صوركم »وقال الامام على : كفى بالعلم شرفاً أنه يدعيه من لايحسنه ، ويفرح به إذا نسب إليه » . وقال : قيمة المرء ما يحسنه »(٧) .

وحسن الشيء أى جعله حسناً وزينه . وحسنه بمعنى رقاه وأحسن حاله . و « الحسنى » هى العاقبة الحسنة ؛ وفى القرآن : « فله جزاء الحسنى » و « المحسنة » هى ما يحسن ، فيقال : هذا الطعام محسنة للجسم . و « الأحسن » هو الأفضل ؛ قال تعالى : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) ، وجمعها أحاسن . وفى الحديث : « إن أقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا » . وقال الإمام على : « جزعك فى مصيبة صديقك أحسن من صبرك ، وصبرك فى مصيبتك أحسن من جزعك » . والحسن بمعنى الجمال فى الأفعال والتصرفات . ومثاله قول الإمام على : « حسن التدبير مع الكفاف أكفى لك من الكثير مع الإسراف » . وقوله : « حسن اليأس خير من الطلب من الناس والحسن يضاف إلى النية وإلى الصنيعة وفى ذلك يقول الإمام على : « من لم يحمد صاحبه على حسن النية لم يشكرك على جميل العطية » . ويقول كذلك : « أحسن العفو ، فإن العفو مع العدل أشد من الضرب لمن كان له عقل » . ويقول : « وأحسنوا صحبة النعم ، فإنها تزول وتشهد على على صاحبها بما عمل فيها(٨) » . وأحسن بمعنى كمل كقوله صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

ومادة « الجمال » مرتبطة كذلك بالأخلاق ارتباطاً وثيقاً . فكما أن « جمل » جمالا تؤدى معنى أنه حسن خلقه . ويقال : أجمل فى الطلب ، أى اتئد واعتدل . وفى الحديث : « أجملوا فى طلب الرزق ، فإن كلا ميسر لما خلق له » . ويقال : أجمل الصنيعة أى حسنها وكثرها . ويقول الشاعر العربى :

وإنا لفى زمن ترك القبيح به
من أكثر الناس إحسان وإجمال

والجميل بمعنى الخير والمعروف . فيقال : أسدى إليه جميلا ، أى معروفاً وإحساناً . والمجاملة هى التلطف فى المعاملة ؛ فيقال : فلان جامل فلاناً ، أى عامل بالجميل وأحسن عشرته . والتجمل بمعنى تكلف الجمال والظهور بما يجمل ويليق ،

---

(٦) ابن عبد ربه : « العقد الفريد » ١٣٢١ هـ ، جـ ١ ط ٨ .
(٧) على ابن أبى طالب : شعره وحكمه . تصنيف أحمد تيمور باشا (القاهرة ١٩٥٨) ص٧٣ .
(٨) (سجع الحمام فى حكم الإمام . القاهرة ١٩٦٧)

فيقال: تجمل فلان بالصبر. ويقول «المتنبي»:

خليلك أنت لا من قلت خلى
وإن كثر التجمل والكلام

والجميل يقال على الصفات الحسنة. وفى هذا المعنى يقول على بن أبى طالب: «من مدحك بما ليس فيه من الجميل وهو راض عنك، ذمك بما ليس فيك من القبيح وهو ساخط عليك».
ويرى الفارابى أن للنفس صحة ومرضاً. فصحتها فى أن تكون هيئاتها وهيئات أجزائها هيئات تفعل بها أبدا الخيرات والحسنات والأفعال الجميلة، ومرضها أن تكون هيئاتها وهيئات أجزائها هيئات تفعل بها أبدا الشرور والسيئات والأفعال القبيحة»(٩).

ولفظ الجمال، كما يقول الغزالى، قد يستعار فيقال إن فلانا جميل، ولا يقصد به الصورة إنما يقصد به «أنه جميل الأخلاق، محمود الصفات، حسن السيرة، حتى يحب الرجل بهذه الصفات الباطنة إستحسانا لها كما تحب الصورة الظاهرة».

ويرى الغزالى أن الجمال ظاهر وباطن. فهو «إن كان يتناسب الخلقة وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر، وإن الجمال بالجلال والعظمة وعلو الرقبة وحسن الصفات والأخلاق وإرادة الخيرات لكافة الخلق وإفاضتها عليهم على الدوام إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب»(١٠)

وفى هذا المعنى نفسه يقول الإمام على ابن أبى طالب: «جمال المرء وقارة»، و«جمال المرء فى الحلم»، و«جميل المقصود يدل على طهارة المولد»(١١).

ويرى أغلب الباحثين من الأخلاقيين أن الجمال مركوز فى نفس الإنسان. وفى ذلك يقول مسكويه: إن كل من له غريزة من العقل ونصيب من الإنسانية ففيه حركة إلى الفضائل وشوق إلى المحاسن، لا لشىء آخر أكثر من الفضائل والمحاسن التى يقتضيها العقل وتوجبها الإنسانية، وإن اقترن بذلك فى بعض الأوقات محبة الشكر وطلب السمعة والتماس أمور أخر. ولو أن محبة الشكر وما يتبعه أيضا جميل وفضيلة لما رغب فيه(١٢)..

* * *

ومفهوم الحسن والجمال – فى لغة القرآن – مفهوم ذو وشائج أخلاقية روحية قوية، والصفات الجوهرية للجمال فى تعاليم القرآن هى الانسجام والاعتدال والنظام والكمال والنبل والطهر والرفعة والتقوى، وجميعها قد جاوزت

---

(٩) الفارابى: فصول المدنى. نشر دنلوب ١٩٦١ ص ١٠٣.
(١٠) الغزالى – إحياء علوم الدين: ج ٢ ص ٢٦٧.
(١١) على ابن أبى طالب. تصنيف أحمد تيمور باشا ص ٣٨، ص ٦٤.
(١٢) أبو حيان التوحيدى ومسكويه: الهوامل والشوامل. (القاهرة ١٩٥١ ص ١٩٢.

نطاق المحسوسات إلى نطاق المعقولات والتصرفات والأفعال .

والقرآن عناية بالقيم الجمالية فى كل مايعرض له من مجالات : وفيه دعوة إلى توخى الجمال فى جميع جوانب الحياة الإنسانية :

فالأوصاف التى يوصف بها الله فى القرآن أوصاف أخلاقية على الأصالة : « له الأسماء الحسنى » : والله هو الرحمن الرحيم ، الغفور الودود ، السميع ، البصير ، العليم الحكيم ... والله هو مالك الجمال المطلق ، وهو مفيض الجمال على الكائنات ؛ « الله نور السماوات والأرض » (القرآن : ٢٤ : ٣٥)(١٣). وهذه الآية من أعمق الآيات وأبعدها دلالة : فالنور جمال ، كما أن الظلمة قبح ، كما فى الآية : « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة . مالهم من الله من عاصم . كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً » (١٠ : ٢٧) .

أما بالنسبة إلى الكون فإن الله لما كان هو مالك الجمال المطلق فقد خلق كل شىء فى العالم فى صورة الجمال : « الذى أحسن كل شىء خلقه » (٣٢ : ٧) . والخلق يشمل جميع الأشياء فى السماوات والأرض ، والأجرام السماوية التى تحيط بالأرض يقول القرآن فيها : « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين » (١٥:١٦).

ويقول : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة (٣٧:٦). ويؤكد القرآن وجود الجمال على الأرض متمثلا فى الحيوان والنبات إذ يقول : « والأنعام خلقها لكم ، فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » (١٦ : ٥ ، ٦) ويقول : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق مالا تعلمون » (١٦ : ٨) وفى جمال النبات يقول : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت »(١٠ : ٢٤). ويرى القرآن أن الحجارة عبارة عن الاتزان والانسجام ، فيقول : « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » . (١٥ : ١٩) .

أما الجنة والحياة الأخرى فيصفها القرآن بالحسن ، إذ يقول : « خالدين فيها ، حسنت مستقرا ومقاما » (٢٥ : ٧٦) : يقول : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » (٣٢ : ١٧) وواضح أن التعبير « بقرة الأعين » كناية عن المتعة الجمالية . ويقول القرآن أيضاً « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » (٧٥ : ٢٢) والنضرة فى الآيتين معناها الجمال والإشراق .

ويرى القرآن أن الكائنات البشرية جمالا ظاهراً وباطناً ، فهو يقول : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » (٩٥ : ٤) . و « فى أحسن تقويم » أى فى أجمل صورة وبنية . ويقول : « وصوركم فأحسن صوركم » (٤٠ : ٦٤) ؛

---

(١٣) انظر : محمد إقبال : « تجديد بناء الفكر الدينى فى الاسلام » (بالانجليزية) لندن ١٩٣٤ ص ٦٠ .

ويقول : « ونفس وما سواها » (٩١ : ٧) . و « سواها » : أى وهبها التناسب والنظام . وإذا عرفنا أن التناسب والاتساق صفتان جوهريتان للجمال ، فهذه الآية تشير إلى الجمال والباطن ، جمال الشخصية الإنسانية(١٤) .

وفى الآيات القرآنية التى أوردناها دلالة على أن بيان القرآن يشيد بالقيمة الجمالية ، فى كل مجال ، ويؤكد صفة الجمال فى الله وفى الكون وفى الإنسان

وإذا كان الأمر كذلك فهل فرض القرآن واجبات تتعلق بالجانب الجمالى من الحياة الإنسانية؟ والجواب على هذا السؤال صريح ، وهو أن القرآن يريد متبعية أن يتجملوا إيمانهم بأعمالهم وأن يجاهدوا أنفسهم لنيل الجزاء الحسن من الله؛ فهو يقول : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » (٤ : ١٢٥) ، ويقول : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » (١٠ : ٢٦) . و « الحسنى » كما رأينا ، هى العاقبة الحسنة ؛ أى الجنة ، أما « الزيادة » فقد قيل فى تفسيرها إنها النظر إلى وجه الله الكريم .

وفيما يتصل بالجمال فى السلوك نرى آيات القرآن داعية إلى توخى الجمال فى مخاطبة الناس : « وقولوا للناس حسنا » (٢ : ٨٣) وإلى مراعاة الجمال فى معاملة الوالدين : « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً » (٢٩ : ٨) . وإلى مراعاته فى الدعوة إلى الدين : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » (١٦ : ١٢٥) .

أما الحياة الدنيوية فقد دعا القرآن إلى تجميلها فقال : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٧ : ٣٢) . وأشار القرآن إلى العناية باللباس ، باعتبار أن من وظائفه تجميل الشخصية الإنسانية ، فقال : « يا بنى آدم ، قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ، ذلك خير » (٧ : ٢٦) وقوله يوارى سوءاتكم » يشير إلى استنكار القرآن أساليب العرى التى شاعت فى بعض المجتمعات البدائية والمعاصرة ، وكانت الأخيرة منها حصيلة للانحرافات السيكوجية والبدنية . وقد روى الترمذى أن النبى كان يقول كلما ارتدى لباساً جديداً : « الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى(١٥) وأصل اللباس فى رأى « وسترمارك » هو رغبة الرجال والنساء فى اكتساب الجاذبية المتممة لسمات الجمال . وكأن القرآن يؤكد عصر القداسة فى التجمل باللباس ، فتقول : « يابنى آدم : خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، إنه لايحب المسرفين » (٧ : ٣١) .

وخلاصة القول فى نظرة القرآن إلى الجمال

---

(١٤) انظر : محمد فضل الرحمن الأنصارى : « القانون الأخلاقى الاسلام وخلفيته الميتافيزيقية » (رسالة دكتوراة بالانجليزية لجامعة لاهور ، لم يطبع بعد) .

(١٥) الترمذى : « التاج الجامع للاصول » ، كتاب اللباس .

أنه يدعو دوما إلى تجميل الحياة الإنسانية فى جوانبها الحسية والعقلية والأخلاقية . ويروى عن النبى أنه قال : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء »(١٦) وقال : « إن الله جميل يحب الجمال (١٧) » . ونلاحظ هنا ما ذكرنا من قبل : وهو أن الإحسان ، بمعنى الإتقان ، صفة من صفات الجمال ، فى نظر الرسول .

* * *

ويبدو أن هذا التناظر الذى رأيناه فى القرآن بين وجهتى النظر الأخلاقية والجمالية تناظر تستلزمه طبيعة اللغة العربية : فلفظ « الحسن » فى العربية يعنى فى وقت واحد « الجمال » و « الخير » و « الذوق » ، كما أن لفظ « القبح » يعنى الدمامة والشر والسماجة . واستعمالات العربية نفسها تدل على هذا التناسب بين هذه المجالات الثلاثة : الحسن والخلق واللياقة . فاللغة الجارية تستعمل لفظ « الحسن » وصفاً للجميل والصائب والصالح فتقول : منظر حسن ، ورأى حسن ، وعمل حسن .

والإمام محمد عبده يعالج هذا المفهوم للحسن معالجة عصرية ، فيقرر أولاً « أننا نجد فى أنفسنا بالضرورة تمييزاً بين الجميل من الأشياء والقبيح منها » . ويبدو أن الفيلسوف المصرى يستعمل لفظ « الحسن » فى المعانى الثلاثة الرئيسية التى كان يستعمله فيها المتكلمون المتقدمون(١٨) . ولكنه يضيف إليها تحليلات سيكلوجية أدق وأحدث :

(ا) المعنى الأول للحسن هو الكمال ، والقبح هو النقص ، سواء فى الأمور الأخلاقية أو فى الأمور العقلية : « فالحسن فى المعقولات كالوجود الواجب والأرواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفية وتنبهر به بصائر لاحظيه » . ومن جهة أخرى هل فى الناس من ينكر القبح فى نقص العقل وسقوط الهمة وضعف العزيمة « ويكفى أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون فى إخفائها ، ويفخرون أحيانا بأنهم متصفون بأضدادها » .

(ب) والمعنى الثانى للحسن هو علاقة الملاءمة إما لطبيعتنا وإما للأغراض التى يستهدفها العقل . أما الملاءمة لطبيعتنا فهى ما يلذ لنا ؛ والتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى قلما يختلف عن التمييز عند الحيوانات الراقية فى سلسلة الوجود ، « اللهم إلا فى قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح » . وأما الملاءمة للأغراض التى يستهدفها العقل فهى النافع بمعناه الواسع . وحكم القيمة الذى يصدره الشخص تبعا للمنفعة هو عمل عقلى . وبقدر ما يرتقى الإنسان فى سلم الموجودات يكون إيثاره لما يقع على ما يلذ . « ويختص الانسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى إذا أخذ

(١٦) « مشكاة المصابيح » ، كتاب الصيد ، الفصل الأول ، ص ٣٥٧

(١٧) صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب الكبر

(١٨) الإيجى : « المواقف » ، استانبول ١٢٨٦ هـ — ص ٥٢٩ — ٥٣٥

من أكمل وجهاته » . وإذاً فنحن نصف بالحسن والجمال الأفعال التي يكون فيها منفعة للفرد أو للجماعة ، حتى ولو كانت هذه الأفعال تثير النفور أو الألم وقت حصولها . وفي جميع الحالات تجعل للمثابرة وبذل الجهود قيمة أعلى من إيثار العافية والراحة وقلة المبالاة .

ومن هنا نصف بالجمال النضال من أجل الوطن ، والتضحية في سبيل العلم ، والدفاع عن قضية نبيلة ، على الرغم من التضحيات أو الآلام التي تتطلبها معاناة مثل هذه الأعمال في أغلب الأحيان (١٩) .

(حـ) والمعنى الثالث للجميل والقبيح هو ما ينطبق على الممدوح والمذموم .

اتفقا ذهب الأشاعرة والمعتزلة إلى أن العقل يدرك الحسن بالمعنيين الأولين .

ولكن هذا المعنى الثالث موضع خلاف ظل قائما بين المتكلمين : فالأشاعرة يرون أنه ليس الحسن حسنا ولا القبيح قبيحا من ذاتهما ولا بصفات ملازمة للأشياء تجعلها تبدو خيراً أو شراً ، جميلة أو قبيحة ، بل إن الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه : فالشرع يضفي على الأفعال ما نضفها به من صفتي الحسن والقبح . وبناء على هذا يمكن أن نتصور انقلابا في قيم الأشياء إذا حلا للشارع أن يقلب أوضاع الأمور ومعايير الأحكام بحيث يصير الحسن قبيحا والقبيح حسنا ، كما في النسخ من الحرمة إلى الوجوب ، ومن الوجوب إلى الحرمة . وخالفهم المعتزلة في هذا ذاهبين إلى أن معيار الحسن والقبح هو العقل ، أو هو النور الفطري في الإنسان .

فلا عجب أن نرى الإمام محمد عبده يؤثر عن قصد وعن بينة أن ينضوي تحت لواء المعتزلة وغيرهم ممن ساورهم القلق على الحرية الإنسانية ذاهبين إلى أن التمييز بين الجمال والقبح أمر طبيعي يدركه الناس جميعا من غير حاجة إلى شرع أو عرف . ويضيف محمد عبده أن الإنسان يجد هذا التمييز في نفس وجدانه ، فإنه بما فطر عليه من حسن وعقل قادر على التمييز بين الحسن والقبح في جميع معانيهما ، دون انتظار لما يقضي به العرف أو يأمر به الشرع . وتعقل ذلك ميسور ، والشاهد عليه ما نراه في بعض أصناف الحيوان ، وما نشهده في أفاعيل غرار الصبيان قبل تعقل معنى الشر ، وكذلك ما وصل إلينا من تاريخ الانسان وما عرف عنه في جاهليته (٢٠) .

ونستطيع بهذا الصدد أن نلاحظ أن المناقشات التي أثارها المتكلمون الاسلاميون حول هذه المسألة لا تخلو من أن تكون قريبة من التمييز الذي أدخله « السفسطائيون » اليونان بين العدل العرفي والعدل الطبيعي ، وهو التمييز الذي اصطنعه بعد ذلك الرواقيون حين أكدوا أن العدل « فطري » وليس « عرفيا » .

* * *

(١٩) محمد عبده : « رسالة التوحيد » . الطبعة الخامسة . ص ٧٨

(٢٠) عثمان أمين : « رائد الفكر المصري » ط ٢ القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٣٣ — ١٣٨

وآراء محمد إقبال فى الجمال مرتبطة «أوثق ارتباط بفلسفته العامة ، وعلى الخصوص بذلك الجزء من فلسفته الذى يطلق عليه اسم «نظرية الذات» .

وقد كان لنظرية الذات هذه أثرها العميق فى تصور الفيلسوف الجمال : فقد رأى أن ذاتنا معيار القيم الإنسانية بوجه عام ، ومعيار الحسن والقبح بوجه خاص . فالجميل عنده هو ما تدركه الذات فى سموها واعتلائها ، والقبيح هو ماتدركه فى هبوطها وانحطاطها :

عالم الذات به علو وسفل
واعتراك القبح فيه والجمال
فى اعتلاء الذات مايبدو جميلا
وقبيح ما بدا فى الاستفال

ويرى محمد إقبال أن الفن ينبغى أن يصور لهيب الحياة الأبدى الذى لا ينقطع : فلا قيمة للفن الذى يخرج شراراً واهناً لا يلبث أن يخمد . وحياة الأمم تدوم بدوام إبداعها وإعجازها . فالفن الذى لا إبداع فيه ولا إعجاز عارية لاتدوم : إن كان نسيم الصباح المتمثل فى الشعر، واللحن المنبعث من الموسيقى يذبل أزهار الرياض ، ولا ينضرها فأى نسيم هو ؟ فإن لم تنفذ نظرات الفنان إلى سر الكون وحقائق الأشياء فما هى بمبدية ولا قيمة لها .

وقد كان إقبال من المعجبين بالقوة ، لا إعجاب نيتشة بها ، بل استجابة لدعوة الإسلام الذى يرى : أن «المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف» .

وكان لذلك أثره فى نظرة الفيلسوف المسلم إلى الجمال . كان يرى «أن الجلال يفوق الجمال ، بما يتجلى فيه من قوة ، وما يبعث فى النفوس من رهبة . لذلك كان يرى فى الشجاعة التى تتجلى فى ركوب الأخطار جلالا ، ويرى فى سجود الأفلاك للقوة روعة وبهاء . بل ذهب الشاعر إلى أنه هو لا يحب أن يعذب إلا بنار قوية تلتهب التهاباً فقال :

وأرى جمالا فى بهاء أن ترى
فى سجدة للقوة الأفلاك
ولنغمة من دون نار نفخة
ما الحسن إلا بالجلال يحاك
لا أرتضى نار الجزاء ولم تكن
وهاجة ولهيبها دراك

ومن أجل ذلك نراه لا يعجب بالنهر يساير الأرض ، بل يعجب بنافورة قوية تقذف الماء عاليا فى الهواء .

وخلاصة مذهب إقبال فى الفن الجميل أنه ينبغى أن يصور ذات الفنان : فالذات العاشقة ، المتحررة ، المقدرة نفسها ، تنطلق من قيود هذا العالم المتغير وتندرج فى سلك الخلود ، وتفلت من سلطان الجبر ، فيكون فيها حراً مثلها .

ويرى إقبال أن الفن الذى يعبر عن قوة الذات وحرقة الحياة ومعاناتها ، الفن الذى يفتح النفس والقلب ، ويبرىء من الخوف والنعم ، ويرفع روح الإنسان ومعنوياته ، هو فن

« حلال » . أما الفن الذى يضعف الذات ويميت القلب ، ولا يقبس من نار الحياة ، فهو فن « حرام » . وهذا يصدق على الشعر والموسيقى والغناء وسائر الفنون .

من أجل هذا كان إقبال ينفر من فنون الرخاوة والمذلة ، ويرى أن الشعر وكل فن أصيل ينبغى أن يكون فى حدة السيف ، ملائما لمعركة الحياة ، مهما تكن صورته : تلك هى النظرة الجوانية إلى الفن عند إقبال ، ولذلك أخذ الشاعر الفيلسوف يحذر المسلمين من الفنون « البرانية » المستعارة ، تلك التى تدعو إلى التطرية والاسترخاء ، والتى توقظ الجسم وتنيم الروح .

والفنان عند إقبال يسعى دائماً ، مسوقاً بما فى نفسه من شوق إلى الكمال وعشق للجمال ، إلى أن يخلق — فى ذاته وفى العالم من حوله — مثلا أعلى خالداً (٢١) .

* * *

وهكذا يتبين لنا من النظر فى مفهوم الحسن والجمال — فى الفكر الإسلامى — تدرج ألفاظ العربية من الحس الظاهر إلى المعنى الباطن ، ومن الصورة البرانية إلى الدلالة الجوانية . وخير ما نختتم به حديثنا عن الحسن والجمال ما يروى عن الإمام أبى حنيفة — رضى الله عنه — من أنه كان يوماً فى حلقة الدرس بين تلاميذه وكان من عادته أن يجلس بينهم جلسة « مريحة » باسطاً رجليه ، لأنه لم يكن يستطيع أن يثنيها من مرض أو من إعياء . فدخل عليه فى درسه ذات يوم رجل مهيب الطلعة ، أبيض اللحية ، كبير العمامة ، فضم أبو حنيفة رجليه حين وقع بصره عليه ، وواصل درسه لتلاميذه — وكان الدرس فى موعد صلاة الصبح . فما كان من الشيخ الوقور إلا أن قاطع أبا حنيفة سائلا : « ولكن ما العمل إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ » فكان جواب أبى حنيفة جواباً جوانياً حاسماً ، إذ قال : « العمل أن أبا حنيفة يبسط رجليه ويحمد الله » !

وحق لأبى حنيفة أن يحمد الله وقد وفق إلى أن التقدير الأخلاقى هو الأساس الصحيح للحكم الجمالى .

عثمان أمين
عضو المجمع

---

(٢١) عثمان أمين : « رواد الوعي الإنسانى فى الشرق الاسلامى » ، القاهرة ١٩٦١ ، ص١٤٢ — ١٤٤

العقاقير عند العرب

للدكتور عبد العظيم حفنى صابر

العقاقير ومفردها عَقّار – وهى كما وردت فى معاجم اللغة ، ما يتداوى به من النبات والشجر ، وفى الصحاح « العقاقير هى أصول الأدوية » . وقال ابن الهيثم : « العقار كل نبت ينبت مما فيه شفاء » .

ويقول البيرونى فى كتابه « الصيدنه » : « ومفردات الأدوية تسمى عقاقير جمع عَقّار وخاصة إذا كان نبتاً ، وأصله من السريانية ، ثم سوّى فيه فى الكتب ، أصل النبات وفرعه وأدخل فيه أيضا ما ليس بنبات » .

ولذا فمفهوم العقاقير عند علماء العرب كما تدل عليها كتبهم تشمل الأدوية المفردة الخام نباتية أو حيوانية أو معدنية . أما الكيمياويات الدوائية النقية فيخطىء من يطلق عليها عقاقير .

أما عن الأدوية ، فيقول البيرونى : « جميع ما يتناول بقصد أو بجهل فمنقسم فى أول الأمر إلى أطعمة وسموم تتوسطها الأدوية » ، ثم قال : « إن الأدوية واقعة فى البين لأنها بالإضافة إلى الأغذية مفسدة وإلى السموم مصلحة » . وأورد ابن الربن الطبرى عن جالينوس : « إن كل شىء يتربى به فهو غذاء وكل ما غذى به فهو حلو وكل شىء يغير الطبيعة فهو دواء » . أما المتعارف عليه الآن فى مدلول الأدوية ، أنها :

« مواد تستعمل لعلاج الإنسان والحيوان من الأمراض أو لتخفيف آلامها ، أو الوقاية منها أو أنها تستعمل فى الأغراض الصيدلية ومستحضراتها » :

والأدوية إما مفردة وإما مركبة .

والأدوية المفردة هى العقاقير وقد سماها كذلك ابن سينا وغيره بسائط (مفردها بسيط) أى الأدوية البسيطة وسماها الأوربيون : Simples أو Simple drugs ترجمة للعربية .

ولما كان العرب فى أول الأمر لا يعرفون من الطب إلا الطب التجريبى ، وهو ما كان باستعمال العقاقير فى معالجة الأمراض والجراح ؛ ومن هنا كان اهتمامهم بالعقاقير ودراستها ، وازداد ذلك وتوسع بتقدمهم فى العلم والمعرفة واتصالهم بالنساطرة والفرس والمسيحيين والهنود ، وما ترجموه من كتبهم وعرفوه عنهم ومن كتب اليونان . فانكبوا على دراسة الأدوية مفردة كانت أو مركبة ، وتعرفوا قواها ، ووضعوا مواصفاتها وتحققوا منها وازدادوا معرفة بمنافعها وفوائدها ، وأدخلوا فى مادتهم الطبية الكثير مما استحدث معرفته وما لم يكن معروفا لدى القدماء اليونانيين ، بل كان اهتمامهم بها لا يساويه ولا يعادله ما كان لأى من فروع الطب الأخرى . فقد

كانت دراسة الأدوية وبخاصة العقاقير هي حجر الأساس لدى كل مهتم بالطب والعلاج والمداواة. فلا نجد مؤلفاً من المؤلفات الطبية العربية إلا وأفرد فيه للأدوية قسم خاص تذكر فيه محلاة بأوصافها وفوائدها وقواها. فقد خصص مثلا ابن سينا فى قانونه الذى يشتمل على خمسة كتب اثنان منها هما الكتاب الثانى والخامس، للعقاقير والأدوية؛ وإن الرازى خصص لها الجزء العشرين من كتاب « الحاوى » كما نجد أجزاء خاصة كذلك فى كتاب « فردوس الحكمة » لابن ربن الطبرى. وفى كتاب « التيسير فى التدبير والمداواة » لابن زهر، الذى أورد كذلك فى نهايته وصايا وإرشادات فى تركيب الأدوية المركبة واستعمالاتها ووصفات من الأدوية المركبة التى أثبتها، وكذلك بيانا بتحضير الأشربة والمراهم والمعاجين. كما يمكن ذكر كتاب « الأقرباذين الكبير » لابن التلميذ وكتاب « كامل الصناعة الطبية أو الملكى » للمجوسى، وكتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » للزهراوى، الذى يشتمل على ٣٠ مقالة منها ٢٧ مقالة عن الأدوية. هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من المؤلفات خصصت جميعها للعقاقير والنباتات الطبية فقط، مثل « الجامع لصفات أشتات النبات » للإدريسى و « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » لابن البيطار، وكتاب « شرح أسماء العقاقير » لابن الميمون وكتاب « الأدوية المفردة » للغافقى وكتاب « الصيدنة » للبيرونى، وكتاب « منهاج الدكان ودستور الأعيان » لكوهين العطار، وغيرها وغيرها كثير وكثير.

العقاقير وانتقاؤها ومواصفاتها

كان العرب يتحققون من أي الأجزاء من النبات يكون العقار أفيد وأقوم وأفضل، وكذلك مواعيد جمعها من النبات، وجنيها أو قطفها منه، وطرق تجفيفها، وكيفية ادخارها (تخزينها) محتفظة بفوائدها وقوتها فى أثناء خزنها دون أن يتطرق إليها الفساد، ومعرفة علامات فسادها، وكذلك انتقاء أجودها، وفي أي المواطن تجود، ولقد أطنب فى هذا المجال الكثيرون، مثل ابن سينا، (القانون)؛ وابن ربن الطبرى (فردوس الحكمة) والمجوسى (الملكى) والبيرونى (الصيدنة)، وابن البيطار (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) وداود الأنطاكى (تذكرة أولى الألباب) وكوهين العطار (منهاج الدكان ودستور الأعيان، وغيرهم كثيرون. فابن سينا مثلا يذكر أن العقاقير النباتية منها أوراق ومنها زهر ومنها ثمار ومنها بزر ومنها أصول وقضبان، ومنها صموغ، ومنها جملة النبات (أى مايعرف الآن بالعشب)؛ وأن الأوراق يجب أن تجنى وتجفف بعد أخذها من الحجم الذى لها وبقائها على هيئتها قبل أن يتغير لونها وتنكسر قوتها فضلا عن أن تسقط وتنتشر. والزهر يجب أن يجنى بعد التفتح التام وقبل التذبل والسقوط؛ والثمار يجب أن تجنى بعد تمام إدراكها، وقبل استعدادها للسقوط؛ والبزور يجب أن تلتقط بعد أن يستحكم جرمها وتنفش عنها الفجاجة المائية؛ والقضبان (أى السيقان والأغصان) يجب أن تجنى وقد أدركت ولم تأخذ فى الذبول والتشنج (أى التقبض). أما المأخوذ بجملته (أى العشب) فيجب أن يؤخذ على غضاضته عند إدراك بزره. أما الصموغ (ويقصد بها جميع ماينتجه النبات أو يسيل منه، كالصمغ

والراتينج واليتوع والبلاسم إلخ) فيجب أن تجنى بعد الانعقاد قبل الجفاف المعد للانفراك .

ولقد عمّم كوهين العطار كل ذلك فى كتابه « منهاج الدكان ودستور الأعيان » فقال :

« لاتجنى العقاقير إلا بعد استحكام نضجها وإكمال إدراكها ، فإن الكاملة الإدراك فى مكانها مفيدة ، والفجة قليلة الإفادة » . كما ذكر أنه يجب تنظيف العقاقير بعد جنيها من طينها ثم تجفيفها أولا فى الشمس ، ولا يتم تجفيفها إلا فى الظل وبهذا تأمن من فسادها ، ولا تضعها قريبا من الشمس فيفسدها حر الهواء ، ولا فى أماكن رطبة أو قريبة من الماء فإنه يندبها ويفسدها بالتعفن . كما أنه قد خصص الباب الرابع والعشرين من الكتاب نفسه « فى كيفية اتخاذ الأدوية المفردة ، وفى أى زمان تجنى ، ومن أى مكان تجلب ، وكيف تخزن ، وأى الأوعية فيها تخزن ، وما يفسدها فيتقى ، وما يصلحها فيعتمد عليه ، وكيفية استدراك ما بدا فيه الفساد ، وما يعمل مع بعض الأدوية ليمتنع فسادها .

وكان العرب يدركون إدراكا تاما ما للبيئة التى ينمو فيها النبات ، والتربة التى ينبت عليها من أثر بيّن على القيمة العلاجية للعقار الذى ينتج منه ، ودرجة جودته وفعاليته ، فيقول ابن سينا مثلا : « إن المجتنى من أجزاء النبات فى صفاء الهواء أفضل من المجتنى فى حالة رطوبة الهواء وقرب العهد بالمطر ؛ والبرية كلها أقوى من البستانية (أى المنزرعة) وأصغر حجما ؛ والجبلية أقوى من البرية ؛ والتى يجانبها المروج ومشرقات الشمس أقوى من غيرها ؛ والذى أصاب جناه (أى الذى جمع فى الزمن المناسب) أقوى من الذى أخطأ زمانه ؛ وما يلتقط فى فى الصيف كان أقوى مما يلتقط فى الشتاء . كما ذكر مثلا أن الصبر السقطرى أى الذى من سقطرى أجود من العربى والحضرمى ، والراوند الصينى أجود من التركى ، وهكذا .

ويقول ابن ربن فى كتابه « فردوس الحكمة » : « رأينا دواء واحداً قد نفع قوما وأضر آخرين ، والعلة فى ذلك اختلاف مزاج العلل أو عفونة (عتق) الدواء وفساده أو لأنه من البلد الذى لايجود فيه مثل الهليلج الذى لايجود إلا ما كان من كابل ، والكمون من كرمان ، والصبر من سقطرى ، والصمغ من فارس ، والأفاويه من الهند وماشابه ذلك » . ويقول داود الأنطاكى فى كتابه « تذكرة أولى الألباب » وكذلك ابن سينا : « إن نبات اللبخ يقتل (أى أنه سام) فى فارس (أى الذى ينبت فى فارس) ويؤكل (أى عديم السمية) فى مصر (أى الذى ينمو فى مصر) .

كل هذه الإرشادات والملاحظات جديرة فعلا بالتنويه عنها إذ مازلنا إلى الآن نأخذ بها كما أثبتت الأبحاث الحديثة صحتها ودقتها ووجاهتها فى الحكم على درجة جودة العقار وقيمتـــه العلاجية وفعاليته .

ولما كانت النباتات الطبية هى مصدر العقاقير النباتية التى هى المحور الأساسى عند العرب فى دراسة الطب ، ومزاولة المهن الطبية ، وعلاج الأمراض ، فإنهم كانوا يولونها عناية خاصة بالدراسة والاهتمام ، لتعرفها ومعرفة أوصافها

والتأكد من حصولهم على العقار من مصدره الأصيل ، فلم يكتفوا بما كتبه عنها من سبقهم ، ولم يرتضوا بما سمعوه من الرواة ، بل كان الكثير من علمائهم يجوبون البلاد ويرتحلون إلى مناطق نموها ، فطافوا بجميع بلاد العرب من المحيط إلى الخليج بل إلى الهند والصين وإندونسيا وافريقيا وآسيا الصغرى وغيرها ، بحثا عن النباتات الطبية ومعرفة مواطنها الأصلية وأسمائها وليتعرفوها على طبيعتها فى مناطق نموها الأصلية، وكذلك ليتعرفوا ما يستعمله منها أهالى هذه المناطق ، فيحققوا ما كان معروفا لديهم وليضعوا الأوصاف والطباع للجديد منها الذى لم يسبق معرفته .

ولشدة عنايتهم بهذه الدراسات كانوا يسجلون لهذه النباتات من الأشكال والألوان وغير ذلك من الأوصاف والتحليات التى يشاهدونها مايحدد نوعها أو جنسها ، بل كثيرا ما كانوا يضعون لها الرسومات وأحيانايحلونها بألوانها الطبيعية . فنجد مثلا أن الغافقى قد ساح كثيراً فى إسبانيا وشمال أفريقيا وراء هذه الغاية ، فذكر فى كتابه « الأدوية المفردة » كل نبات وعقار بأسمائه العربية والبربرية واللاتينية مع أوصافه . كما أن ابن البيطار الذى ألف كتابين فى هذا المجال أهمهـــا كتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ذكر فيه المعلومات اليونانية والعربية فى علمى النبات والأقرباذين ، ولاسيما المعلومات التى اكتسبها بخبرته ومن أبحاثه وتجاربه الشخصية ورحلاته فى إسبانيا والمغرب وشمال إفريقيا ومصر وسوريا وآسيا الصغرى كما استشهد فى كتابه هذا بما ذكره أكثر من ١٥٠ مؤلفا وعالما غيره . أما أبو القاسم الزهراوى فقد خصص بابا فى كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » لتحضير العقاقير من النباتات والعناية بالاحتفاظ بالأجزاء المجففة ، كما ناقش استخلاص العصائر مثل الصبر وكذلك تحضير وتصفية الصموغ واللب من نباتات معينة . كما نص فيه عن مواطن النباتات حيث تنمو أو تستورد منها ، ووصف هذه النباتات وكيفية الحصول منها على الجزء أو الأجزاء التى تستعمل فى الطب وكذلك موعد جمعها وفصوله .

كما أن الشريف الإدريسى (١١٠٠ — ١١٦٦ م) قد طاف بمصر وآسيا الصغرى والقسطنطينية والأندلس وفرنسا وغيرها ووصف نباتات كل قطر (عن كتاب الأعلام لعباس بن ابراهيم) وكتابه « الجامع لصفات أشتات النبات » له أهمية خاصة . كما أن عبد اللطيف البغدادى قد امتاز فى وصف أعشاب مصر .

أما رشيد الدين المنصورى بن السورى (١١٧٧ — ١٢٤٣م) فكان يصطحب معه فى رحلاته مصوراً ومعه الأصباغ ويريه النبات فى موطنه - بعد التحقق منه - ويطلب إليه أن يرسمه بأجزائه فى جميع أطوار نموه بألوانه الطبيعية التى يظهر بها فى هذه الأطوار (عن ابن أبى أصيبعة)، ولذلك كان مؤلفه « الأدوية المفردة » مزينا برسومات للنباتات بألوانها الطبيعية ، والذى وصف فيه حوالى ٤٦٦ نباتا منها كثير لم يكن معروفا قبله . كما أن كتاب « الأعشاب » لأحمد الغافقى فيه حوالى ٣٨٠ رسما بالألوان لبعض النباتات والحيوان .

ولقد خصص ابن فضل الله العمرى الجزء

الثانى عشر من كتابه «مسالك الأبصار» الموجود فى مكتبة البلدية بالإسكندرية - للنباتات وفيه صور ملونة لأنواع مختلفة منها . ومن مشاهير العرب الذين اهتموا بالنباتات ولهم فيها مؤلفات تعتبر إلى الآن من المراجع القيمة جدا والمهمة لعلمائنا بالبحث والدراسة : أبو حنيفة الدينورى الذى ألف كتاب « النبات » ، وأبو العباس أحمد ابن الرومية (١١٧٠ — ١٢٢٩م) الملقب بالنباتى وكتابه « الرحلة » وصف فيها نباتات كثيرة وذكر أنواعها وضروبها وكان قد قام برحلة طويلة فى شمال إفريقيا وبلاد العرب وسوريا وما بين النهرين . وكذلك ابن العوام الذى ألف كتاب « الفلاحة » .

امتحان العقاقير وفحصها :

كان الصيادلة عند العرب يحرصون على جودة العقاقير ونقاوتها من الغش والتدليس ، ويفحصون ما يجلب لهم منها للتعرف عليها وكشف غشها كما تعلموه وتلقوه لينجوا من العقاب فقد كانت هناك رقابة مشددة عليهم من الحكومة يقوم بها المحتسب، يمثله فى كل مدينة كبيرة موظف (مفتش) يعتبر كبيرا للصيادلة فيها أو عميداً لهم يشرف على تنفيذ القوانين ومراقبة تحضير الأدوية ونقاوة العقاقير فى الصيدليات ويتأكد من سلامتها من الغش والفساد .

ومن الأمثلة الكثيرة الواردة وبخاصة فى «الحسبة عند الصيادلة» : الأفيون ، وقد كان يغش بالماميثا وعصارة الخس البرى والشحم والصمغ إلخ ، وكانوا يكشفون عن ذلك بإذابة الأفيون فى الماء فإن ظهرت رائحة كرائحة الزعفران كان مغشوشا، كما كانوا يحلونه بالماء ثم يصفونه فإن بقى فيه ثفل كان مغشوشا وإلا فهو خالص، ورائحة الخالص منه قوية جدا وفى طعمه مرارة، فإن كانت رائحته ضعيفة وهو خشن كان مغشوشا بعصارة الخس ، والذى هو مر صاف فى اللون ضعيف القوة كان مغشوشا بالصمغ وهكذا .

وكانت السنامكى تغش أحيانا بالعشرق الذى هو أقل منها مفعولا وكان يجلب من صعيد مصر فكانوا يميزون الأول بأن ورقته ملساء الطرفين ذات خضرة بها صفرة ، أما الثانى فطرف ورقته مدور ولونها شديد الخضرة .

تصنيف العقاقير

أورد العرب فى كتبهم عدداً كبيراً من العقاقير يبلغ فى كتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » لابن البيطار مثلا ما ينوف على ١٥٠٠ عقار ، منها ما كان منقولا عن اليونان ، ومنها ما أدخله العرب جديداً على مادتهم الطبية ؛ وكانت هذه العقاقير تذكر فى المؤلفات العربية ، إما مرتبة بأسمائها بحسب الحروف الأبجدية كما فى الكتاب الثانى من قانون ابن سينا وكتاب « الجامع لصفات أشتات النبات » للإدريسى ، وإما مرتبة بأسمائها بحسب حروف الهجاء أى حروف المعاجم كما فى كتاب « الصيدنه » للبيرونى ، وكتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » لابن البيطار ، وكتاب « الحاوى » للرازى ، وكتاب « النبات » للدينورى ، وكتاب « تذكرة أولى الألباب » لداود الأنطاكى . كما كانت العقاقير تصنف فى بعض الأحيان إلى مجموعات بحسب مفعولها وفوائدها ، فهذه أدوية مسهلة ، وهذه مقيئة ، وتلك مسكنة ، وهذه

مدرة للبول إلخ، كما فى كتاب «فردوس الحكمة» لابن ربن، وكتاب «الأدوية المفردة» لابن الصلت. أما المجوسى فقد نحا نحواً آخر، فقسم المفردات إلى مجموعات بحسب طبيعتها، ورتبها فى كل مجموعة بأسمائها مع نبذة مختصرة عن أجودها ومنافعه معنونة كما يأتى:

مجموعات المفردات النباتية: وتشمل مجموعات الحشائش وذكر منها ٨٩): البزور والحبوب (٩٠)، الأوراق (٣٨)، والأنوار (٣٤)، ثمر الشجر (٣٧)، الأصول (وأضاف إليها القشور) (٤٠)، الأدهان (٢٩، الصموغ (٢٤)، الطبائع والعصارات ٢٣):

مجموعات المفردات الحيوانية: تشمل مجموعات الأدماء (مفردها دم)، الألبان، الزبد، الإنفحات، البيض، الإفرازات، المرارات، الزبل الخ.

مجموعات المفردات المعدنية: وتشمل: مجموعات الأطيان (مفردها طين)، الحجارة، الملح، الأجساد.

التداوى بالعقاقير

لقد كان المأثور عند نطاسى العرب أنهم لا يرون التداوى بالأدوية ما أمكن بالأغذية أو ما يقرب منها، وإذا اضطر إلى الأدوية فلا يرون التداوى بالمركبة ما وجد سبيل إلى المفردة وإذا اضطر إلى المركب لم يكثروا التركيب بل يقتصرون على أقل ما يمكن.

فقد ذكر المجوسى فى كتابه «كامل الصناعة الطبية أو الملكى»: «إن أمكن أن تعالج العليل بالغذاء فلا تعطه شيئاً من الدواء، وإن أمكنك أن تعالج بدواء خفيف مفرد فلا تعالج بدواء قوي ولا دواء مركب، ولا تستعمل الأدوية الغريبة المجهولة». كما ذكر الرازى فى كتابه «الحاوى»: «إن استطاع الحكيم أن يعالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة»، وقال: «العمر قصير عن الوقوف على فعل كل نبات الأرض فعليك بالأشهر مما أجمع عليه، ودع الشاذ واقتصر على ما جرب».

وهذه نظريات عادلة ومبادئ علمية سليمة يأخذ بها الأطباء فى عهدنا الحديث، وينادون بها وبخاصة كبار العلماء منهم.

ولقد نوّه المجوسى وابن سينا وغيرهما بأن قوى الأدوية وتأثيرها تتوقف على طبائع الأبدان واختلاف حالاتها فى الصحة والمرض، وطبائع الأمراض واختلافها من شدة وضعف، وما يتبعها من أعراض، وأسنان الأبدان (عمرها) وأمزجتها، وأوقات السنة، وحالة الجو، والبلد الذى يسكنه المريض، وعاداته، ومهنته.

هذا ما قاله العرب القدامى وما كانوا يتبعونه فى علاج المرضى وهو أصدق وأعمق ما يكون وما زلنا نعمل به ونسير بهديه.

موارد العقاقير عند العرب

كانت العقاقير فى أيام العرب تجنى إما من النباتات البرية أى التى تنمو على سليقتها دون أية رعاية خاصـــة، وهى ما يسمونه فى مصر بالنباتات الشيطانية أو البرية؛ وإما من النباتات

التى تزرع لهذه الغاية وهى ماكانوا يسمونها بالنباتات البستانية . كما أنهم كانوا يجلبون العقاقير من مواطنها الأصلية أى حيث تنمو نباتاتها وذلك بطريق البر عبر آسيا وأفريقيا أو بطريق البحر ، إذ كانت لها تجارة واسعة عندهم . فهذه العقاقير من إسبانيا ، وهذه من شمال أفريقيا أو شرقها وتلك من بلاد فارس أو من الهند أو من الصين أو من بلاد شرق آسيا وبخاصة جزر الهند الشرقية .

تسمية العقاقير

كان العرب يسمون العقاقير بالأسماء الوطنية التى يطلقها عليها أهل بلادها مثل الراوند وهو اسمه فى الهند ؛ وإما يعربون تلك الأسماء بحيث تتفق فى نطقها والذوق العربى ، فلفظة كافور مثلا أصله كابور بالهندية ؛ وقنبيل أصلها كامبيلا فى الهند ، والأفسنتين هو من أبسنث اليونانية ؛ ودارصينى من الفارسية دارشين ؛ وخيار شنبر من الفارسية خيار جنبر ؛ وجزر فارسيته كزر ؛ وتنبول هندية ؛ وبنفسج من الفارسية بنفشة .

وإما بترجمة الأسماء الأجنبية إلى العربية مثل : جار النهر ترجمة فوطاموغيطن اليونانية (نهر - جار) كرفس جبلى ترجمة أوراساليون اليونانية (أورا = جبل ، ساليون = كرفس) بلوط الملك من الفارسية شاه بلوط ، وإما يضعون لها أسماء عربية خاصة كالتمر هندى (أى التمر الوارد من الهند) وجوزة الطيب (أى الجوز الذى يتطيب به) والجاوى (أى الوارد من جاوة) وهكذا .

هذا بالإضافة إلى الأسماء التى استعملوها عمن ترجموا أو نقلوا عنهم . وفى كثير من الأحيان كان العقار يعرف بأسماء عديدة . فقد كان كثير من المؤلفين العرب يذكر العقار بأسمائه المعروفة بالعربية واليونانية واللاطينيــة والبربرية والأندلسية والقوطية والفارسية والسريانية كلما أمكن ذلك ، فذكر الشريف الادريسى مثلا أن الدارصينى سماه ديوسقوريدس « قيامومن » ويسمى بالفارسية « دارجينى » وبالسريانيـة « مولون » ، وبالبربرية « أسطاخس » .

ما أدخله العرب من العقاقير فى المادة الطبية :

لقد أدخل العرب كثيراً جداً من الأدوية المفردة فى مادتهم الطبية ولم ينقلوها عمن أخذوا عنهم من اليونانيين والنساطرة . وأوردوا هذه المفردات فى كتبهم محلاة بأوصافها وقوة مفعولها ومنافعها وفوائدها فى العلاج .

ولكن كان ذلك إما لاتصالهم بالهنود وبلاد الشرق الأقصى ، وإما بتجوالهم فى البلاد عامة وبخاصة ماكانت لهم بها علاقات وتقصيهم فى أثناء تجوالهم عما كان يستعمله أهالى هذه البلاد من عقاقير كان يجهلها أهل العلم فى ذاك الزمان ، وإما لاكتشافهم الجديد من العقاقير .

وقد أورد الإدريسى فى كتابه : « الجامع لصفات أشتات النبات » كثيراً من العقاقير وذكر أن ديوسقوريدس « لم يذكرها (فى كتبه) أو أغفلها ، إما لأنه لم يبلغه علمها ولا سمع عنها أو كان ذلك ضنا منه أو تعمداً ، وإما لأن أكثر هذه الأدوية ليست من شىء من بلاده » .

كما أن ابن البيطار قد أورد فى كتابه « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » حوالى ٣٠٠ مفرد لم يذكرها ديوسقوريدس ولا المؤلفون قبله ، ومن هذه يمكن ذكر ما يأتى مع الأسماء العلمية للنباتات ، حسب تحقيقها الآن :

(انظر القائمة المرفقة)

ولقد كان العرب أول من حضّر حمض الكبريتيك ، وحمض النيتريك ، والماء الملكى والقلويات (إيدروكسيد الصوديوم وغيره) والسليمانى (كلوريد الزئبقيك) ويوديد الزئبق ، والأنتيمون ، والنشادر ، ونترات الفضة ، والراسب الأحمر ، والبورق ، وحمض الطرطير ، والكحول واستعملوها فى صناعاتهم وعلاجاتهم . ويلاحظ أن كثيراً من هذه الأسماء مازالت مستعملة باللغات الأوروبية بشكل يدل على أصلها العربى .

تحلية العقاقير: وقبل أن أنهى كلمتى أرجو أن نذكر النقاط التى كانوا يرونها أساسية فى مقالاتهم عن العقاقير . لو استعرضنا مؤلفات العرب وبخاصة ما كان منها مخصصاً للأدوية ، نجد أنهم حددوا عدة نقاط لاستيفاء كل ما يتعلق بالعقار من ذكر أوصافه ونعوته وقوته وفوائده ، بل إن داود الأنطاكى ذكر أن كل مفرد يحتاج للنقاط الآتية:

(١) ذكر أسمائه بالألسن المختلفة

(٢) ذكر ماهيته من لون ورائحة وطعم وتلزج وخشونة وملاسة وطول وقصر (٣) ذكر جيده ورديئه ليؤخذ أو يتجنب (٤) ذكر درجاته فى الكيفيات الأربع (حار - بارد - رطب - يابس) ليتبين الدخول به فى التراكيب . (٥) ذكر منافعه فى سائر أعضاء البدن (٦) كيفية التصرف به (٧) ذكر مضاره (٨) ذكر ما يصلحه (٩) ذكر المقدار المأخوذ منه مفرداً أو مركباً مطبوخاً أو منقعاً بجرمه (١٠) ذكر ما يقوم مقامه إذا فقد (١١) الزمان الذى يقطع فيه الدواء ويدخر (١٢) من أين يجلب الدواء إذ يترتب على ذلك فوائد مهمة فى العلاج ، فقد قال أبقراط : « عالجوا كل مريض بعقاقير أرضه فإنه أجلب لصحته »

وهذا أتم وأوفى ما يحلى به العقار إذ ليس هناك ما يزاد على هذه النقاط حتى فى عصرنا الحاضر ، اللهم إلا التعمق فى كل منها بحسب وسائل تقدمنا فى العلوم وفى طرق البحث واستعمال الميكروسكوب بأنواعه المختلفة والمتقدمة وكذلك الأجهزة العلمية الحديثة ، وذكر المحتويات الفعالة والتشخيصية للعقار .

* * *

أزادرخت	Melia azadirachta
الأملج	Phyllanthus (Myrobolan) emblica
أمير باريس	Berberis sp
بل = قثاء هندى	Aegles marmelos
بليلج	Terminalia bellerica
بهراج = بلخينة	Salsola rosmarinifolia
بيش	Aconitum napellus or A. ferox
تانبول = تامول	Piper betel
تمر هندى	Tamarindus indica
تربد	Ipomoeia turpethum
جدوار	Amomum zedcaria
جلبان	Lathyrus sativa
جوز طيب - جوز بوا	Myristica fragrans

Datura metel	جوز ماثل
Cyperus aesculentus	حب الزلم . . حب العزيز
Ipomoea hederacea	حب النيل — قرطم هندى
Alpinia galanga	خلنجان
Cassia fistula	خيار شنبر
Croton tiglium	خروع صينى — دند
Calamus draco	دم الأخوين
Jatropha curcas	دند برى
Zingiber zerumbet	زرنباد
Cassia acutifolia	سنا (مكى)
Santalum album	صندل
Piper nigrum	فلفل أسود
Areca catechu (nut)	فوفل
Cakile maritima	قاقلى
Eugenia caryophyllata	قرنفل
Mellotus philippinensis (Kamala)	قنبيل
Piper cubeba	كبابة
Cinnamomum camphora (Camphor)	كافور
Curcuma domestica	كركم
Pandanus odoratissimus	كاذى
Citrus medica	ليمون
Anamirta paniculata	ما هى زهرة (سم السمك)
Prunus mahleb	محلب
Salvadora persica	مسواك (أراك)
Glossestemon burguieri	مغات
Corchorus olitorius	ملخية
Manna	منّ
Cocos nucifera	نارجيل
Citrus aurantium var amara	نارنج
Melilotus officinalis or Medicago ciliaris	نفل
Flemingia congesta	ورس
Jasminum sp.	ياسمين
Civette	زباد
Ambergris	عنبر
Muskus	مسك
Sugar	سكّر
Chalk	طباشير
Cinnabar	زنجفر
Bezoar stone	باد زهر - با زهر
Ruby	ياقوت
Amethyst	زمرد
Peridot = Chrysolite	زبرجد
Coral	بسذ - مرجان
Limestone	حجر النار — حجر النورة

التاريخ للعربية

أهميته ودراساته ومناهجه

للدكتور محمد سالم الجرح

١ ـ نظرة تمهيدية :

إن أى مقارنة مهما كانت عابرة أو سريعة، يجريها دارس يدرك قدراً كافياً من طبيعة اللغات، وظروف تطورها، بين لغتنا العربية المجيدة ، وأى لغة إنسانية أخرى، قديمة أو حديثة، راقية، ـ كما يقولون ـ أو بدائية ، داخل الأسرة السامية التى تنتمى إليها لغتنا العربية أو خارجها ـ تنتهى دائماً إلى اقتناع هذا الدارس الذى يقوم بتلك المقارنة بأن للغة العربية من صفات التميز ، وأوضاع التفرد ، ما يكاد يجعلها وحدها نوعا قائماً بذاته بين اللغات ، يختلف عنها جميعا فى العديد من النواحى ، والكثير من الأحوال.

فلغتنا العربية المجيدة تتفق مع اللغات الكلاسيكية القديمة كاليونانية واللاتينية ، بل والسنسكريتية ، فى العراقة والقدم ، وقد أثبت ذلك ، بمنطقه المفحم ، النابغة الراحل المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه ، « الثقافة العربية أسبق من الثقافتين اليونانية والعبرية » الذى استفتح به السلسلة الشهيرة للمكتبة الثقافية التى تصدرها وزارة الثقافة المصرية . ونحن هنا نزيد ما قاله الأستاذ العقاد إيضاحا ، فنقرر أن وضع اللغة العربية كلغة مركزية داخل الأسرة السامية ، أقرب فى شئون تصريفها ، ونهج اشتقاقها إلى اللغة السامية الأم يؤكد قدمها على اللغات الأكادية والبابلية والأشورية التى جاءت منها نصوص أدبية ، وكتب تشريع ، وملاحم وأشعار وترانيم دينية، ترجع إلى ما قبل الألف الثالثة السابقة على ميلاد السيد المسيح عليه الصلاة والسلام. ومعنى ذلك أن لغتنا العربية المجيدة كانت تستعمل على الصورة التى تعتبر لغة الشعر الجاهلى، ولغة القرآن الكريم، امتداداً لها، وتطوراً عنها ، قبل الألف الرابعة السابقة على الميلاد ـ حين انسلخت اللغات الأكادية والبابلية والأشوريه عنها ـ وبدأت تخضع لدوافع تطورية عنيفة فى بيئتها الجديدة فى العراق القديم، بل إننا بهذا الاعتبار نستطيع أن نقول إن اللغات الأكادية والبابلية والأشورية ليست إلا لهجات عربية قديمة نزحت من وطنها الأصلى القديم فى الجزيرة العربية إلى بيئات جديدة فى أرض الرافدين ، وتعرضت لألوان من الصراع اللغوى

مع لغة كالسومرية لا تنتمى إلى الأسرة العربية أو السامية، وآل بها هذا الصراع — مع عوامل التطور الأخرى — إلى أن تختلف تلك اللغات عن الوضع الذى كانت عليه فى الوطن الأصلى الأول.

ومعنى ذلك أن تاريخ اللغة العربية يرجع إلى الوراء ألوفا من السنين قبل أن تكتب بها قصائد الشعر الجاهلى القديم، ويوحى بها القرآن الكريم، وتحرر بها ذخائر الأدب والمعرفة الإنسانية على مختلف فروعها وأشكالها، وتترجم إليها كنوز اللغات الأخرى على تنوع فنونها وألوانها. وهكذا كله يؤكد شبه اللغة العربية المجيدة للغات الكلاسكية المعروفة فى العراقة والقدم، وفى سعة التراث الأدبى المتوارث وثرائه، بل إن العربية لتفوق اللغات الكلاسيكية الأخرى فى هذا المجال.

وبينما تتشابه اللغة العربية مع اللغات الكلاسيكية القديمة كاليونانية واللاتينية فإنها فى ذات الوقت تتشابه مع اللغات المعاصرة الحديثة كاللغة الإنجليزية، أو الفرنسية، أو الألمانية، أو الروسية. فاللغة العربية كهؤلاء جميعا، لغة حضارة حية معاصرة، وأدب نشيط متجدد، فهى ما تزال مستعملة مثلما تستعمل هذه اللغات جميعا، فى التأليف الأدبى، والبحث العلمى، والجهود الإعلامية، والبيانات السياسية والنشرات العسكرية، والحوار القضائى .. إلخ جوانب استعمال اللغات الأدبية المعاصرة؛ مشافهة أو كتابة، ارتجالا أو تأليفا، فى الجوانب التطبيقية العملية للحياة، أو النواحى الفلسفية النظرية منها. وهكذا نستطيع أن نصف لغتنا العربية المجيدة، بأنها قديمة حديثة، أو كلاسيكية ومعاصرة، فى نفس الوقت والآن.

وليس من هذا الجانب وحده تتفرد اللغة العربية بين اللغات حتى لتكاد توصف بالشىء وضده، والنعت ونقيضه. فإنها - حتى فى داخل الأسرة السامية ذاتها - كثيرا ما يصدر عليها من الأوصاف والنعوت ما يبدو متضاربا متناقضا. فمن المألوف أن تستمع إلى علماء المقارنات السامية وهم يقررون «أن اللغة العربية هى أم اللغات السامية جميعا، أو أقرب هذه اللغات إلى الأم المفقودة، وأنها بهذه المكانة أكثر اللغات السامية حرصا على القديم، ومحافظة على الملامح اللغوية الأولية» - ومثل هذا الكلام يؤكد الطبيعة المحافظة أو البدائية للغة العربية. ولكن علماء المقارنات السامية أنفسهم كثيرا ما يرددون أن «اللغة العربية هى أوسع اللغات السامية على الإطلاق فى ثروتها من الألفاظ والمفردات، كما أنها أقدرها على التعبير المجرد، وأسلسها للأديب والشاعر، وأكثرها تطورا فى فنون الأدب، وبراعة فى الأساليب» - ومثل هذا يؤكد تطور اللغة العربية وارتقاءها وازدهارها بين أخواتها - أو بناتها! - من سائر اللغات السامية الأخرى. فهل اللغة العربية بدائية محافظة على القديم، أو هى متطورة قطعت من مراحل النضج والارتقاء، والتطور والازدهار، ما لم تبلغه واحدة من اللغات السامية الأخرى؟ إن مثل هذا التعارض فى وصف العربية، وما يبدو من أنه تناقض فيما يقال عن أحوالها، قد حير

الكثيرين ، حتى العلماء المتخصصين إلى حد أننا نجد عالمة متخصصة لامعة كالدكتورة عائشة عبد الرحمن تنعى على علماء الساميات (ومن بينهم إسرائيل ولفنسون) محاولاتهم ربط العربية باللغات السامية ، على نحو قد يوحى بجمود العربية أو بدائيتها بين هذه اللغات ، مع أن العربية مشهود لها بالازدهار الأدبى بين هذه اللغات نفسها . ولذلك تدعو الدكتورة عائشة عبد الرحمن فى كتابها الذى ظهر مؤخرا بعنوان « لغتنا والحياة » إلى الإعراض عن كل ما يقوله علماء الساميات من ربط بين اللغة العربية وبين هذه المجموعة من اللغات .

ولكن الأمر أهون من أن تضيق به الدكتورة عائشة عبد الرحمن أو تنفر منه؛ فالتناقض فيما يصدر عن علماء اللغات السامية خاصا باللغة العربية شكلى أكثر منه حقيقيا ، ومظهرى أكثر منه جوهريا . ويكمن حل هذا التناقض المظهرى apparent paradox فى أن وصف اللغة العربية بالمحافظة والحرص على الأوضاع الأولية الأصلية يصدق عليها فى اعتبار، بينما يصدق عليها الوصف بالتقدم والازدهار والتطور والارتقاء فى اعتبار آخر . فالذى يدرس الأنماط الصرفية مثلا للغة العربية واللغات السامية ، يخرج باقتناع شديد ، وإيمان أكيد بأن اللغة العربية قد حافظت فى الأغلب على الأوضاع الأصيلة للظواهر اللغوية على هذا المستوى ، بينما سبقت اللغات السامية الأخرى عاميات اللغة العربية فى تطوير هذه الأنماط وتغييرها ، وإذا كنا لا نستطيع إنكار تطور العاميات المعاصرة للغة العربية عن هذا الوضع أو ذاك من أوضاع اللغة فى مراحلها القديمة الأقرب إلى الفصحى ، فإننا لا نستطيع بالتالى أن ننكر أن الصيغ الصرفية فى اللغات السامية الأخرى كالعبرية أو الآرامية ، التى تتشابه مع نظائرها فى عاميات اللغة العربية ، أو تتجاوزها فى سلم التطور والتغير ، يتحتم أن تكون أبعد من صيغ العربية الفصحى عن الوضع اللغوى الأولى أو الأصيل . فنمط صرفى مثل تفعل (tafa‘‘ala) حين تجده فى الفصحى على هذا الوضع دون تغيير كما فى تكسر (takassara) ثم تجده فى عامية كالمصرية مثلا متغيراً عن ذلك كما فى قولنا : اتكسّر (?ikassar) أو حتى — اكّسّر (?ikkassar) نجزم أن وضعه فى الفصحى هو الأصل أو هو الأقرب إلى الأصل من وضعه فى العاميه المصرية ، وإذا تشابه الوضع فى لغة سامية كالعبرية أو الآرامية مع الوضع فى العامية، أو جاوزه فى التغير ، ونواحى الاختلاف ، استطعنا أن نجزم كذلك بأن هذا النمط فى العربية الفصحى وهو تفعل أكثر محافظة على الأصل من نظيره العبرى : (hitthpa‘‘ēl) ونظيره الآرامى : (?ippa‘‘al) مثلا وهكذا نقبل - دون تردد - ما يقال من أن لغتنا العربية الجيدة هى أكثر اللغات السامية محافظة على الأوضاع اللغوية الأصيلة

ولكن النظرة السريعة إلى محيط الثروة اللفظية، وإلى الأنماط الأدبية التى تحوزها اللغة العربية ، تؤكد طبيعة الارتقاء التطورى ، والازدهار الأدبى لهذه اللغة الجيدة عن سائر أخواتها الساميات . وهكذا يصدق أيضاً الشق الثانى من وصف اللغة العربية بالازدهار والارتقاء

ويصبح حل هذا التناقض المظهرى فى وصف اللغة العربية منحصراً (فى رأينا) فى إضافة يسيرة، لكنها جوهرية على كل من شقى الوصف، بحيث نقول : إن اللغة العربية هى — لغويا — أكثر اللغات السامية محافظة على الأوضاع الأولى، وإن كانت — أدبياً — أكثرها تقدماً وارتقاء.

ونستطيع أن نضيف الكثير من هذه الأوصاف المزدوجة — التى قد تبدو متناقضة — على اللغة العربية : فهى لغة كلاسيكية كاللاتينية، وهى فى الوقت نفسه لغة معاصرة كالإنجليزية أو الفرنسية، وهى اللغة الأكثر محافظة بين اللغات السامية، وهى فى الوقت نفسه الأكثر ازدهاراً وارتقاء بينها جميعاً . وهى لغة قرآن ربانى منزل ودين سماوى موحى، وهى فى الوقت نفسه لغة حياة دنيوية عملية حافلة. بل إن هناك من يقول بأنها — فى صورتها الفصحى — لغة ميتة أو كالميتة لا يتم التمكن منها إلا بالتعلم والممارسة لسنوات عديدة، بينما نجدها — فى لهجاتها المعاصرة — لغة فطرية طبيعية، يتلقاها الطفل بالتلقائية عن أمه وأبيه، وأهله وسائر أفراد مجتمعه، وينمو ليستعملها بالسليقة أو الفطرة كما كان يستعمل العربى الأول صورة أخرى منها بالسليقة والفطرة أيضا.

وإدراك هذه الجوانب العديدة فى طبيعة اللغة العربية، وفهم ما قد يبدو فيها من تضارب أو تناقض، وتفسير أسباب تميز اللغة العربية على سائر اللغات الأخرى قديمها أو حديثها، ساميها أو آريها، يستلزم دراسة متعمقة واعية لتاريخ هذه اللغة المجيدة الطويل، وصراعها العنيد مع الأيام والسنين، ومع العديد من الأجناس واللغات، وفى الكثير من الأوطان، والمختلف من الحضارات.

فمن الواجب على من يعنى بدراسة العربية دراسة تتصف بأى قدر من العمق أن يتسلح بوعى مستوعب لتاريخها الطويل. وقد ظل « التأريخ » للعربية مجالا قليل الإغراء للباحثين والدارسين. حتى انعدم فيه الإنتاج أو قل. وقد آن الأوان لنستدرك هذا الجانب الهام. ونستكمل هذا النقص الواضح. ونقوم بالتأريخ للغتنا العربية المجيدة.

٢ — مجال التأريخ للعربية ومجالات أخرى للتاريخ الأدبى واللغوى :

وحين نقول إننا ينبغى أن نتدارس تاريخ لغتنا العربية المجيدة، أو نقوم من جديد بالتأريخ المنهجى الشامل لها، فإننا لا نقصد بذلك إلى التأريخ للأدب العربى، فقد كان ذلك ولا يزال موضع عناية فائقة، واهتمام شديد، تتدارسه كل المعاهد والجامعات، وتؤلف فيه الكتب بالعشرات بل بالمئات داخل العالم العربى وخارجه. فضلا عن أن تأريخ اللغة العربية يسبق المرحلة التى حفظ لنا التاريخ نماذج من إنتاجها الأدبى بقرون طوال. ومعنى هذا أن التأريخ للأدب العربى لا يمكن أن يغنى عن التأريخ للغة العربية.

وعلى الرغم من الأهمية الشديدة للتأريخ للأدب العربي، فليس هو ما يعنى به المتخصصون اللغويون في المقام الأول؛ لأن مثل هؤلاء المتخصصين اللغويين يحاولون فهم طبيعة لغتهم الفهم الحق، وتحليل ظواهرها على مختلف المستويات التحليل الصحيح. وهذا وذاك مما لا يغني فيه كثيرا ما قد كتب في الماضي أو عما يكتب في المستقبل عن تاريخ الأدب العربي. وهكذا يتضح لنا حتى بالنظرة السريعة، واللمحة العاجلة، أن تاريخ الأدب العربي قد يمثل سلاحا إضافيا لدارسي اللغة العربية، يستعمل جنبا إلى جنب مع سلاح «التأريخ للعربية»، ولكنه لا يمكن أن يحل محله، ولا يجوز أن يغني عنه.

وكذلك فإننا حين نقول «تاريخ العربية». - لا نقصد التأريخ لما كتب عن العربية من دراسات نحوية، أو ألف حولها من بحوث لغوية، أو عن تطور جمع مادتها في المعاجم والقواميس. لأن ذلك على الرغم مما قد يلقيه من أضواء على طبيعة اللغة، ويحققه من عرض المناهج التي اتبعت لفهم ظواهرها، وتحليل أبنيتها وتراكيبها، وشرح ألفاظها ومفرداتها، وهو ما لا يفعل التأريخ للأدب العربي منه شيئا - لا يزال قاصرا عن الذي نريده وندعو إليه من وجوب التأريخ للغة العربية ذاتها، تأريخا يتتبعها منذ مراحل نشأتها في البداية البعيدة الموغلة في القدم (التي يرتد من أجل استقصائها إلى الوراء حتى أبعد ما تمكننا الظروف من الرجوع إلى الوراء) ثم يواصل السير معها بعد مراحل نشأتها الأولى فيحاول التعرف على ظروف نموها وارتقائها، وتغيرها وتطورها، خلال ماضيها الطويل، بمنعطفاته العديدة، وخطوطه المتشابكة المعقدة وتحدياته الكثيرة المتلاحقة، حتى يبلغ معها المكانة التي استأهلت إعداد الدراسات النحوية لها، وكتابة البحوث اللغوية عنها.

ولكننا - خلافا لما تفعل الدراسات اللغوية والنحوية بصفة عامة - لا نقف في تأريخنا للعربية عند بلوغها هذا «الوضع» الذي استأهل تركيز الدراسات النحوية عليه، وبلوغها تلك المكانة التي استحقت تكريس البحوث اللغوية لها، والتآليف المعجمية عنها، وإنما نمضي معها بعد ذلك، متتبعين خطاها الواثقة عبر القرون، وثباتها العنيد أمام عوامل الدهر وتحديات الزمان حتى نبلغ معها إلى عصرنا الحاضر، ونرى كيف صارعت من أجل بقائها وازدهارها خلال ذلك الماضي الطويل من قبل، وكيف لا يزال هذا الصراع متصلا ومستمرا إلى الآن، وإلى ما بعد الآن. وكيف أن هذا الصراع في الماضي والحاضر يكون هينا لينا حينا، ومريرا عنيدا حينا آخر ... !

وهكذا فإننا في عنايتنا بالتأريخ للعربية، وتتبع خطاها الثابتة عبر القرون، لا نقف عند تصوير الوضع الحاضر ومشاكله، أو الموقف المعاصر وتحدياته. وإنما ننطلق إلى ما هو أبعد من ذلك فنستعين بما نكون قد عرفناه عن ماضي العربية الطويل، وما نكون قد أدركناه عن حاضرها المضطرب لنستشرف آفاق مستقبلها

القريب أو البعيد، ونتوقع ما عساها تقابله فى هذا المستقبل من أمجاد وانتصارات، أو تجابهه من عواصف وأعاصير - توقعا يكون محسوبا مدروسا، مبنيا على مقارنة النظائر الماضية من ناحية، واستنطاق الشواهد القائمة والمؤشرات الماثلة من الناحية الأخرى. بحيث لا تندفع فى التفاؤل بالنسبة لمستقبل العربية، فنغفل الحيطة والتخطيط لانطلاقها، أو نغرق فى التشاؤم فنرتمى فى أحضان الاستسلام والسلبية، ونترك لغتنا المجيدة - كما فعلنا مرارا من قبل - تمضى حين تمضى لا بجهدنا، ولكن على الرغم منا، وتواجه تحدياتها لا بتوجيهنا ولكن فى غفلة منها.

فإذا كان التأريخ للعربية - كما بينا - يعتنى بماضيها كله بحيث يحاول رد بداياتها الأولى إلى أبعد ما يمكن تتبع هذه البدايات، ثم يمضى معها بعد ذلك فى جميع أطوار نشأتها ونموها إلى أن يبلغ بها الحاضر المعقد المتشابك فيجتهد فى تحليله بأعمق ما يتأتى التحليل، ثم يتجه بعد ذلك - بالحساب المتزن والإدراك الواعى - إلى استشراف آفاق مستقبلها، لكى يخطط لدعم ما يتوقع فى هذا المستقبل من إيجابيات، ويتحوط لمقاومة ما يخشى فيه من سلبيات - نقول: إذا كان التأريخ للعربية هو ذلك كله، فإنه يكون بلا شك أمرا مختلفا أشد الاختلاف عن التأريخ لنحو اللغة العربية، أو للبحث اللغوى والنشاط المعجمى فيها.

إن التأريخ للعربية على النحو المنهجى الذى نريده، ونحاول التخطيط له الآن، لا ينبغى أن ينحصر فى التأريخ للأدب العربى (بالمعنى الواسع أو الضيق لكلمة الأدب)، ولا ينبغى أن ينحصر فى التأريخ لنحو اللغة العربية أو البحث اللغوى فيها. وتاريخ العربية لا ينحصر فى تاريخ مفرداتها أو المعجم التاريخى لمتنها. وتاريخ العربية ليس هو تاريخ لهجاتها وبيان الطرائق المختلفة للاستعمال اللغوى فى هذه اللهجات. وتاريخ العربية ليس تاريخ أهلها والذين نطقوها أو كتبوا بها أو ترجموا منها أو إليها. وتاريخ العربية ليس هو تاريخ المستوى الحضارى لشعوبها أو الحصيلة الفكرية لأبنائها. وتاريخ العربية لا ينبغى أن ينحصر فى تاريخ النصوص المقدسة - من قرآن كريم وحديث نبوى شريف - التى أوحيت بها، وتركت على الإنسانية خالد آثارها. وتاريخ العربية لا يعنى التتبع التاريخى لبعض ظواهر هذه اللغة أو أنماط الاستعمال فيها فحسب.

إن تاريخ العربية الذى نرجو له أن يكتب قد يلتقى فى جانب أو آخر مع بعض ذلك أو كله، ولا بد أنه سيستعين فى هذا المنحى أو ذاك من مناحيه بكل ذلك أو جله. ولكن التأريخ للعربية سيكون فى النهاية شيئا مختلفاً عن أى واحد من ذلك، ومختلفا عن كل ذلك. فكل هذه المجالات لا تمثل سوى دراسات جزئية متعددة ينبغى أن يستعين التأريخ للعربية بها جميعا، ويفيد منها جميعاً لكى يأتى كاملا شاملا، متصل العرى متتابع الحلقات.

* * *

٣ - بين التأريخ للعربية والتأريخ البحث اللغوى فيها

وفى جهدنا هذا الذى نحاول فيه إبراز أهمية التأريخ للغة العربية ذاتها ، ونحدد مناهجه ، ونميز بينه وبين مجالات التأريخ اللغوى أو الأدبى الأخرى، فإنه يهمنا هنا بصفة خاصة أن نميز تمييزا واضحا بين هذا الجهد المنهجى الهادف فى التأريخ للعربية من ناحية ، وبين محاولات التأريخ للنحو العربى ، والبحث اللغوى فى العربية من الناحية الأخرى . ويرجع هذا الحرص الشديد من جانبنا على التمييز الواضح بين هذين المجالين إلى عدد من الاعتبارات المنهجية التى نعرض أهمها فيما يلى :

أولا : ان الخلط قد تم فى الماضى بين « اللغة » من ناحية و « النحو » من الناحية الأخرى ، بصورة أدت إلى الكثير من المفاهيم الخاطئة ، والتصورات الواهمة بحيث صار الكثيرون منا يحسبون أن أى دعوة إلى تيسير النحو تعنى بالضرورة الدعوة إلى تغيير اللغة ، أو أن أى محاولة لإعادة تفسير أى ظاهرة نحوية فى اللغة ، إنما هى ثورة على اللغة نفسها . وأمثلة هذا الخلط فى حياتنا اللغوية كثيرة ، أوضح من أن تحتاج إلى إفاضة أو بيان . ولعل من أهم أسباب هذا الخلط فى لغتنا أننا نسمح بإطلاق كلمة « اللغة » مع إرادة « علم اللغة » أو « علوم اللغة » — على حذف المضاف والاكتفاء بالمضاف إليه - وهكذا أصبح الناس يقولون « اللغة » ويقصدون بذلك — حينا — وسيلتنا فى التعبير عن الأفكار والانفعالات ، أو ما ننطقه أو نكتبه فى شئون حياتنا ، أو لحظات إلهامنا ، من وجوه التخاطب ، أو فنون الأدب . ثم يقصدون بذلك نفسه - حينا آخر — « نحو اللغة » أو « علم اللغة » أو « معجم اللغة » . وقد أدى هذا الاشتراك اللفظى بين المدلولين إلى الخلط المعنوى والذهنى بينهما . وحسبنا هنا أن نشير إلى أن من أبرز مظاهر الخلط انتقال عدوى الحب والتقديس والغيرة من « اللغة » إلى « نحو اللغة » . حتى إن أستاذاً فى جامعاتنا حين يحاول أن ينبه طلابه إلى أن النحو العربى أغفل كذا ، أو أهمل النظر فى كذا ، يواجه بالطلاب ثائرين محتجين ، موضحين أن ذلك ما كان يمكن أن يفوت عبقرية اللغة العربية ، ولكن لعل كذا أو كذا — هو السبب فى إهمال اللغة المظهرى لهذه الظاهرة . ويفوت هؤلاء أنه شتان بين من ينقد النحو العربى ، ومن ينقد اللغة العربية . وأن الفرق هائل بين قولنا مثلا : « لقد أغفل نحاة العربية دراسة ظاهرة النبر » وبين قولنا : « إن اللغة العربية — لغة امرىء القيس ، والنابغة، ولغة القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولغة طوائف العرب فى كل زمان ومكان — تخلو من النبر » .

ولا يتوقف الخلط بين « اللغة » و « النحو » عند الطلاب والدارسين ، بل يمتد ليشمل الكثيرين من العلماء والمتخصصين فى القديم والحديث . فقد ادعى ابن فارس مثلا أن علم النحو فى اللغة العربية قديم كقدمها ، ومنزل كتنزيلها . ولم يشأ متخصص معاصر كالدكتور أحمد مختار عمر أن يرفض ذلك رفضاً صريحاً

— وهو ما ينبغى — فقال فى كتابه « البحث اللغوى عند العرب » (ص ٦٤) : « وفى رأينا أن النحو العربى قد نشأ فناً قبل أن يكون علماً، أى أن هذه الطرق الخاصة بالأداء فى اللغة العربية قد التزمت باضطراد فى تراكيبها، وأساليبها، ومرنت عليها ألسنة العرب، وتمكنت من طبائعهم، قبل أن توضع لها القواعد النحوية » . ونحن نرى فى مقال الدكتور مختار من التكلف والافتعال ما لا داعى له أبداً . فناطق اللغة الطبيعية — اللغة الأولى التى يولد الطفل بين أهلها، ويتلقاها عن أمه مع ارتضاع لبنها، والنمو على رعايتها وحنانها — يستعملها استعمالا فطرياً أو سليقياً، دون حاجة إلى معرفة أى نحو — كفن أو كعلم — بينما يبدأ الجهد النحوى — حين يبدأ على الإطلاق — عند ما يتم تحليل هذا النطق الفطرى، واستنباط القواعد التى يخضع لها .

ولأن الخلط بين « اللغة » و « النحو » كثيرا ما وقع فى القديم والحديث . إلى حد أن عالما بارزا كابن فارس — وهو من هو — قد أنزلق إليه فإننا نخشى أشد الخشية أن يتم خلط آخر بين « تاريخ اللغة » و « تاريخ النحو » ولذلك فإننا نحرص أشد الحرص على التمييز الواضح بين المجالين .

ثانياً : إن عناية الباحثين والدارسين والمؤلفين قد اتجهت اتجاها واضحا منذ القديم إلى التأريخ للنحو والدراسات اللغوية، وتمثل ذلك فى التراث الهائل الذى تحويه مكتبتنا الآن من كتب طبقات النحاة واللغويين . فضلا عما ورد من التأريخ للنحو، وأعلام رجاله، وأشهر كتبه فى الموسوعات ودوائر المعارف . وقد انتقلت هذه العناية بالتأريخ للنحو من القديم إلى الحديث فأصبحنا نرى تاريخ النحو، أو تاريخ البحث اللغوى، أو تاريخ المدارس النحوية . منهجا مقررا يدرس للطلاب فى كثير من الجامعات والمعاهد، كما أنجز فى هذا المجال العديد من البحوث والرسائل للدرجات العلمية العليا، وأصدرت المطابع فيه العشرات من الكتب والمؤلفات .

أما التأريخ للغة العربية على النحو الذى نتصوره ونخطط له فلم يحظ (على ما نعرف) باهتمام يذكر فى القديم . وحين بدأت همم العلماء تتجه إليه فى الحديث بادرهم وهم فى التصور، أو خطأ فى المنهج، أو عاجلهم الخلط بين اللغة والنحو، فلم يقدموا فى تاريخ اللغة العربية ما يروى ظمأ أو يشفى غليلا، ونحن نعرض هنا لأربع دراسات معاصرة فى تاريخ العربية لنرى كيف بعدت عن الهدف المقصود .

الدراسة الأولى : أخرجها الأب أنستاس مارى الكرملى بعنوان « نشوء اللغة ونموها واكتهالها » المطبعة العصرية بالقاهرة ١٩٣٨ — وقد يحسب من يطل على العنوان أن الكتاب هو غاية المريد فى التأريخ للعربية فى جميع مراحل حياتها، تأريخا منهجيا . ولكننا لا نلبث حين نتصفح الكتاب أن ندرك بعده عن المطلوب تماماً . ولنقرأ بعض ما كتبه المؤلف فى تصدير

كتابه لنعلم أنه يمضى فى واد ، وما يريده المؤرخ للعربية يقع فى واد آخر مختلف عنه كل الاختلاف. يقول المؤلف :

هذا بحث لغوى . جريت فيه على الأسلوب الحديث ، تمحيصا للحقيقة ، ودفاعا عن اللغة المضرية ، وإيضاحاً لما فيها من دقائق الأوضاع وخفايا الأسرار ، وغوامض الحروف وخصائصها ، وبدائع الصيغ وأوزانها ومافيها من مختلفات لغى القبائل متوقعاً به البلوغ إلى الحق ، غير مبتغ أجرا ولاشكورا ، إنما كل أمنيتى خدمة العربية وحمل أبنائها على السير فى هذا المنهج . . . وهكذا لايمثل الكتاب تأريخا منهجياً للغة العربية ، وإن مس بعض جوانب التطور اللغوى فيها كتكوين الجذور اللغوية وكيف بدأت ثنائية ثم ثلثت ، ثم ربعت ، أو خمست . وكالمقابلة بين الألفاظ العربية ونظائرها فى الأسرة السامية أو الهندو ـ أوربية ولايمس المؤلف مايمكن أن يسمى تأريخا للعربية إلا فى صفحة ١٠٦ من كتابه حين يتحدث فجأة عن بلوغ العربية عمر الكهولة ـ والغريب أنه يعنى به اكتمال قواها الداخلية والخارجية ــ وكأنما يرادف بين الاكتهال والاكتمال ـ فيقول : . . فقد مرت مئات من السنين ، وبلغ المتكلمون كل غاية ومدى ، حتى لم يبق لهم إلا أمر واحد ، هو الاحتفاظ بما وقع فى أيديهم ، وألا يساء التصرف فيه .

ويمضى المؤلف فى بيان ما اكتمل للعربية عند ذلك من أوزان ، وماظهر فيها من إبداع برزت به اللغات الأخرى حتى من بنات أمها كالعبرية والآرامية ونحن لانستطيع أن نعتبر مثل ذلك بحال تأريخا منهجياً للغة العربية ، رغم صراحة الصلة بين عنوان الكتاب وبين هذا المجال المنشود .

الدراسة الثانية : أخرجها فضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر . وعضو مجمعى القاهرة ودمشق ، فى كتاب اسماه « دراسات فى العربية وتاريخها ، طبعة ثانية ، مكتبة دار الفتح بدمشق ١٩٦٠ - وضم دراسة مستقلة أسماها المؤلف « فى حياة اللغة العربية » . والمطلع على العنوان العام لهذا الكتاب ، وعلى عنوان هذه الدراسة المستقلة قد يأمل أن يجد فيها تأريخا منهجيا للغة العربية ، ولكنه يرتد حين يقرأ صفحات الكتاب ــ على ثراء ما فيها ـ بقدر كبير من الشعور بالخيبة لعدم عثوره على ضالته المنشودة وهى التأريخ للعربية . إن أبحاث الكتاب تنحصر فى :القياس فى اللغة ــ حياة اللغة ــ الاستشهاد بالحديث التضمين ــ تيسير وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها ـ حول تبسيط قواعد النحو والصرف والرد عليها ـ الإمتاع بما يتوقف تأنيثه على السماع ، وهى فصول قد يتصل بعضها بتاريخ العربية ، ولكنها لايمكن أن تعتبر دراسة موضوعية منهجية لهذا المجال الهام من دراسة اللغة العربية .

أما الدراسة المستقلة وهى « حياة اللغة العربية » التى تبدأ وحدها ببسملة ومقدمة يقول يقول فيها المؤلف : « فالغرض إنما هو البحث

عن حال اللغة فى حد نفسها ، من جهة أطوارها وحكم وضعها ، واتساع نطاقها ، وارتقائها مع المدنية - فإنك لاتكاد تقع فى صفحاتها العديدة على ما يمكن أن تعتبره تأريخا للعربية إلا على سطور محدودة : تقع فى ص ١٢٠ حينما يقفز المؤلف فى تأريخه اللغة من عهد سام بن نوح إلى عصر عكاظ والنابغة الذبيانى فيما لا يبلغ سطور صفحة واحدة . ثم فى ص ١٥٥ حين يوضح المؤلف وجوه ارتقاء اللغة مع المدنية ، وتجاوبها مع التطورات الحضارية ، بوسائل محددة كاقتراض الألفاظ وتعريب المصطلحات ونحو ذلك .

وفيما عدا ذلك فإن كتاب أستاذنا الجليل الشيخ الخضر لا يقدم علاجا منهجياً للتأريخ للعربية ، ولا مادة كافية يستطيع أن يستعين بها من يهدف إلى القيام بمثل هذا العلاج .

الدراسة الثالثة : أخرجها المؤلف الجواد المرحوم جرجى زيدان بعنوان « اللغة كائن حى » الذى أصدرته دار الهلال بتقديم طويل للمرحوم الدكتور مراد كامل ، والواضح لمن يفحص هذه الدراسة — التى يتضح من عنوانها أنها تأريخ لنشأة اللغة ونموها وارتقائها ، كما يؤرخ للكائن الحى - أن تصور مؤلفها للتأريخ للغة ، أوسع مما شملته مادة هذه الدراسة .

فالتأريخ للغة فى نظر المرحوم جرجى زيدان — كما يقرر فى مقدمته لهذا الكتاب — لا تقتصر على تناول النظر فى ألفاظ اللغة وتراكيبها بعد تمام تكونها ، بحيث يبحث فيما طرأ عليها من التغيير بالتجدد أو الدثور ... مع قيام الأحوال التى دعت إلى دثور القديم وتولد الجديد — وإنما يتناول البحث فى تاريخ اللغة أيضا :

١ — النظر فى نشأتها منذ تكونها مع ما مر عليها من الأحوال قبل زمن التاريخ ، كتكون الأفعال والأسماء والحروف وتولد صيغ الاشتقاق وأساليب التعبير ونحو ذلك .

٢ — النظر فيما طرأ على اللغة من التأثيرات الخارجية بعد اختلاط أصحابها بالأمم الأخرى ، واكتسابها من لغاتهم ألفاظاً وتعبيرات جديدة ، كما يقتبس أهلها من عادات تلك الأمم ، وأخلاقهم وآدابهم ، وما يرافق ذلك من تنوع معانى الألفاظ بتنوع الأحوال ، مع حدوث صيغ جديدة ، وألفاظ جديدة .

٣ — النظر فى تاريخ ما حوته اللغة من المعارف والعلوم والآداب .

وجميل من جرجى زيدان أن يعترف — بعد بيان هذه الجوانب الأساسية التى ينبغى أن يغطيها أى تأريخ شامل للغة العربية — بأنه ليس فى وسعه فى ذلك الكتاب أن يدرس تاريخ العربية على هذا النحو من الاتساع والشمول . ولذلك فإنه سيقتصر على تأريخ العربية فى الدور الثانى من هذه الأدوار الثلاثة ، وهو الذى يعنى بالتأريخ لألفاظ العربية وتراكيبها بعد تكونها

وبالفعل جاء هذا الكتاب لجرجى زيدان ، محاولة للتأريخ للألفاظ العربية فى مختلف العصور ،

ابتداء من العصر الجاهلى، وبيان ما اقترضته العربية من غيرها من اللغات، سواء من داخل الأسرة السامية أو خارجها، وهكذا فإننا لا نستطيع اعتبار هذه الدراسة لجرجى زيدان تأريخا للغة العربية، بقدر ما هى محاولة لتتبع ظاهرة التعريب فى مختلف العصور. وحتى فى هذا المجال الضيق فإننا نأخذ على هذه الدراسة أمرين:

الاول: عدم إيضاح الوسيلة العلمية المقنعة فى التمييز بين ما يكون مشتركا من الألفاظ بين اللغة العربية وأخواتها السامية منذ الأصل والبداية من ناحية، وما تكون العربية قد اقترضته أو عربته من هذه اللغات من الناحية الأخرى. فمجرد التقارب اللفظى والمعنوى لا يكفى دليلا على الاقتراض.

الثانى: عدم إيضاح الوسيلة التاريخية المقنعة التى مكنت المؤلف من تحديد عصر دخول هذا اللفظ أو ذاك إلى العربية من لغة أخرى. فكيف استطاع المؤلف مثلا أن يحدد أن لفظاً بالذات قد عرب منذ الجاهلية، أو فى عصر لاحق من العصور الإسلامية حتى العصر الحديث؟

ولكننا مع ذلك نزكى هذه الدراسة للمرحوم جرجى زيدان. فهى محاولة جادة لتغطية جانب محدد من التأريخ للعربية، هو التأريخ لمفرداتها، والمؤلف بسعة أفقه يعرف أن مجال التأريخ العربية أوسع من هذا المجال. بل إنه ليبدو لنا أن تصور المؤلف لمجال تأريخ العربية أوسع من تصور الدكتور مراد كامل الذى قدم الكتاب، والذى ركز على الحاجة إلى المعجم التأريخى للغة، حتى لكأنه حسب أن التأريخ للغة ليس إلا وضع معجم تأريخى لألفاظها ؛ فيقول الدكتور مراد فى مقدمته (ص ١٧): «ومن هذا نرى أن النقص فى دراسة تاريخ اللغة العربية واضح، إذا وازنا بين ما تناولته كتب اللغة فى الواقع، وما كان ينبغى أن تتناوله... فمهمة العالم اللغوى أن يحصر الألفاظ ويجمعها، كل كلمة على حدة. عن أصلها واشتقاقها، وعن درجة قدمها، وعن وجودها فى اللغة العربية وحدها، أو اشتراكها فيها مع أخواتها السامية كلها أو بعضها، وعن مصدرها إذا كانت دخيلة أو مبتكرة أو مولدة.. ومن تغير شكلها أو معناها وبهذا يكون لكل كلمة فى اللغة تاريخ وترجمة لحياتها ويتكون المعجم من هذه الكلمات وتواريخها». ولا يشير الدكتور مراد كامل إلى أى جانب آخر من جوانب التاريخ للغة وهكذا تبقى هذه الدراسة لجرجى زيدان ومقدمتها لمراد كامل محدودة النفع. قليلة الجدوى لمن يريد أن يكتب تاريخاً شاملا منهجياً للغة العربية.

الدراسة الرابعة. أصدرها الدكتور محمود حجازى فى الكتاب رقم ١٩٧ من سلسلة المكتبة الثقافية التى تصدرها وزارة الثقافة المصرية بعنوان «اللغة العربية عبر القرون» — يناير ١٩٦٨ — وقد يخال من يهتم بدراسة تاريخ اللغة العربية حين يطالع عنوان هذا الكتاب أنه قد وقع على طلبته من العرض المنهجى التاريخى لأطوار العربية منذ مهدها الأول إلى عصورها الأدبية المشرقة، ثم إلى حاضرها المكين، بل ومستقبلها الزاهر (إن شاء الله). ولكن مرة أخرى يحس المعنىّ بالدراسة المنهجية لتاريخ العربية

بشيء من خيبة الأمل حين ينتهي من مطالعة صفحات هذا الكتيب . ولا بد أن نثني على صراحة المؤلف وصدقه حين يقول في مقدمته : « هذه محاولة متواضعة لرسم القسمات البارزة في تاريخ اللغة العربية في رحلتها الحافلة عبر القرون . وهذه الصفحات عرض موجز لهذا الموضوع الزاخر بالصعاب المنهجية والقضايا العلمية . وفيها ثغرات وجوانب قصور تعكس قلة الأبحاث الجزئية في الموضوعات قيد البحث . ولكنني آمل أن يجد القارئ الكريم فيهـــا ما ينشده من الفكرة الشاملة ، والعرض العلمي المبسط » .

والحق أن القارئ المنصف ، المعنى بتاريخ العربية قد يجد في الفصول العشرة التي يضمها هذا الكتيب حلقات من تاريخ العربية منثورة نثراً غير متصل أو مترابط . إن الكتاب لا يقدم عرضاً منهجيا متصلا لتاريخ العربية حدثت فيه بعض الثغرات ، وإنما هو حلقات منفصلة قد تضيق إلى حد ما من الاتساع المخيف للثغرات القائمة في تاريخ العربية ، ولكن تبقى تلك الثغرات واسعة رهيبة بين كل حلقة وأخرى . هذا فضلا عن أن الكتاب لم يبدأ بمقدمة توضح خطته ، ولم ينته بخاتمة تلخص نتائجه ، ولم يعط أي قوائم بمصادر يكون المؤلف قد استعان بها ليستطيع الدارسون من بعده استشارتها . وهذه كلها نواحي قصور لا يبررها صـــدور الكتاب في سلسلة للثقافة الشعبية ، لأن المفروض أن المنهجية في العرض تجعل المتابعة والفهم أكثر يسراً وأقل عناء . فكلما قلت خبرة القارئ وضاقت حدود معرفته وجب على المؤلف أن يبذل جهدا أكبر في الالتزام بالمنهجية ، والتتابع المنطقي ، والربط بين النتائج ومقدماتها . وليس العكس .

وعلى الرغم من بعد هذا الكتيب القيم عن تحقيق ما نبتغيه من تقديم دراسة منهجية متسقة ، متصلة الحلقات لتاريخ اللغة العربية فإنه يأتي أقرب النماذج التي عرضناها إلى تحقيق ما نريد ، وإن كان لا ينهض لسداد الحاجة القائمة .

* * *

ولعلنا بعد هـــذا العرض الهادئ لتلك الدراسات الحديثة في مجال التأريخ للعربية نلمس صدق ما قررناه من أن مجال التأريخ للغة العربية على خلاف مجال التأريخ للنحو العربي ، قد أهمل إهمالا يكاد يكون تاما في القديم ، كما اضطربت الدراسات المعدودة التي اتجهت إليه في الحديث ، فقصرت عن بلوغ الغاية وتحقيق المراد .

ثالثاً : إن مجال التأريخ للغة يختلف اختلافا كبيرا عن مجال التأريخ لنحوها أو للبحث اللغوي فيها ، فمجال التأريخ للغة أوسع زمانا ومكانا ، وأكثر بالبشر احتشادا من مجال التأريخ لنحوها بكثير .

أما في مجال الزمان فحسبنا أن ندرك أن التأريخ يحاول أن يرجع إلى الوراء حتى يصل إلى أقدم ناطق يمكن الرجوع إليه يكون قد استعمل هذه اللغة في صورتها الحالية أو في أي صورة يمكن أن تكون الصورة الحالية تطورا عنها ، وامتدادا لها . بينما لا يرجع تاريخ البحث اللغوي

إلا إلى أقدم «نحوى» أو «باحث لغوى» يكون قد جعل هذه اللغة مادة لدراسته وتحليله، فحاول أن يصف عناصرها، ويحلل تراكيبها، ويجمع مادتها، ويستقرئها ويستنبط قواعدها التى تخضع لها. والفرق الزمنى بين أقدم ناطق باللغة، وأول باحث لغوى لها، قد يكون مئات أو ألوفا من السنين. فنحن نعلم — أو ينبغى أن نعلم — أن اللغة قد تمضى عليها مراحل طويلة من الزمان، وتجتاز العديد المتتابع من القرون، يستعملها أهلها دون أن يفكر أحد فى تحليلها أو التقعيد لها. بل إن هناك فى العالم فى وقتنا الحاضر المئات من اللغات التى يستعملها أصحابها منذ كان لآبائهم وأجدادهم وجود على هذه الأرض وقد يرتد ذلك إلى عصور ضاربة فى أغوار ما قبل التاريخ — ولم تقم حتى الآن لهذه اللغات دراسة لغوية، ولم يوضع لها بعد أى نحو. ولعل مثل ذلك الواقع أن يوضح الفرق فى المجال الزمنى بين «التأريخ للغة» من ناحية، و «التأريخ لنحوها» من الناحية الأخرى.

إن تأريخنا للغة العربية يجب أن يبدأ من حيث نستطيع أن نضع يدنا على أول مجموعة بشرية تكون قد أقامت فى جزيرة العرب، ونطقت بلغة عربية، حتى ولو لم تكن هذه الجماعة قد عرفت بعد باسم العرب، وحتى ولو لم تكن اللغة التى كانوا ينطقونها قد أطلق عليها حينذاك اسم «العربية». ولا يتحتم أن تكون اللغة التى نطق بها أولئك القوم شديدة الشبه، أو قوية التماثل بالعربية التى عرفناها فى عصورها التاريخية المتأخرة. بل يكفى أن يكون بينهما من الشبه والتماثل ما يتيح للدارس والباحث أن يتلمس خطوط التطور بين المرحلتين السابقة واللاحقة، ووجوه العلائق بين الوضعين الأقدم والأحدث. وإذا ما قبلنا حقيقة أن التأريخ للعربية يبدأ — أو ينبغى أن يبدأ — من تلك البداية السحيقة، وأدركنا أن التأريخ للبحث اللغوى عند العرب لا يستطيع أن يبدأ إلا من العصر اللاحق لظهور الإسلام عندما دعت الظروف التاريخية المعروفة إلى ظهور رجال يهتمون بدراسة اللغة العربية والتقعيد لها، كعلىّ ابن أبى طالب (رضى الله عنه) وأبو الأسود الدؤلىّ — على احتمال — أو كالخليل وسيبويه ومعاصريهم وتلاميذهم من الباحثين والدارسين بقدر كبير من اليقين — فإننا نستطيع أن ندرك الفرق الشاسع فى المجال الزمنى بين التأريخ للغة من ناحية، والتأريخ لنحوها والبحث اللغوى فيها من الناحية الأخرى.

والفرق فى مجال المكان بين التأريخ للغة والتأريخ لنحوها لا يقل ضخامة أو اتساعا عن الفرق فى مجال الزمان. فالمؤرخ للغة لابد أن يمضى معها ويتتبع خطاها إلى أى مكان تكون قد بلغته، وأى رقعة حدث أن وصلتها، واستعملت فيها. فالمؤرخ المنهجى للغة لا يقنع بالسعى وراءها فى العواصم السياسية أو الثقافية، أو فى مراكز التدريس والبحث، أو فى مقارّ

الحكم والسلطان ، أو فى دواوين الإدارة ، أو أسواق التجارة ، أو أماكن التجمع الزراعى أو الصناعى ، فى هذا أو ذاك ، لأن المؤرخ للغة يعلم أن كل ناطق فطرى باللغة حجة فيها ، وأن عليه أن يقتفى آثار الناطقين بها جميعا حيث يوجدون ، وأينما يذهبون ، حتى فى الفيافى والصحراء والنجوع والكفور ، والقرى والدساكر ، بل وفى البر والبحر ، وفى القارة والجزيرة ــ بحيث لا يهمل مكانا استعملت فيه اللغة دون أن يغطيه، ولا يغفل رقعة دارت فيها دون أن يأخذها فى الاعتبار .

أما المؤرخ للبحث اللغوى فيحبس نشاطه اللغوى على مراكز التجمع الثقافى والإشعاع الفكرى ، والمؤسسات التربوية . فهو يتجاهل الملايين من الناطقين باللغة فى الألوف من البقاع والأماكن التى لم يظهر فيها عالم نحوى ، أو يبرز بين جنباتها باحث لغوى ، ليقصر نفسه على الآحاد من العلماء والباحثين الذين عنوا بدراسة نحو اللغة ، أو قاموا بالبحث اللغوى فيها . وهؤلاء عادة يستقرون فى العواصم الثقافية ، ويتركزون فى المؤسسات التربوية والتعليمية . ولذلك لا نعجب إذا وجدنا المؤرخين للنحو العربى يتتبعون أنشطة البحث اللغوى فى مراكز معدودة ، وعواصم محدودة . طالما أن الذى يحدث هو أن العالم اللغوى (مهما انتمى فى الأصل إلى قرية نائية أو بادية سحيقة) تحمله الرغبة فى نشر علمه ، ولقاء العدد الأكبر من تلاميذه ، وتحقيق ذاته ، وفى الحصول على الجزاء المادى والأدبى لجهوده إلى هجرة وطنه الأول ، وترك مسقط رأسه الأصيل ، والاستقرار فى حاضرة للعلم والمدارسة ومركز للإشعاع والتثقيف . ونظرة سريعة إلى واحد من أحدث كتب التأريخ للنحو العربى ككتاب الدكتور شوقى ضيف عن « المدارس النحوية » (دار المعارف بمصر ١٩٧٢) تؤكد صدق ما نقول . فهذا الكتاب الضافى يؤرخ للمدارس النحوية فى المراكز التالية : البصرة ـ الكوفة ـ بغداد ـ الأندلس (وبخاصة فى قرطبة) ـ مصر (وبخاصة فى القاهرة) . وهكذا فإن المجال المكانى للمؤرخ للنحو العربى قد لا يتجاوز عدداً محدوداً من الحواضر ، بينما يتحتم على مؤرخ اللغة أن يتتبعها فى كل بقعة استعملت فيها مهما كانت منعزلة أو موحشة ، وفى كل رقعة وصلت إليها مهما كانت بعيدة أو نائية .

يبقى علينا أن نسجل الفرق الشاسع فى العنصر البشرى الذى يتحتم على كل من مؤرخ اللغة ومؤرخ النحو ملاحظة نشاطه . وتسجيل إنتاجه . فالمؤرخ للغة يعنى بنشاط كل ناطق طبيعى لها منذ كانت ، إلى الآن ، سواء تمثل هذا النشاط فى حوار منطوق ، أو أثر مكتوب . إن على مؤرخ اللغة ببساطة أن يحاول التعرف على كيفية جريان اللغة على لسان كل ناطق طبيعى بها أو قلمه ، مهما كانت حرفته ، ودرجة ثقافته . وبيئته وعصره ، وعمره الزمنى ، ومستواه العقلى والاجتماعى ، ودينه ولونه . فكل واحد من ملايين الملايين الذين استعملوا اللغة على أنها

لغتهم الأم جدير - إذا ما توصلنا إلى كيفية استعماله للغة - أن يأخذ حظه من اهتمام من يؤرخ لتلك اللغة . إذ أن طريقة استعمال كل واحد من هؤلاء الملايين أو البلايين هى التى تحدد السمات العامة للغة التى يؤرخ لها ، والتى تميزها عن غيرها ؛ كما أنها هى تميز بين المختلف من لهجاتها ، وتبرز الصفات التى تحدد خطوط تطورها ، والأسباب التى تؤدى إلى تفاوت أنماطها ومستوياتها الأدبية .

بل إن المؤرخ للغة لا يكتفى بالاهتمام بالنشاط اللغوى المنطوق أو المكتوب لأبناء اللغة الطبيعيين ، فكثيراً ما يتجاوز اهتمامه ذلك إلى ملاحظة كيفية استعمال اللغة على لسان غير أبنائها ممن يتلقونها بالتعلم ، ويستعملونها كلغة ثانية أو ثالثة . وذلك لأن مثل هؤلاء قد يتركون آثارهم الباقية على اللغة مما لا يستطيع أن يتجاهله من يؤرخ لأحوال اللغة فى عصورها المختلفة ، ومراحلها المتتابعة .

وأبعد من هذا ، فإن على المؤرخ أن يلاحظ استعمال أبنائها لغيرها من اللغات ، فالكثير من خصائصها قد يتكشف فى تلك الحالات بصورة أجلى ، ويبرز على نسق أوضح ، وذلك عند مقارنة العسر أو اليسر الذى يلقاه أبناء اللغة التى تؤرخ لها عند استعمال لغة أخرى سواها ، أو محاولة لى لسانهم بنظام لغوى مخالف لها : فالواحد منا عندما يستعمل فى التفكير أداته اللغوية الطبيعية كاللغة العربية ، ثم يحاول التعبير بلغة مكتسبة كاللغة الإنجليزية ، فإن قدراً من الانحرافات فى استعماله للغة الإنجليزية يكون مرده إلى تفكيره بالعربية ، وقدراً آخر إلى العادات النطقية العربية التى ترسخت عنده وتمكنت منه . ودراسة هذه الانحرافات دراسة علمية تقود إلى إدراك أدق النواحى للخلاف بين اللغتين ، مما يعتبر جزءاً من تاريخهما معاً .

وهكذا يتسع ميدان العنصر البشرى أمام المؤرخ للغة اتساعا شديداً بحيث لا يستطيع المؤرخ أن يكتفى بمراقبة استعمال أبناء اللغة الطبيعيين لها ؛ بل تشمل ملاحظاته استعمال غير أبنائها الطبيعيين لها أيضا ، كما تشمل استعمال أبنائها الطبيعين لغيرها من اللغات .

فإذا نحن قارنا هذا بنشاط العنصر البشرى الذى تلزم ملاحظته فى مجال التأريخ للغة ضمر العدد إلى كسور ، وتضاءلت النسبة إلى جزء من الآلاف أو من الملايين . فالعنصر البشرى فى مجال مؤرخ البحث اللغوى مقصور على العلماء والباحثين الذين عنوا بدراسة اللغة ، والتقعيد لها ، حتى ولو لم يجيدوا نطقها ، أو يكونوا من أبنائها . ومثل هؤلاء فى تاريخ البحث اللغوى لأى لغة قد يتجاوزن العشرات أو المئات ، أو يبلغون الألوف ، ولكن من المستبعد جدا أن يعدوا بالملايين أو البلايين التى يمكن أن يبلغها العنصر البشرى الناطق باللغة ، والذى يتم أن يؤخذ فى الاعتبار عند التأريخ للغة على مر العصور .

كانت هذه هى الأسباب الثلاثة الرئيسية التى تدعونا إلى التمييز الواضح بين مجال التأريخ للغة

من ناحية ، ومجال التأريخ للبحث اللغوى فيهما من الناحية الأخرى.

٤ - لماذا نحتاج الى التاريخ للعربية ؟

لعله من الحق علينا أن نتساءل عن الدوافع إلى التأريخ للعربية ، ولعل من أقوى مبررات توجيه مثل هذا التساؤل ما يبدو من أن علماء العربية الأقدمين لم يوجهوه . أما لماذا لم يوجه علماؤنا الأقدمون مثل هذا التساؤل ولم يفكروا - كما نفعل نحن الآن - فى وجوب تسجيل تاريخ العربية ، فإننا نرى لذلك أسبابا ثلاثة رئيسة :

السبب الأول : هو الربط بين اللغة العربية المجيدة والقرآن الكريم، ثم التكريم والتقديس اللذان نالتهما العربية من جراء هذا الربط ، وكما تعمق الاعتقاد بأن القرآن الكريم هو كلام الله ، اشتد الإيمان بأن لغته (وهى اللغة العربية) إنما هى لغة السماء، اختص الله بها العرب ، ومنحها لهم ، وميزهم بها عن سائر شعوب الأرض ، فى جميع حقب التاريخ .

وما دامت العربية هى لغة القرآن ، ولغة السماء ، فكيف يتم التأريخ لها أو تتبع أطوارها ، أو بيان انشقاقها عن غيرها من أخواتها فى الأسرة السامية ، أو اكتشاف التطور الطبيعى فى ظواهرها ، والنمو التدريجى فى مادتها ومفرداتها؟ لقد أدى ارتباط اللغة العربية المجيدة بالقرآن الكريم إلى تصور أن اللغة العربية خلقت منذ البداية كاملة ، ثم منحتها السماء للعرب على هذا الوضع من الكمال قبيل الإسلام بفترة وجيزة من الوقت ، تهيؤا لنزول الوحى بها ، وصوغ القرآن الكريم فى كلماتها وأساليبها .

ثم لما صارت هذه اللغة التى اصطفتها العناية الإلهية لينزل بها القرآن لغة الشعب العربى ، وبدأت تتعرض بعد الإسلام لما تتعرض له سائر اللغات البشرية من التغير والتطور ، وبدأ الإحساس بالخوف أن يبعد بها ذلك التطور عن الوضع الذى كانت عليه حينما أوحى بها القرآن الكريم - رفض عشاق العربية ومحبوها ، وعلماؤها ودارسوها الاعتراف بأى من هذا التحريف أو التعديل ، أو قبول شىء من ذلك التغيير أو التبديل . وإنما أصروا على تجميد للغة العربية المجيدة على الوضع الذى نزل القرآن الكريم بها عليه ، والحال التى أهدتها السماء للعرب فيها . وما دامت العربية التى تحظى بالإجلال من الناس والاحترام هى تلك التى منحتها السماء للعرب قبيل الإسلام بما لا يزيد كثيرا عن قرن من الزمان ، والتى لم يمكن صونها على حالها بعد ظهور الإسلام بما لا يزيد كثيرا عن قرن من الزمان - فإنها لا تحتاج أى تأريخ يغطى حياتها ، ويتتبع أطوارها فى مثل هذا المدى القصير ، الذى لا يمكن أن يتسع لوقوع تطورات هائلة ، أو حدوث تغير كبير .

السبب الثانى : هو أن اتجاه الدراسات الأولى للغة كان تعليميا فى معظم الأحوال . والفائدة التعليمية أو التطبيقية التى ترتجى من التأريخ للغة تبدو ضئيلة أو منعدمة؛ إذ أن معرفة تاريخ اللغة لا يمكن أن يقوم للناطق بها لسانا ،

أو ييسر عليه حين استعمالها بيانا . وهذا عـلى خلاف دراسة نحو اللغة أو صرفها ، أو بلاغتها أو عروضها ، أو معجمها أو أدبها . ولقد يقال إن التأريخ لنحو اللغة حظى بالعناية والاهتمام منذ القديم على الرغم من ضآلة الغاية التعليمية فيه ولكننا نقول فى الرد على ذلك بأن النحو وجد أولا ليقيم اللسان ، وييسر التمكن من اللغة ، فلما تراكمت مادته ، وتكاثر علماؤه ، وتعددت كتبه وجدت الأجيال اللاحقة من ذلك تراثا ضخما تحوطه هالة كبيرة من التقدير والإجـلال . فاتخذت من ذلك التراث مادة لكتابة تاريخ النحو وطبقات النحاة . أما التأريخ للغة نفسها فقد انصرف عنه الأولون ؛ لأن اللغة لم يكن لها فى نظرهم بعد أى تاريخ ؛ ولأن تسجيل أى تاريخ لها ما كان يمكن أن يؤدى إلى غاية عملية أو يحقـق فائدة تعليمية . ثم انصرف عنه المتأخرون حتى عصرنا الحاضر ؛ لأن الأولين لم يتركوا لهم فيه تراثا ، أو يمهدوا لهم إليه طريقا

السبب الثالث : هو أن التصورات المتاحة لنا عن الظاهرة اللغوية ، والتى تحفزنا إلى التأريخ للغة ، لم تكن متاحة للأقدمين ، أو لم تتجه إليها فى معظم الأحوال أفكارهم . أو تنشغل بهـا عقولهم . فتصورنا مثلا عن انتماء اللغات الإنسانية إلى سلالات وأسر وفصائل ومجموعات أمر لم يتمثله الأقدمون على نحو ما نتمثله نحن الآن ، وكذلك فإن حتمية التطور اللغوى وضرورة تفتت اللغات إلى لهجات ، ثم تباعد اللهجات بالتدريج حتى يتعذر تبادل التفاهم بها

فتصبح لغات ، ثم تتعرض هذه اللغات مرة أخرى للتفتت إلى لهجات . . . وهكذا دواليك — أمر آخر لا نعتقد أن علماءنا الأقدمين قد أدركوه أو استوعبوه . وبالإضافة إلى هذا وذاك فإن مشاكل الصراع اللغوى بين العديد من اللغات ، وآثاره من الأطراف المشتركة فيه سواء خرجت منه ظافرة منصورة ، أو منهالكة مقهورة تمثل أمرا ثالثا نظن أن الأقدمين لم يتصوروا أبعاده أو يقدروا آماده .

وكل هذه الأمور ونحوها هى التى يستفز حسن إدراكها همة المؤرخ للغة ويجذب انتباهه وبدون الوعى الكامل لمثل هذه الموضوعات والمسائل لا يمكن أن يكتب للغة تاريخ موضوعى منهجى مقنع .

* * *

كانت هذه فى نظرنا هى الأسباب الثلاثة الرئيسية ، التى صرفت المتقدمين من علماء العربية والمتأخرين منهم عن التأريخ للعربيـة ، حتى مشارف نهضتنا الثقافية المعاصرة ، وينبغى أن يؤدى زوال تلك الأسباب إلى إزالة العقبات التى عوقت ظهور التأريخ المنهجى للغة العربية حتى الآن . وليس هناك من شك فى زوال الأسباب الثلاثة السابقة الذكر من آفاقنا الثقافية هـذه الأيام

فبالنسبة للسبب الأول : فإننا على الرغم من إيماننا بالعنصر الإلهى فى القرآن الكريم ، نؤكد الطبيعة البشرية فى اللغة العربية . إن اللغـة

العربية تمثل فى نظرنا لغة قد ميزتها العناية الإلهية حين اختارتها لتكون لغة القرآن الكريم ولسان خاتم الأنبياء ، والوسيلة التعبيرية للتشريع الإسلامى . ولكن ذلك كله لا يخرج اللغة العربية عن كونها لغة إنسانية ، كسائر اللغات الإنسانية الأخرى . ومن ثم فهى تخضع لما تخضع له تلك اللغات الأخرى من سنن النشوء والتطور وتتعرض لما يتعرض له جميعا من أحوال التبدل والتغير ، وينبنى على هذا أن تاريخ العربية لايمكن أن ينحصر فى مدى لا يزيد عن قرن واحد قبل ظهور الإسلام ، وما لا يزيد كثيراً عن قرن آخر من ظهور الإسلام وإنما يمتد هذا التاريخ فيرجع إلى الوراء ، حتى يبلغ - إن استطعنا - جدنا الأول آدم وجدتنا الأولى حواء ، ثم تتتابع حلقاته وتتصل ، حتى تبلغ الآن ، وما يجىء بعد الآن من قابل الأزمان .

وبالنسبة للسبب الثانى : فإننا لم نعد نقتصر فيما نتدارسه عن لغتنا العربية على ما تكون له فائدة تطبيقية ، أو غاية تعليمية . وإنما نسعى جاهدين أن نفهم كل شىء عن العربية ، سواء أفاد مباشرة فى تيسير تعليمها أم لم يفد ، لأننا نؤمن بوجوب الفهم العلمى السليم لجميع جوانب الظاهرة اللغوية . والتأريخ المنهجى للغة من خير ما يعين على بلوغ ذلك الفهم . ولقد أثبتت التجربة أنه كلما زاد فهم الإنسان لظاهرة ما ، زادت قدرته على شرحها وتعليمها ، واللغة لا تمثل استثناء من هذه القاعدة . ومعنى ذلك أن حسن فهمنا للظاهرة اللغوية يعنى زيادة قدرتنا على تعلم اللغة . وهكذا فإن التأريخ المنهجى للغة العربية - والذى يزيد من فهمنا لطبيعة اللغة - يمكن أن تكون له فوائد عملية وتعليمية .

وبالنسبة للسبب الثالث : فإننا نستمتع الآن بما لم يتوفر للسابقين من دارسى اللغة العربية من الاطلاع على حصيلة الدراسات العصرية للظاهرة اللغوية . وهذه التصورات العلمية الجديدة فى المجال اللغوى تؤكد أن لكل لغة تاريخا ، وأنه ينبغى لفهم طبيعة أى لغة معرفة تاريخها ما أمكن . ولهذا فإننا ندعو إلى العناية بالتأريخ للغتنا العربية .

* * *

هل ترانا ما نزال بحاجة إلى الإجابة عن السؤال عن الدوافع إلى التأريخ للعربية ؟ إن كان الأمر كذلك فإننا نستطيع أن نقرر أن أهم الدوافع التى تدعو إلى العناية بالتأريخ للعربية يمكن أن تتلخص فيما يأتى :

١ - تعميق فهمنا لطبيعة لغتنا العريقة المجيدة ، لعلنا نكتشف بإدراك تاريخها - عن طاقاتها الكامنة ، ومقدرتها على مواجهة التحديات والاستجابة لمقتضيات الحياة فى مختلف البيئات والعصور .

٢ - التعرف على كل الظروف والأحوال التاريخية التى مرت بها لغتنا العريقة وتفاعلت معها حتى نرى كيف تأثر نظامنا اللغوى على مختلف مستوياته بكل مجموعة من مجموعات تلك الظروف .

٣ ـ إبراز جوانب التميز التى توفرت للغتنا وهيأت لها أن تنتصر فى صراعها مع غيرها من اللغات ، وأن تمتد بها الحياة وتتصل بينما عانى غيرها من الفناء والممات .

٤ ـ التمكن من الإسهام الناجح فى حل ما يواجه لغتنا المجيدة فى الحاضر والمستقبل من مشاكل وتحديات ، فى ضوء ما تقدمه لنا معلوماتنا عن تاريخها من كيفية مواجهتها فى الماضى لظروف مماثلة ، وتحديات مشاكلة .

٥ ـ حسن تصورنا للإطارات الداخلية فى نظامنا اللغوى على مختلف مستوياته ثم الإطارات الخارجية التى تتفاعل مع هذا النظام اللغوى وتؤثر فيه ، والتعرف على مدى مرونة الإطارات الداخلية للنظام اللغوى عندنا فى الاستجابة لما تقتضيه الإطارات الخارجية من تعديلات ، وسنعود إلى شرح ذلك فى القسم الخامس من هذه الدراسة .

ولنستطيع أن نضيف إلى كل ما ذكر من دوافع التأريخ المنهجى للعربية أن لغتنا المجيدة تكاد تحتل وضعا فريداً بين اللغات الإنسانية ، فعمرها الأدبى يبلغ ألفاً ونصف الألف من السنين ، وعمرها الاستعمالى ـ كما تدل على ذلك الدلائل العديدة ـ يسبق ذلك بما لا يقل عن ثلاثة آلاف أخرى من الأعوام ، فضلا عن أن اتساع أوطان لغتنا العربية ، وتكاثر مستعمليها من عرب ومستعربين ، وممن تمثل بالنسبة لهم اللغة الأولى ، أو اللغة الثانية ، وتوافر ذخائر المعرفة الإنسانية التى حررت بها أو ترجمت إليها كل ذلك يجعلها لغة جديرة بالتأريخ لها ، مستأهلة لتسجيل جميع مراحلها وأطوارها ، متميزة على أى لغة أخرى فى القديم أو الحديث سواها .

فإذا كانت معظم اللغات الحية المعاصرة قد حظيت بوفرة ما حرر من التأريخ لها فلماذا نسمح أن تبقى لغتنا العربية المجيدة دون تأريخ لها كامل شامل ؟!

* * *

٥ ـ كيف نقوم بالتاريخ للعربية؟

ينبغى قبل أن نبدأ فى الإجابة على هذا السؤال أن نبادر إلى نفى ما عساه أن يكون قد استقر فى الأذهان ، مما قيل فى هذه الدراسة من شرح وبيان ، أن على مؤرخ اللغة أن يتتبع كل فرد استعملها نطقا أو كتابة ، أو حتى تفكيراً ـ وإن كان قد نطق بغيرها ـ ليرى كيفية استعماله لها ، ثم إن عليه أن يغوص وراء كل كلمة من كلمات اللغة ، وكل صوت من أصواتها ، وكل صيغة من صيغها ، وكل تركيب من تراكيبها ، وكل أسلوب أدبى من أساليبها ، ليرى كيف تم تفاعل هذا أو ذاك مع مر العصور وكر الدهور؟ وكيف تجاوبت هذه الكلمة ، أو تلك الظاهرة ، لأفاعيل الأيام ، وتأثيرات السنين ـ فإن مثل هذا ـ وان كان يعطى المثالية الكاملة ، والأمانة التامه فى عمليه الاستقراء والبحث والتأريخ ـ يخشى أن يغرق المؤلف لتاريخ العربيه فى خضم عميق من بلايين البلايين من التفاصيل ، بحيث يتوه فيها ويضيع فلا يصل إلى نتيجة ولا يبلغ مقصداً .

إننا نعرف جميعا أن كمال الاستقراء بهذه الدرجة من الالتزام والعنف فى جميع الأماكن والبقاع ، وفى كل المراحل والعصور تبلغ حد الاستحالة والتعذر . وينبغى أن نميز فى التخطيط لأى بحث علمى بين المثاليات المتعذرة والمحالة التحقيق وبين الأهداف الممكن تحقيقها فى الواقع والغايات المحتمل بلوغها بالفعل ، ولذلك فإن على المؤرخ للغة أن يحاول تتبع الكليات دون أن يغرق نفسه فى خضم التفاصيل والجزئيات كما أن عليه أن يتتبع التطورات العامة والتغيرات الواضحة ، دون أن يجهد نفسه فى فحص النماذج المتماثلة المتكررة . ثم عليه ألا يفرط فى السعى وراء الاستقراء الكامل ، وإنما يكتفى فى الاستقراء باختيار « عينات » ممثلة للوضع العام Selection of Representative Samples.

فضلا عما سبق أن قررناه من أن المؤرخ للغة لابد أن يعتمد على الجهود العديدة لغيره فيستعين بالدراسات عن أدب هذه اللغة وتاريخه ، ولهجات هذه اللغة وتاريخها ، وتراث هذه اللغة وتاريخه ، والناطقين بهذه اللغة وتاريخهم ، والعقائد والديانات التى اتخذت هذه اللغة وسيلة لها ، وأداة للتعبير عنها ، والعقائد التى اتخذت هذه اللغة كذلك وسيلة للتعبير عنها ، والحضارات واللغات التى احتكت هذه اللغة بها أو تفاعلت معها — فكل ذلك ونحوه من الدراسات الجزئية الأساسية فى التأريخ للغة ، ينبغى أن يضعها المؤرخ للغة أمامه دائما لكى يستفيد منها ويستعين بها ، فإذا ما توفر لمؤرخ اللغة ذلك كله فإن كتابة تاريخ اللغة — رغم مشقتها الشديدة — تصبح ممكنة ، قابلة للتحقيق والتنفيذ .

* * *

إن كل ماينبغى على مؤرخ اللغة القيام به بعد ذلك هو أن يحاول وضع اللغة فى كل مرحلة من مراحلها المتتابعة فى إطارين رئيسيين متميزين نستطيع أن نسمى أحدهما الإطار الخارجى للغة ، وأن نسمى الثانى الإطار الداخلى لها . ومتى تم له أن يضع اللغة فى مرحلة بعينها داخل كل من هذين الإطارين فإن عليه أن يحاول توضيح آثار الإطار الخارجى للغة على إطارها الداخلى فى تلك المرحلة نفسها ، ثم أن يوضح العلاقة بين أوضاع الإطار الداخلى للغة فى تلك المرحلة ، وأوضاعه فى المرحلة التاريخية السابقة لها ، والتالية بعدها .

وحين ينجح مؤرخ اللغة فى وضع اللغة بصيغة عامة ، وفى مراحلها المتتابعة ، داخل هذين الإطارين ، فى كل مرحلة على حدة من ناحية ، ثم بين الإطارات الداخلية فى المراحل المتتابعة للغة من الناحية الأخرى ، يكون قد نجح فى تحرير تاريخ متكامل متصل الحلقات للغة .

ونحن نقصد بالإطار الخارجى للغة الظروف التاريخية العامة التى عاشت فيها اللغة فى هذه المرحلة أو تلك من مراحلها ، ويشمل ذلك ضمن مايشمل تحديد المجالين الزمانى والمكانى للغة فى تلك المرحلة ، ووصف العناصر البشرية التى استعملت اللغة فيها ، وبيان تعداد هذه العناصر البشرية ، وطبيعتها ، وأنماط حياتها ، وعاداتها الاجتماعية ، وظروفها الحضارية ، والعقائدية ، والثقافية والسياسية ، والاقتصادية ، والعسكرية ... الخ . إننا نستطيع أن نقول باختصار بأن الإطار

الخارجى للغة فى مرحلةما يتسع لوصف كل ما من شأنه أن يؤثر فى اللغة من عوامل غير لغوية أو خارجة عن اللغة .

وكذلك فإننا نقصد بالإطار الداخلى للغة العناصر المختلفة للغة ذاتها ، والوحدات الأولية التى تتألف اللغة منها على مختلف مستوياتها. وهكذا فإن الإطار الداخلى للغة يشتمل على حصر أصوات اللغة فى مرحلة معينة ، ثم صيغها ، وتراكيبها ، والإحاطة العامة بألفاظها ومفرداتها ، والمسح الشامل لأدبها ، وتراثها ، والبيان الوافى عن لهجاتها ... الخ ... . إن الإطار الداخلى اللغة يضم باختصار كل ما من شأنه أن يوضح طبيعة اللغة وكنهها، فى المرحلة التى تحاول التأريخ للغة فيها .

ومتى استقر لمؤرخ اللغة رسم الإطار لها فى أقدم مراحلها التى ظهرت إلى الوجود فيها، والتى حفظ لنا التاريخ بصورة مباشرة أو غير مباشرة ملامحها وأوضاعها ومتى تهيأ لمؤرخ اللغة الربط بين ملامح اللغة فى هذا الإطار الداخلى ، وبين العوامل والمؤثرات التى يضمها الإطار الخارجى — فإنه يكون قد أرخ للغة فى مرحلتها الأولى تأريخا مقنعا مرضيا .

ثم يبقى على مؤرخ اللغة بعد ذلك أن يقوم بتتبع المراحل التالية ، التى اختلف فيها الإطار الخارجى اختلافا واضحا عن وضعه الأسبق ، فيعتبر كل اختلاف بارز ، أو تغير واضح فى هذا الإطار الخارجى مرحلة جديدة من مراحل التأريخ للغة . وبعد أن يتخذ المؤرخ للغة من تغير الإطار الخارجى أمارة مرحلة جديدة ، وبعد أن يحدد الإطار الخارجى فى الوضع الجديد ، ويوضح ملامح الاختلاف بينه وبين الإطار الخارجى فى الوضع الأسبق ، يقوم ببحث آثار تغير الإطار الخارجى فى المرحلة الجديدة على ملامح الإطار الداخلى للغة وقسماته مسجلا بذلك تطور اللغة على مختلف مستوياتها الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية والأدبية فى المرحلة الجديدة عما كانت عليه فى الإطار الأقدم ، والمرحلة الأسبق .

وهكذا يمضى المؤرخ للغة فى استعراضه . تتعدد المراحل التاريخية للغة فى نظره باختلاف الإطارات الخارجية التى عاشت فيها اللغة وتعددها . وبتتبع آثار هذا الاختلاف على الإطار الداخلى للغة تتجلى مظاهر التطور فى الظواهر اللغوية المختلفة ، ويتم التصور الكامل للتاريخ اللغوى .

وطالما بقى الإطار الخارجى للغة ثابتا ، تظل المرحلة التاريخية الواحدة للغة ممتدة ، لأن التغير فى النظام الداخلى للغة فى هذه الحالة يكون طفيفا أو منعدما .

* * *

على هذا النحو نستطيع تحرير التاريخ المتكامل المتصل الحلقات المستوعب الجوانب للغتنا العربية المجيدة ، منذ أول بداية لها نستطيع أن نضع يدنا عليها ، إلى وقتنا الحاضر وزماننا المعاصر ، بل إلى آفاق المستقبل ، ورحاب الغد.

وبذلك يكتمل وعينا بلساننا العربى المبين ، وصراعه المتصل من أجل البقاء والازدهار رغم كر الدهور ومر السنين . وكم ندعو الله مخلصين أن يوفقنا فى المستقبل القريب لتحرير ذلك التاريخ

محمد سالم الجرح

ألفاظ العلم الطبيعي في صدر الحضارة العربية

للدكتور جلال شوقي

تضم كتب الحكمة النظرية أو كتب الفلسفة العربية علوما كثيرة ، منها — على سبيل المثال — العلم الطبيعى ، والحكمة الرياضية ، والفلسفة الإلهية ، ومن ثم فإن الباحث في معارف العرب وفضلهم فى مجال الفلسفة الطبيعية لابد له أن يرجع إلى كتب الفلسفة العربية ، وأن يعى تماما ما ورد بها من تعاريف وتعابير حتى يتسنى له تقويم أعمال العرب فى مختلف جوانب الحكمة تقويما سليما منصفا .

ويهدف بحثنا هذا إلى تقديم دراسة موجزة لأهم الألفاظ والتعابير التى كان فلاسفة العرب وعلماؤهم يستخدمونها فى كتاباتهم فى العلم الطبيعى بوجه عام ، وفى مجال خواص الأجسام وصفاتها بوجه خاص ، معتمدين فى هذه الدراسة على المصادر العربية الأصلية ما بين مخطوطة ومطبوعة ، مؤثرين إيراد النصوص العربية فى كل مقام وموضع ، حرصا منا على بيان دلالة هذه الألفاظ فى أدق إطار ، دون تحميل الألفاظ معانى قد تخرج بها عما قصد بها أصلا فى الكتابات الفلسفية العربية .

هذا وقد رأينا من المناسب — بعد عرض موجز لمفهوم العرب للعلم الطبيعى — أن نفرد هذا البحث لدراسة الألفاظ الواردة فى الأمور والصفات والخواص العامة للأجسام ، كذا لدراسة الألفاظ الخاصة بالقوى التى تتعرض لها الأجسام من حيث شِدَّتها ومُدَّتها وعِدَّتها .

تمهيد

العلم الطبيعي عند العرب :

حدد علماء العرب وفلاسفتهم مفهومهم للعلم الطبيعى فى كتاباتهم ، فتعرض لهذا المفهوم كثيرون : منهم إخوان الصفا فى رسائلهم ، وأبو نصر الفارابى فى كتابه « إحصاء العلوم » ، والشيخ الرئيس ابن سينا فى مؤلفاته ، والإمام الغزالى فى كتابه « معيار العلم » ، والفيلسوف أبو البركات هبة الله بن مَلكا البغدادى فى كتابه « المعتبر فى الحكمة » ونقدم فيما يلى نماذج من كتابات العرب عن العلم الطبيعى .

يقول إخوان الصفـــا(١) فى رسائلهم الخامسة عشر(٢) .

« والأمور الطبيعية هى الأجسام وما يعرض لها من الأعراض اللازمة والمزايلة ، وقد عملنا فى هذه العلوم سبع رسائل ، أولها هذه الرسالة التى ذكرنا فيها الهيولى والصورة والحركة والمكان والزمان ، إذ كانت هذه الأشياء الخمسة محتوية على كل جسم » .

ويعرّف المعلم الثانى أبو نصر الفارابى (٣) العلم الطبيعى فى كتابه « إحصاء العلوم » (٤) فيقول :

« فالعلم الطبيعى ينظر فى الأجسام الطبيعية ، وفى الأعراض التى قوامها فى هذه الأجسام ، ويعرف الأشياء التى عنها والتى بها والتى لها توجد هذه الأجسام ، والأعراض التى قوامها فيها .

والأجسام منها صناعية ، ومنها طبيعية .... »

ويعرض الشيخ الرئيس ابن سينا(٥) فى رسالته « الطبيعيات من عيون الحكمة »(٦) لأقسام الحكمة النظرية فيقول :

« وأما الحكمة النظرية ، فأقسامها ثلاثة : حكمه تتعلق بما فى الحركة والتغير من حيث هو فى الحركة والتغير وتسمى حكمة طبيعية .

وحكمة تتعلق بما من شأنه أن يجرده الذهن عن التغير وإن كان وجوده مخالطا للتغير وتسمى حكمه رياضية .

وحكمه تتعلق بما وجوده مستغن عن مخالطة التغير ، فلا يخالطها أصلا وإن خالطها فبالعرض لا أن ذاتها مفتقرة فى تحقيق الوجود إليها وهى الفلسفة الأولى ، والفلسفة الإلهية جزء منها وهى معرفة الربوبية ...... »

ولعل الفارابى يوضح مفهوم العلم الطبيعى أكثر فيقول فى كتابه « إحصاء العلوم »(٧) :

والعلم الطبيعى يعرف الأجسام الطبيعية بأن يضع ما كان منها ظاهر الوجود وضعاً ، ويعرف من كل جسم طبيعى مادته وصورته ، وفاعله والغاية التى لأجلها وجد ذلك الجسم ، وكذلك فى أعراضها فإنه يعرف ما به قوامها والأشياء الفاعلة لهـــا والغايات التى لأجلها فعلت تلك الأعراض ، فهذا العلم يعطى مبادىء الأجسام الطبيعية ومبادىء أعراضها » .

ويعرف الإمام محمد أبو حامد الغزالى(٨) الطبيعيات فى كتابه « معيار العلم »(٩) فيقول :

« ولكل علم موضوع ......

(١) من علماء وفلاسفة القرن العاشر الميلادى .

(٢) هى نفسها الرسالة الأولى فى الجسمانيات الطبيعيات .

(٣) هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى ، توفى عام ٩٥٠ م وقد ناهز الثمانين من عمره .

(٤) كتاب « إحصاء العلوم » للفارابى ، تحقيق الدكتور عثمان أمين ، الطبعة الثالثة ١٩٦٨ ، صفحة ١١١ .

(٥) عاش فى الفترة : ٣٧٠ — ٤٢٨ هـ (٩٨٠ — ١٠٣٧ م) .

(٦) « تسع رسايل فى الحكمة » لابن سينا ، صفحة ٣ .

(٧) الطبعة الثالثة بالقاهرة ، سنة ١٩٦٨ ، صفحة ١١٦ .

(٨) عاش فى الفترة : ٤٥١ — ٥٠٥ هـ (١٠٥٩ — ١١١١م) .

(٩) كتاب القياس — النظر الرابع فى لواحق القياس — طبعة دار المعارف بالقاهرة ، صفحة ٢٥١ .

وموضوع العلم الملقب بالطبيعى : جسم العالم من جهة ما يتحرك ويسكن » .

ويقول أبو البركات هبة الله بن على بن ملكا البغدادى[10] فى كتابه « المعتبر فى الحكمة »[11] :

« ... ... فعلى هذا يسهل طريق التعلم الحكمى الذى يكون بالنظر والاستدلال ، وهذا القانون بعينه يستعمل فى هذا العلم المسمى بالعلم الطبيعى المنسوب إلى الطبيعة ، وهو المشتمل على العلم بسائر المحسوسات من الحركات والمتحركات والمحركات ومامع الحركات وبالحركات والمتحركات وفى المتحركات من الآثار المحسوسة » .

ويمضى ابن ملكا فى الورقة الخامسة من نفس المخطط قائلا :

« ... ... وقوم سمّوا بالطبيعة كلّ قوة جسمانية ، أعنى كل مبدأ فعل يصدر عن الأجسام عما وجوده فيها ، فتكون الأمور الطبيعية هى الأمور المنسوبة إلى هذه القوة ، إما على أنها موضوعات لها ولما يصدر عنها كالأجسام ، فيقال أجسام طبيعية ، وإما آثار وحركات وهيئات صادرة عنها كالألوان والأشكال .

والعلوم الطبيعية هى العلوم الناظرة فى هذه الأمور الطبيعية ، فهى الناظرة فى كل متحرك وساكن ، وما عنه ، وما به ، وما منه ، وما إليه ، وما فيه الحركة والسكون .

والطبيعيات هى الأشياء الواقعة تحت الحواس من الأجسام وأحوالها ، وما يصدر عنها من حركاتها وأفعالها ، وما يفعل ذلك فيها من قوى وذوات غير محسوسة ، فالعلم يتعرض لأظهرها فأظهرها أولا ، ويترقى منه إلى الأخفى فالأخفى ... » .

هذا قليل من كثير من أقوال فلاسفة العرب وعلمائهم فى العلم الطبيعى ، ومنها يتضح أن العلم الطبيعى - فى رأيهم - هو العلم الذى يبحث فى الظواهر الطبيعية المحسوسة للأجسام كموادها وصورها وهيئاتها وأحوالها وسكونها وحركتها وتغيرها وفعلها وانفعالها ، ومن ثم فإن العلوم التى نعرفها اليوم بعلوم السكون والحركة (الميكانيكا) والفيزياء تنطوى تحت لواء العلم الطبيعى .

(١) الأمور والخواص العامة للأجسام

نعرض فى هذا الفصل الألفاظ التى استخدمها العرب كالدربة والاعتبار ، كذا للألفاظ المتعلقة بالصفات والخواص العامة للمواد كالهيولى والصورة والجسمية والصلابة واللين ، والمكان والملاء والخلاء ، مع تحديد مفهوم العرب لهذه الألفاظ من واقع كتاباتهم العلمية والفلسفية .

الدّربة والدّوب:

اعتمد العالم العربى جابر بن حيان[12] فى

(١٠) توفى عام ٥٤٧ هـ (١١٥١ م) .

(١١) مخطوط مكتبة أحمد الثالث باستانبول — رقم ٣٢٢٢ : المجلد الثانى ، الفصل الأول ، الورقة ٣ .

(١٢) عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى والجزء الأول من القرن التاسع .

دراساته اعتمادا كبيرا على التجربة حيث جعلها أساسا للاستنباط العلمى ، فكان بذلك من رواد النهج التجريبى ، ونسوق فى هذا المجال نصا من المقالة الأولى من « كتاب الخواص الكبير[١٣] :

« يجب أن تعلم أنا نذكر فى هذه الكتب (يقصد كتبه فى خواص الأشياء) خواص ما رأيناه فقط ـ دون ما سمعناه أو قيل لنا وقرأناه ـ بعد أن امتحناه وجربناه ، فما صح أوردناه وما بطل رفضناه ، وما استخرجناه نحن أيضا وقايسناه على أقوال هؤلاء القوم » .

ولقد استخدم جابر بن حيان لفظ «الدّربة» بمعنى إجراء التجارب ، ولفظ الدّرب بمعنى المجرّب ، وجعل من هذه الصفة شرطا ملزما للانتماء للعلماء حيث يقــول فى « كتاب السبعين »[١٤] .

« فمن كان دَرِبا[١٥] كان عالما حقا ، ومن لم يكن دَرِباً لم يكن عالــماً . وحسبك بالدربة[١٦] فى جميع الصنائع أن الصانع الدّرِب يحذق ، وغيرَ الدرب يعطل » .

الاعتبار والمعتبر :

ورد فى كتابات الحسن بن الهيثم[١٧] تعبير « الاعتبار »[١٨] فى معنى التجربة ، وتعبير « المعتبر »[١٩] فى معنى القائم بالتجربة ، من ذلك قوله فى الفصل الثالث من المقالة الرابعة فى كتابه « المنـاظر »[٢٠] فى معرض دراسته لانعكاس الضوء بالقياس على ما يحدث لكرة صغيرة ملساء من الحديد أو النحاس أو ما يجرى مجراهما عندما تصدم سطحا مانعا لحركتها فترتد عنه . يقول ابن الهيثم بلفظه :

« ...... وكلما كانت حركة القذف أقوى فإنه يجد (يشير إلى المعتبر) رجوع هذه الكرة أقوى ، وإن اعتبر[٢١] هذا المعنى بجسم غير المرآة ، ويكون فيه بعض اللين كالخشب أو ما يجرى مجراه ، وجد رجوع الكرة بقوة دون القوة الأولى » .

ويمضى ابن الهيثم فى دراسته هذه قائلا :

« فيتبين من هذا الاعتبار أن المتحرك على استقامة إذا لقى مانعا يمنعه من الحركة فإنه يتحرك راجعاً ، وتكون قوة رجوعه بحسب قوة

(١٣) مختارات پول كراوس : صفحة ٢٣٢ .
(١٤) مختارات پول كراوس : صفحة ٤٦٤ .
(١٥) Experienced .
(١٦) Experience .
(١٧) عاش فى الفترة . ٣٥٤ ـ ٤٣٠ هـ (٩٦٦/٦٥ ـ ١٠٣٩ م) .
(١٨) Experimentation .
(١٩) Experimenter .
(٢٠) مخطوط مكتبة الفاتح باستانبول ـ رقم ٣٢١٥ .
(٢١) أى جرب (to experiment) .

الحركة التى تحرك بها فى الأول ، وبحسب قوة المانع وامتناعه من الانفعال ..... » .

والمقصود من كلمة « الاعتبار » واضح تماما وهو معنى التجربة .

الهيولى والصورة :

يقول إخوان الصفا فى رسالتهم الخامسة عشر[22] :

« إعلم وفقك الله أن معنى قول الحكماء « الهيولى » إنما يعنون به كل جوهر قابل للصورة .

وقولهم « الصورة » يعنون به كل شكل ونقش يقبله الجوهر .

واعلم أن اختلاف الموجودات إنما هو بالصورة لا بالهيولى .. » .

ويزيد الشيخ الرئيس ابن سينا الأمر وضوحا فيقول فى رسالته « الطبيعيات من عيون الحكمة »[23] :

« إن كل جسم طبيعى فهو متقوم الذات من جزئين :

أحدهما يقوم مقام الخشب من السرير ، ويقال له هيولى ومادة[24] .

والآخر يقوم مقام السرير من السرير ، ويسمى صورة ... » .

أما أبو الوليد محمد بن رشد[25] فيعرض لمعنى « الهيولى » و « الصورة » فى المقالة الثانية من كتابه « ما بعد الطبيعة » فيناقش مذهبين متباينين فى هذا الصدد فيقول :

« إن قوما جعلوا أول شىء يحل فى الهيولى الأولى غير المصورة الأبعاد الثلاثة ، وأنها أول شىء تتصور بها الهيولى ، ورأوا أن اسم الجسم على هذا المعنى » .

ثم يعرج ابن رشد إلى المذهب الثانى فيقول عنه :

« رأوا أن الأبعاد الثلاثة تابعة لصورة بسيطة موجودة فى الهيولى الأولى ، وأن هذه الصورة هى التى من شأنها أن يقبل بها الجسم الانفصال والاتصال، فزعموا أنها واحدة مشتركة لجميع الأشياء المحسوسة كالحال فى المادة الأولى . والذى يرى هذا الرأى هو ابن سينا » .

ويناقش هذا الرأى قائلا :

« وأما أصحاب القول الثانى فإن كانوا أرادوا أن ها هنا صورة بسيطة بالفعل غير صور الأجسام والبسائط التى هى الثقل والخفة وبالجملة

---

(٢٢) هى نفسها الرسالة الأولى فى الجسمانيات الطبيعيات .

(٢٣) « تسع رسايل فى الحكمة » لابن سينا ، طبعة القاهرة ، صفحة ٤ .

(٢٤) Matter .

(٢٥) عاش فى الفترة : ٥٢٠ – ٥٩٥ هـ (١١٢٦ – ١١٩٨ م) .

الميل على ما يظهر من كلام ابن سينا ، فإن مجموع هذه الصورة مع المادة الأولى هو الجوهر الذى عرض له التجسم أى عرضت له الأبعاد الثلاثة .

إذا تصور بهذه الجهة فهو لعمرى باطل .

وإن كان أراد بهذا المعنى طبيعة الميل الحاصل فى المادة الأولى الذى هو كالجنس لصور الاسطقسات ، فهو لعمرى حق » .

الاسطقس :

يعرّف الشيخ الرئيس ابن سينا «الاسطقس» فى رسالته : « فى الحدود »(٢٦) فيقول :

« الاسطقس هو الجسم الأول الذى باجتماعه إلى أجسام أولى مخالفة له فى النوع يقال له اسطقس لها ، فلذلك قيل إنه آخر ما ينتهى إليه تحليل الأجسام ، فلا توجد فيه قسمة إلا إلى أجزاء متشابهة » .

الجسمية :

الجسمية عند ابن سينا تعنى الامتداد فى الأقطار الثلاثة ، أو بتعبير آخر جثمانيته ، وهو يفرق فى كتاباته بين الجسمية فى حد ذاتها وبين خاصية مدافعة الجسم عن حاله من سكون أو حركة ، وهى الخاصية التى سنعرض لها بالتفصيل فى بحث آخر .

يقول الشيخ الرئيس فى رسالته الرابعة « فى الحدود »(٢٧) :

« الجسم اسم مشترك يقال على معان ، فيقال جسم لكل متصل محدود ممسوح فى أبعاد ثلاثة بالقوة ، ويقال جسم لصورة يمكن أن يعرض فيه أبعاد كيف شئت طولا وعرضا وعمقا ذات حدود متعينة .

ويقال جسم لجوهر مؤلف من هيولى وصورة بهذه الصفة ، والفرق بين الكم وبين هذه الصورة أن قطعة من الماء أو الشمع كلما بدل شكله تبدلت فيه الأبعاد المحدودة الممسوحة ، ولم يبق واحد منها بعينه واحدا فيه بالعدد ، وبقيت الصورة القابلة لهذه الأحوال وهى جسمية واحدة بالعدد من غير تبدل ولا تغير .

ولذلك إذا تكاثف وتخلخل لم تستحل صورته الجسمية واستحال أبعاده ، فإذن فرق بين الصورة الجسمية التى هى من باب الكم وبين الصورة التى هى من باب الجوهر » .

ويقول أبو الحسن بَهْمَنْيار بن المرزُبان(٢٨) ـ أحد تلاميذ الشيخ الرئيس ابن سينا ـ فى كتابه « التحصيل »(٢٩) :

« ...... فالجسمية بالحقيقة صورة الاتصال القابل لفرض الأبعاد الثلاثة فيه ، وهو غير

---

(٢٦) « تسع رسايل فى الحكمة » لابن سيناء ، طبعة القاهرة ، صفحة ٨٥ .

(٢٧) « تسع رسايل فى الحكمة » لابن سينا ، طبعة القاهرة : صفحة ٨٧ ،

(٢٨) توفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) .

(٢٩) مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب ـ رقم ١١٢٢ : الكتاب الثانى ، المقالة الأولى ، الفصل السابع ، الورقة ١٤٢ .

المقدار . وغير الجسمية التعليمية ، والجسم الذى يستعمل فى التعاليم وهو المعروف بالجسم التعليمى هو الصورة الجسمية مأخوذة مع مقدار من غير التفات إلى المادة .

فإن الجسم المطلق من حيث الجسمية لا يخالف جسما آخر بأنه أصغر أو أكبر ، ولا يناسبه بأنه مساو لهذا أو معدود به ، وإنما له ذلك من حيث هو مقدر ، وهذا الاعتبار غير اعتبار الجسمية .

ولهذا كثيرا ما يكون الجسم الواحد يتخلخل ويتكاثف بالتبريد والتسخين ، فيختلف مقدار جسميته ، وجسميته التى ذكرناها لا تختلف ولا تتغير ... » .

ويمضى ابن المرزبان فى نفس الفصل[30] يقول :

« ... فلا يجوز أن يكون جسمية محتاجة إلى مادة ، وجسمية غير محتاجة إلى مادة ، واللواحق الخارجة لا تغنيها عن الحاجة إلى المادة إذ الحاجة إلى المادة هى للجسمية لأجل ذاتها ومن حيث هى جسمية ، لا من حيث جسمية مع لاحق (أو مع لواحق) .

فقد بان أن جميع الأجسام مؤلفة من مادة وصورة ، وهذا البيان إنما يتم عند تصحيح إمكان قبول الأجسام للانقسام إلى ما لا نهاية له ، فإن البيان مبنى على الاتصال والانفصال وما لم يتبين أن فى قوة الجسم الانفصال إلى ما لا نهاية لم يصح هذا، فانبطل أقاويل الذين يقولون إن الأجسام مؤلفة من أجزاء لا تتجزى »

أما الإمام فخر الدين الرازى[31] فيقول فى كتابه « المباحث المشرقية فى علم الإلهيات والطبيعيات »[32] فى معرض حديثه عن الجسمية :

إن الجسم الواحد قد تتوارد عليه المقادير المختلفة مع بقاء جسميته المخصوصة ...

« إن الأجسام مشتركة فى مفهوم الجسمية مختلفة فى المقادير ... » .

« إن الأجسام صح أن يكون بعضها مقدرا للبعض ومتقدرا به ، ... وليست تلك المتقدرية بنفس الجسمية التى يستحيل أن يخالف جسم فيها جسما ، فتلك المتقدرية إنما تكون بأمر زائد على الجسمية ... » .

ويزيد الفخر الرازى الأمر وضوحا حيث يقول :

« إن الجسم يسخن فيزداد حجمه من غير

---

(٣٠) نفس المخطوط السابق : الورقة ١٤٦ .

(٣١) عاش فى الفترة : ٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ (١١٥٠ ـ ١٢٠٩ م) .

(٣٢) الكتاب الثانى ـ الفن الأول ـ الفصل الأول ـ طبعة الهند : الصفحات ١٧١ حتى ١٧٤ .

انضمام شيء إليه ولا وقوع خلاء بين أجزائه لاستحالة الخلاء ، ويبرد فيصغر حجمه من غير انتقاص شيء من أجزائه ، أو زوال خلاء كان قبل ذلك .

وذلك الجسم في حد جسميته محفوظ(٣٣) ، والجسم المحفوظ مغاير لهذه الأمور المتبدلة .. »

بهذه الكلمات يقرر الفخر الرازي مبدأ حفظ المادة ، ولا ينقص من قدره في تقرير هذا المبدأ الهام قوله بانتفاء الخلاء . وقد عبر الرازي عن المادة بالجسمية ، وقال بأن هذه الجسمية محفوظة لا تتبدل في حد ذاتها ، وإن تبدلت أبعادها وصورها ، فالرازي يقرر في هذا النص مبدأ حفظ المادة وهو المعنى الذي نعبر عنه في كتاباتنا المعاصرة بأن المادة لا تفنى ولا تستحدث .

الصلابة واللين والرخاوة :

يذكر ابن سينا في رسالته : « في الحدود »(٣٤) :

« الصلب هو الجرم الذي لا يقبل دفع سطحه إلى داخله إلا بعسر » وهذه الصفة يفضل تسميتها اليوم بالصلادة(٣٥) .

ويستطرد ابن سينا قائلا :

« اللين هو الجرم الذي يقبل ذلك بسهولة » .

و « الرخو جرم لين سريع الانفصال » .

أما الحسن بن الهيثم فقد تعرض لظاهرة تباين درجة ممانعة المواد المختلفة عن الانفعال عند سقوط الأجسام عليها ، تلك الظاهرة التي اتخذت في عصرنا الحالي أساسا لقياس درجة الصلادة . يقول ابن الهيثم في الفصل الثالث من المقالة الرابعة في كتابه « المناظر »(٣٦) :

« إن الأجسام الثقال إذا سقطت إلى أسفل من موضع عال ، ثم لقيت عند مسقطها جسما صلبا كالصخر أو الحديد أو ما جرى مجرى ذلك ، انعكست في الحال راجعة . ويكون رجوعها بحركة قوية .

وإذا لقيت عند مسقطها جسما رخوا كالرمل أو التراب أو ما شاكل ذلك ، انتشبت فيه ولم ترجع .

وإن صادفت جسما فيه بعض الصلابة وبعض اللين كالجص أو الخشب أو ما جرى مجرى ذلك في اللين ، رجعت رجوعا ضعيفا » .

يبين من هذا النص أن الصلابة - في رأي الحسن بن الهيثم - هي خاصية « الممانعة عن الانفعال » ، وأن اللين ضعف تلك الممانعة .

ويقول هبة الله بن ملكا البغدادي في كتابه « المعتبر في الحكمة »(٣٧) :

---

(٣٣) conservation of Matter .

(٣٤) « تسع رسائل في الحكمة » لابن سينا ، طبعة القاهرة : صفحة ٩٧ .

(٣٥) Hardness .

(٣٦) مخطوط مكتبة الفاتح باستانبول — رقم ٣٢١٥ ، الورقتان ٦٨ ، ٦٩ .

(٣٧) مخطوط مكتبة أحمد الثالث باستانبول — رقم ٣٢٢٢ : المجلد الثاني — الفصل السادس .

« ولكل جسم متناه شكل ، وقد يكون من ذلك ما هو طبيعى ، ومنه ما هو قسرى[٣٨] وغير طبيعى ، فلكل جسم من ذلك معنى طبيعى لا محالة .

فمن ذلك أن الجسم إما أن يقبل التأثير أو لا يقبل ، فإن قبل قبولا بعسر فهو الصلب[٣٩] ، أو بسهولة فهو اللين »[٤٠] .

المكان :

لما كان المكان أحد عناصر حركة الأجسام فى الفلسفة الإسلامية ، لذلك فقد تصدى كثير من العلماء والفلاسفة العرب لتعريفه . ولعل أدق هذه التعاريف وأوضحها ما ورد فى رسالة الحسن بن الهيثم « قول فى المكان » حيث يقرر ابن الهيثم تعريف المكان على النحو التالى :

« ... ... فمكان الجسم هو أبعاد الجسم التى إذا جردت فى التخيل كانت خلاء لا مادة فيه مساويا لجسم شبيه بشكل الجسم » .

الملاء والخلاء :

يعرف الشيخ الرئيس ابن سينا : « فى رسالته فى الحدود »[٤١] الملاء والخلاء، فيقول :

« الملاء[٤٢] هو جسم من جهة ما يمانع أبعاده دخول جسم آخر فيه »

« الخلاء[٤٣] بعد يمكن أن تعرض فيه أبعاد ثلاثة قائم لا فى مادة من شأنه أن يملأه جسم وأن يخلو عنه » .

ولقد كان الخلاء موضع خلاف كبير بين فلاسفة العرب ، فمنهم مؤيد لوجوده ومنهم من ينكره ، ولعل الحسن ابن الهيثم كان أوفقهم فى تعريفه حيث يقول فى رسالته « المكان » :

« ... ... والخلاء ليس بذى مادة ولا فيه مدافعة ، وإنما الخلاء هو أبعاد فقط متهيئة لقبول المواد » .

فالخلاء — فى رأى ابن الهيثم — خالى تماما من المادة ومن المدافعة ، أى خالى من المقاومة التى يتعرض لها الجسم أثناء حركته فى وسط ما غير الخلاء ، وبالتالى فإن حركة الأجسام فى الخلاء لا تلقى أية معاوقات أو ممانعات ، وهذه حقيقة نعرفها جيدا فى الوقت الحاضر .

ويستطرد الحسن بن الهيثم فى رسالته فيقول :

« والجسم الطبيعى هو المادة التى هى الأبعاد المتخيلة متهيئة لقبولها مع الأبعاد ، وكل الأبعاد فهى متهيئة لقبول كل مادة ، وكل بعد فليس فيه مانع يمنع من أن تنطبق عليه ، وليس يمتنع أن تنطبق أبعاد الجسم الطبيعى - الذى الخلاء

(٣٨) Forced or enforced .
(٣٩) يفضل تسميته بالصلد : Hard .
(٤٠) Soft .
(٤١) « تسع رسايل فى الحكمة » لابن سينا ، طبعة القاهرة : صفحة ٩٤ .
(٤٢) أى الحيز الممتلىء مادة تمانع دخول جسم خارجى فى هذا الحيز ، و هو عكس الخلاء .
(٤٣) أى الفراغ أو الفضاء الخالى : Space .

متهيء لقبوله — على أبعاد الخلاء ، التى هى أطوال لاعروض لها ولامدافعة فيها ، وإذ ذلك كذلك فقد بطل القول بأن الجسم الطبيعى لا يداخل الخلاء لأنهما جسمان . »

ويقول هبة الله بن ملكا البغدادى فى كتابة « المعتبر فى الحكمة » (٤٤) فى وصفه للخلاء :

« ... فهو مقدار بلا مادة ، به امتلاء المكان ، وهو الخلاء ... »

(٢) القوى التى تعرض للأجسام

نقدم فى هذا الفصل بعضاً من كتابات العرب فى موضوع القوى التى يمكن أن تتعرض لها الأجسام من قوى طبيعية وقوى قسرية ، ونعرض كذلك لتفاوت القوى من حيث الشدة والمدة والعدة .

القوى وأنواعها :

يقول الشيخ الرئيس ابن سينا فى كتابه « النجاة » (٤٥) :

« ليس شيء من الأجسام الموجودة يتحرك أو يسكن بنفسه ، أو يتشكل أو يفعل شيئا غيرذلك ، وليس ذلك له عن جسم آخر أو قوة فائضة عن جسم ، فليس يصدر عنه شيء إلا وفيه قوة من هذه القوى المذكورة ، عنها يصدر ذلك وكل ما يصدر عنه من الأفعال »

هذا وقد فرق العرب بين نوعين أساسيين من القوى هما القوة الطبيعية والقوة القسرية ، فبالقوة الطبيعية عبر العرب عن القوة التى تؤثر على الجسم لتعيده إلى مكانه الطبيعى إذا كان قد سبق وأن أزيح عنه ، وهذه القوة هى ما نسميها اليوم بقوة الجاذبية الأرضية ، وبالقوة القسرية عبر العرب عن القوة التى تسلط على الجسم لتجبره على الحركة أو على التواجد فى غير موضعه الطبيعى ، ولنورد فيما يلى نماذج مما قاله فلاسفة العرب وعلماؤهم فى أنواع القوى.

(أ) القوى الطبيعية :

يقول الشيخ الرئيس ابن سينا فى كتابه « النجاة » (٤٦) عن القوى الطبيعية ما نصه :

« فمنها قوى سارية فى الأجسام تحفظ عليها كمالاتها من أشكالها ومواضعها الطبيعية وأفاعيلها وإذا زالت عن مواضعها الطبيعية وأشكالها وأحوالها أعادتها اليها وثبتتها عليها ، مانعة من الحالة الغير الملائمة إياها بلامعرفة وروية وقصد اختيارى بل بتسخير ، وهذه القوى تسمى طبيعية ، وهى مبدأ (٤٧) بالذات لحركاتها بالذات وسكوناتها بالذات ، ولسائر كمالاتها التى لها بذاتها ، وليس شيء من الأجسام الطبيعية بخال عن هذه القوة » .

وعن القوة الطبيعية يقول ابن سينا فى طبيعيات كتابه « الشفاء » (٤٨) :

---

(٤٤) مخطوط مكتبة أحمد الثالث باستانبول — رقم ٣٢٢٢ : المجلد الثانى — "فصل الخامس عشر ، الورقة ٦٢ .

(٤٥) طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ — الجزء الثانى : صفحة ١٦١ .

(٤٦) طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ — الجزء الثانى الصفحتان ١٦١ ، ١٦٢ .

(٤٧) بمعنى سبب وعلة : Cause .

(٤٨) المقالة الرابعة — الفصل الثانى عشر .

« كل جسم له مكان طبيعى أو حيز تقتضى طبيعته الكون فيه ، وهو يخالف سائر الأجسام لا لجسميته ، بل لأن فيه مبدأ وقوة معدة نحو ذلك المكان . »

ويقول أبو البركات هبة الله بن ملكا البغدادى فى كتابه « المعتبر فى الحكمة » (٤٩) :

« فبهذا يعلم أن لكل جسم طبيعى حيزا طبيعيا ، فيه يكون بالطبع ، وإليه يتحرك إذا أزيل عنه ، وهذا الحيز ليس هو للجسم بجسميته التى لا يخالف بها غيره من الأجسام ، بل بصفة خاصة به هى طبيعة فقوة أو صورة خاصة بذلك الجسم خصته بذلك الحيز وحركته إليه ، فتلك الطبيعة الخاصة فى ذلك الجسم مبدأ حركة بالطبع وسكون بالطبع والتحريك النقلى المكانى إنما يكون عنها بعد سبب طارىء يخرج الجسم عن حيزه الطبيعى ، فتحركه هى إليه . »

وعن قوة الجذب يقول الامام فخر الدين الرازى فى كتابه « المباحث المشرقية فى علم الالهيات والطبيعيات » (٥٠)

« انجذاب (٥١) الجسم إلى مجاورة الأقرب أولى من انجذابه إلى مجاورة الأبعد . »

وهذا النص سبق واضح للفخر الرازى ، حيث إن قوة الجذب بين جسمين تزيد بقربهما من بعضهما البعض ، وتقل بزيادة التباعد بينهما .

الثقل والخفة :

يقول إخوان الصفا فى رسالتهم السادسة عشر :

« وكل جسم فى مكانه الخاص ليس بثقيل ولا خفيف ، لأن الثقل (٥٢) والخفة يعرضان لبعض الأجسام بسبب خروجها عن أماكنها الخاصه بها إلى مكان غريب » .

ويستطرد إخوان الصفا فى رسالتهم هذه فيعرفون الثقيل والخفيف بقولهم :

« ما كان متوجها نحو مركز العالم يسمى ثقيلا وما كان متوجها نحو المحيط يسمى خفيفاً » .

ويؤكد إخوان الصفا هذا المعنى فى رسالتهم الرابعة والعشرين حيث يقررون :

« وأما الثقل والخفة فى بعض الأجسام فهو من أجل أن الأجسام الكليات كل واحد له موضع مخصوص ، ويكون واقفا فيه لا يخرج إلا بقسر قاسر ، وإذا خلى رجع إلى مكانه الخاص به ، فإن منعه مانع وقع التنازع بينهما ، فان كان النزوع نحو مركز العالم يسمى ثقيلا ،

---

(٤٩) مخطوط مكتبة أحمد الثالث — رقم ٣٢٢٢ ، المجلد الثانى ، الفصل السادس والعشرون ، الورقة ١٠٢ .

(٥٠) الكتاب الثانى — الفن الخامس — الفصل الثانى عشر ، طبعة الهند : صفحة ٥٧٨ .

(٥١) Attraction .

(٥٢) Weight — الثقل هو قوة جذب الأرض للجسم .

وإن كان نحو المحيط يسمى خفيفاً ، وقد بينا فى رسالة السماء والعالم كيفية ذلك » .

ويعرض الشيخ الرئيس ابن سينا فى رسالته « فى الحدود »(٥٣) للثقل والخفة ، فيقول :

« الثقل قوة طبيعية يتحرك بها الجسم إلى الوسط(٥٤) بالطبع » .

و « الخفة قوة طبيعية يتحرك بها الجسم عن الوسط بالطبع » .

القوة القسرية :

يعرّف الشيخ الرئيس ابن سينا « القسر » ، فيقول فى رسالته « الطبيعيـــات من عيون الحكمة »(٥٥) :

« القسر مايسلب حركة أو سكوناً طبيعياً » .

ويقول بهمينـــار بن المرزبان فى كتابه « التحصيل »(٥٦) :

« وأنت تعلم أنه إذا توهم زوال القاسر ، لم يكن للجسم بد من أن يكون له أين وشكل وزوال القاسر ممكن بل واجب ، فان القسر طارىء على الأمر الطبيعى » .

ويقول ابن المرزبان فى موضع آخر من كتابه(٥٧)

« والحركة التى بالقسر هى التى محركها خارج عن المتحرك ، وليس بمقتضى طبعه ، وذلك قد يكون بالجذب ، وقد يكون بالدفع ، وقد يكون مع مفارقة المتحرك المحرك ، مثل المرمى(٥٨) والمدحرج(٥٩) والمزحوح(٦٠) ...... »

تفاوت القوى بحسب الشدّة والمدّة والعدّة :

يقول الإمام فخر الدين الرازى فى كتابه « المباحث المشرقية »(٦١) فى معرض حديثه « فيما ليس بكم بالذات بل بالعرض » - وقد جعله على أربعة أوجه - مانصه :

« الوجه الرابع أن تكون قوى مؤثرة فى أشياء يقال عليها الكم بالذات ، فيقال لتلك القوى إنها متناهية أو غير متناهية ، لا لأن القوة ذات كمية فى نفسها ، بل لأن القوة تختلف بالزيادة والنقصان ، بالاضافة إلى شدة ظهور الفعل عنها ، أو إلى عدة مايظهر عنها ، أو إلى مدة بقاء الفعل ، والفرق بين اعتبار الشدة والمدة من وجهين .

أحدهما أن كل ماكان زائداً بحسب الشدة ،

(٥٣) « تسع رسايل فى الحكمة » لابن سينا ، طبعة القاهرة : صفحة ٩٥ .
(٥٤) يقصد وسط العالم ، أى مركز الأرض .
(٥٥) « تسع رسايل فى الحكمة » لابن سينا - طبعة القاهرة : صفحة ١١ .
(٥٦) مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب - رقم ١١٢٢ : الكتاب الثالث ، المقالة الثانية ، الباب الأول ، الفصل السادس ، الورقة ٢٥٨ .
(٥٧) نفس الكتاب السابق ، الورقة ٢٤٨ .
(٥٨) Projected . (٥٩) Ro'led . (٦٠) Displaced .
(٦١) الكتاب الثانى - الفن الاول - الفصل السادس - طبعة الهند : صفحة ١٨٧ .

كان ناقصا بحسب المدة ، فان المحرك إذا كان أشد قوة ، بلغ النهاية الموجودة أو المفروضة أسرع .

ثانيهما أن الذى تتفاوت فيه القوى بحسب المدة ، ربما لاتتفاوت فيه بحسب الشدة ، فان إبقاء الثقيل فى الجو لايقبل الزيادة والنقصان بحسب الشدة ، وتختلف القوى فيه بالابقاء الزمانى بحسب الشدة ، وأما الفرق بين اعتبار المدة والعدة فلأن المدة هى فى اثبات شىء واحد ، وليس اعتبار العدة فى اثبات شىء واحد ، وأما الفرق بين اعتبار الشدة والعدة فظاهر » .

ويقول العلامة نصير الدين الطوسى(٦٢) فى معرض شرحه للفصل الخامس عشر من النمط السادس من كتاب ابن سينا « الاشارات والتنبيهات » :

« .. أما الشىء الذى يتعلق به شىء ذو مقدار أو عدد كالقوى التى يصدر عنها عمل متصل فى زمان ، أو أعمال متوالية لها عدد ، ففرض النهاية واللانهاية يكون فيه بحسب مقدار ذلك ، أو عدد تلك الأعمال .
والذى بحسب المقدار يكون إما مع فرض وحدة العمل ، واتصال زمانه ، أو مع فرض الاتصال فى العمل نفسه ، لا من حيث تعتبر كثرته او وحدته .

فالقوى بهذه الاعتبارات تكون ثلاثة أصناف :

الأول قوى يفرض صدور عمل واحد منها فى أزمنة مختلفة ، كرماة تقطع سهامهم مسافة محدودة فى أزمنة مختلفة ، ولا محالة تكون التى زمانها أقل أشد قوة من التى زمانها أكثر ، ويجب من ذلك أن يقع عمل غير المتناهية لا فى زمان .

والثانى قوى يفرض صدور عمل ما ـ منها ـ على الاتصال فى أزمنة مختلفة ، كرماة تختلف أزمنة حركات سهامهم فى الهواء ، ولا محالة تكون التى زمانها أكثر أقوى من التى زمانها أقل ، ويجب من ذلك أن يقع عمل غير المتناهية فى زمان غير متناه .

والثالث قوى يفرض صدور أعمال متوالية عنها . مختلفة بالعدد ، كرماة تختلف عدد رميهم ، ولا محالة تكون التى يصدر عنها عدد أكثر ، أقوى من التى يصدر عنها أقل عدد ، ويجب من ذلك أن يكون لعمل غير المتناهية عدد غير متناه .

فالاختلاف الأول بالشدة ، والثانى بالمدة ، والثالث بالعدة . »

من هذين النصين يبين لنا أن العرب قد فرقوا بين القوة التى يجرى تسليطها فى فترة زمنية قصيرة كقوة الصدمة ، وبين القوة ثابتة المقدار التى تتواجد لفترة زمنية طويلة ، ففى الحالة الأولى يكون تأثير القوة أشد كلما نقصت فترة تسليطها ، وهذا النوع من القوة نعرفه اليوم

---

(٦٢) عاش فى الفترة : ٥٩٧ ـ ٦٧٢ هـ (١٢٠١ ـ ١٢٧٤ م) .

بالقوة الصدمية ، والمثال المألوف لها شدة تأثير الضرب بمطرقة ، وإذا عبرنا عن هذه الحالة بتعبيرنا العلمي الدقيق المعاصر لقلنا إنه كلما كان معدل تسليط القوة أعلى (أى كلما قلت الفترة الزمنية التى تصل فيها القوة إلى ذروتها) ، كلما كان التأثير الناتج عن القوة أشد ، وهذا ما يدخله المهندسون فى اعتبارهم فعلا عند تصميم المنشآت التى تتعرض لأحمال الصدمات .

كذلك درس العرب الحالة التى يكون فيها مقدار القوة ثابتا من حيث الكم ، بينما ينحصر الاختلاف فى طول الفترة الزمنية التى تعمل فيها القوة ، والنصان المتقدمان يوضحان الفرق بين شدة القوة ومدتها كل الوضوح ، مما يدل على دقة المشاهدة وسلامة التمثيل ، والفهم السليم الواعى لتأثير القوة من حيث المقدار والشدة ، ومن حيث المدة أى فترة تأثيرها ، ومن حيث العدة أى عدد مرات تسليطها .

ولعلنا نسوق فى ختام حديثنا عن تفاوت القوة قول الحكيم بهمينار ابن المرزبان ـ أحد تلاميذ ابن سيناء ـ فى كتابه « التحصيل »(٦٣) :

« نقول إن القوة تقع بينها وبين قوة أخرى تفاوت فى أمور :

منها سرعة الفعل وبطؤه .

ومنها طول مدة استبقاء الفعل وقصرها .

ومنها كثرة عدة الفعل وقلتها . »

ويستطرد ابن المرزبان ليوضح عبارته هذه بالأمثلة ، فيقول :

« ومثال الأول أن أشد الراميين قوة هو أسرعهما فى الرمى لمسافة معينة قطعا ، ومثال الثانى أن أشد الراميين قوة هو أطولهما زمان نفوذ الرمى فى الجو ، ومثال الثالث أن أشد الراميين قوة هو أكبرهما قدرة على رمى بعد رمى . »

قول واضح موجز سبق به ابن المرزبان كلا من الفخر الرازى ونصير الدين الطوسى :

خلاصة

يقدم هذا البحث دراسة موجزة لمفهوم العرب للعلم الطبيعى ، كذا الألفاظ التى استعملها فلاسفة العرب ، وعلماؤهم فيه ، ويشتمل البحث على نصوص عديدة لبيان الأوجه التى استعملت فيها هذه الألفاظ وتحديد مدلولها فى صدر الحضارة العربية .

ويخلص البحث إلى أن العرب قد تخيروا ألفاظهم بعناية شديدة ، فلا غرو أن نجد غالبية هذه الألفاظ لازالت صالحة تماما للكتابة العلمية المعاصرة . من هذه الألفاظ ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ألفاظ الجسمية والثقل والخفة ، والصلابة واللين ، والملاء والخلاء ، والقوة

(٦٣) مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب ـ رقم ١١٢٢ : الكتاب الثالث ، المقالة الثانية ، الباب الأول ، الفصل الرابع ، الورقة ٢٥٢ .

الطبيعية والقوة القسرية وتوصيف القوة من حيث الشدة والمدة والعدة، وبيان تعرض الجسم للجذب أو الدفع، وتحديد كيفية تحريك الجسم بالرمى (أى القذف) أو الدحرجة أو الازاحة، وهذه الألفاظ تعبر ولا شك عن معانى دقيقة متباينة .

ما أحرانا أن نفرد مزيدا من الاهتمام لتراثنا العلمى العربى، وما أولانا بالكشف عن ثروتنا الفكرية واللغوية العظيمة .

مصادر البحث

(أ) المخطوطات :

١ ـ كتاب « المناظر » للحسن بن الهيثم .
المقالتان الرابعة والخامسة .

مخطوط مكتبة الفاتح باستانبول ـ رقم ٢٢١٥، ٢٢٢ ورقة .

٢ ـ « قول فى المكان » للحسن بن الهيثم .

مخطوط مكتبة الفاتح باستانبول ـ رقم ٣٤٣٩ ق ٣ .

مخطوط المكتب الهندى بلندن ـ رقم ٧٣٤ / ٧ .

(نشرت هذه الرسالة دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن بالهند، سنة ١٣٥٧هـ (١٩٢٨ م) وتقع فى ١٢ صفحة) .

٣ ـ كتاب « تحصيل بهمينار » لبهمينار ابن المرزبان .

مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب ـ رقم ١١٢٢، ٢٤٠ ورقة .

٤ ـ كتاب « المعتبر فى الحكمة » .
لأبى البركات هبة الله بن ملكا البغدادى .

مخطوط مكتبة أحمد الثالث باستانبول ـ رقم ٣٢٢٢ . ٢٢٥ ورقة .

(ب) الكتب المطبوعة :

١ ـ « رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا »

عنى بتصحيحه خير الدين الزركلى .

المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة، عام ١٩٢٨ م .

٢ ـ مختار « رسائل جابر بن حيان » .
عنى بتصحيحها ونشرها بول كراوس .

مكتبة الخانجى ومطبعتها، القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ .

٣ ـ « إحصاء العلوم » لأبى نصر الفارابى .
تحقيق الدكتور عثمان أمين .

مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة، الطبعة الثالثة، عام ١٩٦٨ . ١٧٦ صفحة .

٤ ـ كتاب « الإشارات والتنبيهات » للشيخ الرئيس ابن سينا .
مع شرح نصير الدين الطوسى .
تحقيق الدكتور سليمان دنيا .

دار المعارف بمصر ـ القسم الثانى ـ الطبعة الثانية، ٦٨ : صفحة .

٥ — « الكتاب الموسوم بشرحى الإشارات » .

للخواجه نصير الدين الطوسى ، والإمام فخر الدين الرازى .

المطبعة الخيرية بالقاهرة — الطبعة الأولى ، عام ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م) .

الجزء الأول : ٢٤٣ صفحة ، الجزء الثانى : ١٤٦ صفحة .

٦ — كتاب « الشفاء — الطبيعيات » للشيخ الرئيس ابن سينا .

تحقيق الدكتور محمود قاسم .

مراجعة وتقديم الدكتور إبراهيم مدكور .

دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ، عام ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

٧ — كتاب « النجاة » للشيخ الرئيس ابن سينا .

طبعة روما سنة ١٩٥٣ م (بعد انتهاء كتاب « القانون فى الطب ») .

٨ — كتاب « النجاة » للشيخ الرئيس ابن سينا .

طبع بمطبعة السعادة بمصر عام ١٣٢١ هـ ، ثم عام ١٣٥٧ هـ (١٩٢٨ م) .

٩ — « تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات » للشيخ الرئيس ابن سينا .

مطبعة هندية بالموسكى بمصر عام ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) ، ١٨٠ صفحة .

١٠ — « معيار العلم » للإمام محمد أبى حامد الغزالى .

تحقيق الدكتور سليمان دنيا .

دار المعارف بمصر — الطبعة الثانية ، عام ١٩٦٩ م ، ٤٠٠ صفحة .

١١ — « المباحث المشرقية فى علم الإلهيات والطبيعيات » .

للإمام فخر الدين الرازى .

الجزءان الأول والثانى ، عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) .

دائرة المعارف العثمانية — حيدر آباد الدكن بالهند

١٢ — كتاب « ما بعد الطبيعة » لأبى الوليد ابن رشد

دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن بالهند ، عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٥ م) ، ١٨٣ صفحة .

١٣ — « تفسير ما بعد الطبيعة » لأبى الوليد ابن رشد .

المطبعة الكاثوليكية ببيروت ، سنة ١٩٣٨ م ، ١٩٤٢ م .

١٤ — « تلخيص ما بعد الطبيعة » لابن رشد .

تحقيق وتقديم الدكتور عثمان أمين .

مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ، سنة ١٩٥٨ م ، ١٦٨ صفحة .

١٥ ـــ « جابر بن حيان » .
للدكتور زكى نجيب محمود .
سلسلة أعلام العرب ـــ ٣ ، مكتبة مصر بالقاهرة ، سنة ١٩٦١ م ، ٢٧١ صفحة .

١٦ ـــ « أصول الميكانيك فى الفكر العربى »
للدكتور جلال شوقى .

أسبوع العلم الثالث عشر بجامعة حلب سنة ١٩٧٢ م ، مطبوعات المجلس الأعلى للعلوم بدمشق سنة ١٩٧٤ م .

١٧ ـــ « تراث العرب فى الميكانيكا » .
للدكتور جلال شوقى .
عالم الكتب بالقاهرة ، سنة ١٩٧٢ م ، ١١١ صفحة .



في القرآن والعربية : (٣)

الصراع بين القراء والنحاة

للدكتور أحمد علم الدين الجندي

* في الهمز

٢ — ومن قضايا الهمز ، إذا اجتمع الهمزتان ازداد الثقل ووجب التخفيف ، ولها حالتان:

الأولى : — إما أن تكون الهمزتان في كلمتين .

الثانية : — أو تكون الهمزتان في كلمة واحدة .

فإذا كانت غير همزة استفهام وذلك مثل (أئمة) بهمزتين . فقد قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي «فقاتلوا أئمة الكفر»(٢) و«أئمة يهدون بأمرنا»(٣) و«نجعلهم أئمة»(٤) وغيرها من الآيات بتحقيق الهمزتين (٥).

وهذا مذهب من يميل إلى تحقيق الهمز من القبائل العربية ؛ لأن ثلاثة من القراء السابقين كوفيون ، والكوفة متأثرة بقبائل شرق الجزيرة كتميم وغيرها ، وهم يحققون الهمز ، ولهذا يكون سيبويه قد جانبه الصواب حيث قال : «إنه ليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتحققا» (٦) ويسير ابن جني في طريقه حيث يقول «فالهمزتان لا تلتقيان في كلمة واحدة إلا أن تكونا عينين نحو سئّال وسئّار (٧)..

لكن التقاؤهما في كلمة واحدة غير عينين لحن» فابن جني يحكم على القراءة باللحن — وهي سبعية (٨) .

وسيبويه وأكثر النحاة لا يجيزون تلك القراءة وهم محجوجون بقراءة الكوفيين في (أئمة) وبما سمعه أبو زيد عن بعض العرب «اللهم اغفر لي خطائئ» (٩) وعلى مثل هذا جاء :

فإنك لا تدري متى الموت جائىء
إليك ولا ما يحدث الله في غد (١٠)

(*) الحديث عن (الهمز) تتمة لما ورد في العدد السابق من المجلة

(٢) سورة التوبة آية ١٢

(٣) الأنبياء ٨٣

(٤) القصص آية ٥

(٥) النشر ١ / ٣٧٨

(٦) الشافية ٣ / ٦٥ والكتاب ٢ / ١٦٧

(٧) الخصائص ٣ / ١٤٣

(٨) كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ٣١٢

(٩) الشافية ٣ / ٥٨

(١٠) الخصائص ٣ / ١٤٣

كما وردت فى الآيات السابقة قراءات أخرى :

(١) أن تخفف الهمزة الثانية بجعلها بين الهمزة والياء (١).

(٢) أن تزيد ألفا بين الأولى والثانية(٢) كراهة اجتماع الهمزتين .

(٣) وآخرون من القراء يميلون إلى جعلها ياء خالصة نص على ذلك أبو عبد الله بن شريح(٣)

وقد رمى الزمخشرى هذه القراءة الأخيرة باللحن (٤) فقال « وأما التصريح بالياء فليس بقراءة ولا يجوز أن تكون ، ومن صرح به فهو لاحن محرِّف (٥) وقد رد عليه أبو حيان فى البحر (٦) بقوله « وذلك فى دأبه (يعنى الزمخشرى) فى تلحين المقرئين » ، ولكنها ثبتت قراءة فكيف تكون لحنا ؟ مع أمانة الرواية وصحة السند ، وقرأ بها رأس البصريين النحاة أبو عمرو بن العلاء ، وقارىء مكة ابن كثير وقارىء مدينة الرسول (ص) نافع ثم هى تصور لهجات القبائل العربية ومذاهبهم فى التحقيق والتسهيل ، وبين بين . وهذه القبائل نزل القرآن بلهجاتها ، والقراءات جاءت على لغة العرب قياسها (٧) وشاذها .

٣ ــ وفى سورة البلد آية (٢٠) « عليهم نار مؤصدة » قرىء بالواو والهمزة من أوصدت الباب وآصدته إذا أطبقته وأغلقته . وعن أبى بكر بن عياش « لنا إمام يهمز مؤصدة فأشتهى أن أسد أذنى إذا سمعته (٨) » ولعل سببه انحباس الهواء فى المزمار عند النطق انحباسا تاما ثم انفراج المزمار فجأة وهى عملية تحتاج إلى مجهود عضلى كبير مع أن الهمز قراءة سبعية(٩) ؛ فقد قرأ أبو عمرو وحمزه وحفص بالهمز وباقى السبعة بغير همز (١٠).

٤ ــ ورد فى مختصر شواذ القرآن لابن خالويه(١١) فى قوله تعالى « اشتروا الضلالة» (١٢) .

« أن همز الواو فيها لغة عن الكسائى وهو عند البصريين لحن » ، وتلك اللهجة التى جاءتنا عن الكسائى واعترف بها ، ورفضها البصريون لهجة قيسية كما فى المحتسب (١٣) ، ودليلها قول بعض العرب : « عصئوا الله ــ مهموزة » .

---

(١) الشافية ٣ / ٥٨
(٢) الشافية ٣ / ٥٨
(٣) النشر ١ / ٣٧٩
(٤) النشر ١ / ٣٨٠
(٥) الكشاف ١ / ٥٤٦
(٦) البحر ٥ / ١٥
(٧) البحر المحيط ٨ / ٤٩٣
(٨) الكشاف ٤ / ٤ ٦
(٩) كتاب القراءات السبعة لابن مجاهد سورة البلد
(١٠) البحر سورة البلد
(١١) ص ٢
(١٢) البقرة آية ١٦
(١٣) انظر ابن جني سورة البقرة آية ١٦

٥ ـــ جاء فى الجمهرة من أن بنى تميم يهمزون أحرفا مما كان على وزن (فَعْل) فى موضع العين من الفعل ألف ساكنة نحو : الفأس والرأس والكأس والرأل (١) . ولهذا يجب أن نكون على حذر مما جاء فى المصباح من أن بنى تميم تترك الهمز لزوما فى كلمة (ارأس)(٢) ومن التحقيق ما جاء فى المخصص عن الفارسى « أن تميما تهمز المأشار ـــ وغيرهم لا يهمزه(٣) وجاء فى ابن يعيش أن العجاج كان يهمز (العألم) (والخأتم) وهو القائل : (فخندف هامة هذا العألم) .

وعن أبى زيد أنه سمع عمرو بن عبيد يقرأ (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جأن) فظننته قد لحن حتى سمعت العرب تقول : دأبّة وشأبّة . .(٤) فى دابة وشابة وما ورد فى سر الصناعة يؤيد قلب الألف همزة ـــ ما حكاه اللحيانى عنهم (نأر)(٥) فى « نار » وهمز هذه الصيغ الأخيرة قد أفضى إلى تقسيم الحركة الطويلة إلى حركتين قصيرتين ، وهذا يوضح لنا كيفية هروب بعض اللهجات من الحركات الطويلة فى المقاطع المقفلة .

٦ ـــ يقول سيبويه « كل شىء كانت أوله زائدة سوى ألف الوصل من (رأيت) فقد اجتمعت العرب على تخفيف همزه (٦) وكأن سيبويه يشير إلى أن مشتقات تلك الصيغة لا تدخلها الهمزة ، وعلل ذلك أى عدم الهمز بقوله « وذلك لأنهم جعلوا همزة المتكلم فى أرى ـــ تعاقب الهمزة التى هى عين الفعل وهى همزة (أرأى) وكأنهم فروا من التقاء همزتين(٧) وأرى أن كلام سيبويه لا يثبت أمام الواقع اللغوى ، لأنه قد حكى عن العرب « قد أرآهم » وجاء فى التهذيب « زيد يرأى رأيا حسنا(٨) » وبيت سراقة البارقى :

أرى عينىَّ مالم ترأياه
كلانا عالم بالترهات (٩)

وقد رواه أبو الحسن : مالم ترياه على التخفيف ، ورواه أبو زيد فى نوادره « مالم تبصراه .(١٠) ولا شاهد حينئذ فيها ، وفى اللسان « مالم ترأياه » (١١) وقد رواه الأخفش « مالم ترياه (١٢) » ، وقد عزا اللسان همز الأفعال المستقبلة من هذه المادة (رأى) وهى :

يرى ، ترى ، نرى ، أرى ـــ إلى تيم الرّباب فيقولون : هو يرأى وترأى ونرأى وأرأى ، وإذا قالوا : متى نراك ؟ قالوا : متى نرآك ؟ مثل: نرعاك (١٣) ، وفى سر الصناعة : يرآك بوزن يرعاك ، وعلى ذلك جاء قول شاعرهم ، وهو للأعلم بن جرارة السعدى :

(١) الجمهرة ٢ / ٢٩٣
(٢) المصباح ٣٧٦
(٣) المخصص : س ١٠ ص ٢٨٧
(٤) ابن يعيش ١٠/١٣ ، سر الصناعة ١/٨٣ ط الحلبى
(٥) سر الصناعة ١/١٠٢ ط الحلبى
(٦) اللسان ١٩/٣
(٧) اللسان ١٩ / ٣
(٨) اللسان ١٩/٤
(٩) سر الصناعة ١/٨٦ ط الحلبى
(١٠) نوادر اللغة : لأبى زيد / ١٨٥
(١١) اللسان ١٩/٤
(١٢) المرجع السابق
(١٣) اللسان ٩/٥
(١٤) ١ / ٨٧

ألم تر ما لاقيت والدهر أعصرُ
ومن يتملّ العيش يرأ ويسمع(١)

ويمكن أن تثير رواية البيت على هذا الوضع شيئا من الشك، لأن الشاعر من الرّباب، وهم يهمزون كل مشتقات (رأى) ولهذا جاءت رواية اللسان:

ألم ترأ ما لاقيت والدهر أعصرُ
ومن يتملّ العيش يرأ ويسمع(٢)

وهى أصح لأن (ألم ترأ) فى أول البيت حينئذ تتناسب مع (يرأ ويسمع) فى عجزه، وأعتقد أن الهمز فى هذا ليس مقصورا على تيم الرّباب كما فى اللسان، بل يشمل المنطقة المجاوره لها ومنها تميم، وإذا علمنا أن الرّباب كانت موصولة النسب بتميم، وأن ديارها كانت على كثب منها (٣) — صح ما استنبطته من أن الهمز شمل تيما وتميما، ودليل آخر وهو أن الحجاز يتركون الهمز فى الأمر فيقولون: رَ ذلك، وللاثنين: ريا ذلك، وللجماعة: روا ذلك، وبنو تميم يهمزون كل ذلك فيقولون: ارأ ذاك وارأيا (٤)

والقرآن الكريم نرى فى صفحته آثار تلك اللهجات فى هذه الكلمة، فقد ذكر أبو حيان أنه نقل عن صاحب اللوامح «ألم ترأ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل(٥)» بسكون الراء على الأصل وعزاها لتيم (٦)، كما قرأ أبو عبد الرحمن «ألم ترْ كيف» ساكنة الراء، ويرى ابن جنى فى المحتسب (٧) أن بابه الشعر لا القرآن، ويراه القزاز (أى الهمز) ضرورة كقول الشاعر:

لعمرك إننى لأحب نجدا
وما أرأى إلى نجد سبيلا(٨)

وكأن الشاعر استعمل الأصل وهو الهمز فى الفعل. وهذا مثل قول الشاعر:

«فإنه أهل لأن يؤكرما (٩)»

كما قرأ قنبل وشبل من سورة العلق آية ٧ «أنْ رَأْه استغنى» بغير مد (البحر المحيط ٨ / ٤٩٣) وابن مجاهد يصف هذه القراءة بأنها غلط (كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد ص ٦٩٢، البحر ٨ / ٤٩٣) ولكن أبا حيان يرد عليه بقوله «وينبغى ألا يغلطه، بل يتطلب له وجها»، وقد حذفت الألف فى نحو من هذا قال:

«وصّ نِىَ الحجاج فيما وصّ نى»

يريد: فيما وصّانى فحذف الألف... وإذا صحت الرواية به وجب قبوله، والقراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها (البحر المحيط ج ٨ ص ٤٩٣) فأبو حيان يدافع عن القراءة بصحة الرواية، على أن النبر هنا نبر

(١) سر الصناعة ١ / ٨٧، شرح الشافية ٤ / ٣٢٣
(٢) اللسان ١٩ / ٥
(٣) معجم قبائل العرب ٢ / ٤١٥
(٤) اللسان ١٩، ٥
(٥) سورة الفيل آية ١
(٦) البحر ٨ / ٥١٢
(٧) ٢ / ٣٧٣
(٨) ما يجوز للشاعر فى الضرورة للقزاز لوحة ٥٥
(٩) الأشمونى ٤ / ٣٤٧، المقتضب ٢، ٩٨

ثوتر وهو فى قبائل شرق الجزيرة وتمثله تميم وجيرانها ، وهو يكمن فى الهمز ، وأما قراءة العامة (أن رآه) فالنبر فيها نبر طول وهو فى الحجاز .

٧ — عزى إلى هذيل أنها تبدل الواو المكسورة المصدرة همزة فيقولون « إشاح فى معنى وشاح (١) » ، الدة فى ولدة (٢) » قال الهذلى :

له إلدة سفع الوجوه كأنما
يصفعهم وعك من الموم ماهن(٣)

كما يقولون « إعاء فى وعاء » (٤) وشاهده قول الأعلم :

هوزاء مثل بعلك مستميت
على ما فى إعائك كالخيال (٥)

وعلى لغة هذيل تلك قرأ ابن جبير قوله تعالى « ثم استخرجها من وعاء أخيه (٦) » (إعاء) بإبدال الواو المكسورة همزه (٧) ، ولهذا أرجح أن الدكتور شوقى ضيف قد ألبس عليه حين قال « وكانت قبيلة هذيل تقــول « وشاح » بدلا من « إشاح (٨) » ولكننى أرجح العكس .

ولم يقتصر الأمر على الواو المكسورة بل وردت شواهد على إبدال الواو المضمومة همزة فى شعر معقل بن خويلد ومالك بن خالد الخناعى وهما من هذيل (٩) . ويرى ابن جنى أن همز (وُعاء) بالضم أقيس من همز المكسور الواو ، على أنه يلاحظ أن قراءة (إعاء) ذكرها ابن جنى فى شواذ القراءات (١٠) .

٨ — وقرأ قوم (إسل بنى إسرائيل) البقرة ص ٢١١ وأصله : اسأل . وهى لهجة عبد القيس (١١) فنقل حركة الهمزة إلى السين وحذف الهمزة التى هى عين . ولم تحذف همزة الوصل ، لأنه لم يعتد بحركة السين لعروضها وفى هذه القراءة انتقل موقع النبر إلى المقطع الأول وقال صاحب التصريح (١٢) « ولم يحك ذلك أحد من البصريين » على حين اعترف بها وحكاها لغة لهم الكسائى والفراء « التصريح على التوضيح ٢/١ . ٤٠ ليس فى كلام العرب لابن خالويه ص ١٢ وهذا يؤكد أن رواية الكوفيين عن العرب قاعدتها أوسع ، ودائرتها أشمل .

٩ — ونعرض الآن لصيغة (مهموزة) أصابها التشويه فى بنيتها حيث حرفت فى المصادر المختلفة ونسبت لهجة لقبيلة هذيل .

فقد ورد فى شعر أبى خراش الهذلى :

جمعت أموراً ينفذ المرّ بعضها
من الحلم والمعروف والحسب الضخم (١٣)

---

(١) الجمهرة ٢/١٦١ (٢) ابدال السكيت ٥٧ (٣) ديوان هذيل ٣/٤٩ دار الكتب
(٤) عبث الوليد ١٨٣ دمشق (٥) ديوان هذيل ٢/٨٣ (٦) سورة يوسف آية ٧٦
(٧) البحر المحيط سورة يوسف آية ٧٦ (٨) تاريخ الأدب العربى ١/١١٤ ط أولى
(٩) ديوان الهذليين ٣/٤ ، ٦٥
(١٠) المحتسب فى شواذ القراءات ١/٣٤٨ ط المجلس الأعلى . والوعاء ما يحفظ فيه المتاع ويصان .
(١١) البحر ٢/١٢٦ ، ليس فى كلام العرب ٦٨ (١٢) ٢ / ٤٠١
(١٣) ديوان الهذليين ٢ / ١٥٣

وعقّب الشارح عليها قائلا :

المرّ — لغتهم . وفى اللسان (١) ساق البيت السابق وضبطه (المِرء) بكسر الميم وبالهمز ، ثم عقب عليه « هكذا رواه السكرى بكسر الميم وزعم أن ذلك لغة هذيل (٢)».

وأمام هذا التناقض قمت باحصائية فى ديوان هذيل متعقبا كلمة (المرء) فيه وهى :

ا — (المرّ) وردت مرة واحدة من غير همز وبالتشديد ، فى شعر أبى خراش الهذلى(٣)

ب — (المرء) وردت مرة واحدة فى شعر أبى خراش فى الشاهد السابق ، بكسر الميم وبالهمز .

جـ — (المرء) ضبطت فى نسخة بكسر الميم وفتحها مع الهمز (٤)

د — (المرء) وردت عشر مرات بفتح الميم وبالهمز على المهيع الفصيح فى شعر أسامة ابن الحارث الهذلى (٥) ، والمتنخل الهذلى(٦) ، والمعطل (٨) ، ومعقل بن خويلد (٩) وساعدة ابن جؤية (١٠) والأعلم فى مكانين من الديوان (١١) وأبى خراش (١٢) ، وأبى المثلم الهذلى (١٣) وأبى العيال الهذلى (١٤)

ثم اتجه البحث إلى القرآن المعجز فى قراءاته فوجد قراءة للحسن والزهرى « بين المرّ وقلبه » من غير همز وبالتشديد (١٥) وقراءة للزهرى وقتادة « بين المرّ وزوجه » (١٦) من غير همز وبالتشديد (١٧)

ولكن ما الصلة التى بين الحسن والزهرى ، وبين هذيل حتى تتمثل فيهما لهجتها ؟ تفيدنا كتب الطبقات أن ابن شهاب الزهرى ينسب إلى زهرة بن كلاب وينتهى نسبها إلى قريش ، وهو من حفاظ المدينة (١٨) ، وأما الحسن البصرى فبعد لأى عثرت على رواية أضاءت لى معالم البحث — فى تاج العروس (١٩) مفادها أن الحسن قال يوما أمام جلسائه: « توضيت » بالياء فقيل له : أتلحن يا أبا سعيد ؟ فقال : إنها لغة هذيل ، وفيهم نشأت .

وامام هذا التقصى أرجح :

(ا) أن — المرء — بكسر الميم وبالهمزة ليست لهجة هذلية ، لأنها جاءت فى ديوانهم فى البيت نفسه من غير همز وبالتشديد ، وحين جاءت فى غير الديوان بالهمز وكسر الميم (زعم

---

(١) ١/١٥٠
(٢) أنظر التاج (مرأ) والخزانة ٣١٩/٢
(٣) ديوان الهذليين ٣٨٤/١
(٤) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣٨٤/١
(٥) ديوان الهذليين ٢٠٢/٢
(٦) الديوان ١٧/٢
(٧) الديوان ٤٤/٣
(٨) الديوان ٣ / ٦٥ هامش
(٩) الديوان ١ / ١٩١
(١٠) الديوان ٢ / ٧٠ ، ٨٣
(١١) ١٥٠/٢
(١٢) الديوان ٢ / ٢٦
(١٣) الديوان ٢ / ٢٥٣
(١٤) الأنفال : ٢٤
(١٥) البحر : ٤٨٢/٤ ، المحتسب : ٣٢٤/١ تيمور
(١٦) البقرة : ١٠٢
(١٧) مختصر شواذ القرآن لابن خالويه : ٨ ، المحتسب : ١٠٣/١
(١٨) صفة الصفوة : ٧٧/٢ وتذكرة الحفاظ : ١٠٢/١
(١٩) ١٣٤/١

الراوي أنها لغة هذيل) فالرواية لم تفارق منطقة الزعم والظن ، والظن لا يغني من الحق شيئا ، ومحال أيضا أن ينطق أبو خراش الهذلي بصورتين مختلفتين ، بالهمز وبدونه .

(ب) أن — المرء — بفتح الميم وبالهمز وهي الفصحى ، ليست لهجة هذيل أيضا ، لأن كتابة الديوان وقعت تحت تأثير الفصحى ، فصقلت وهذبت . كما نرجح أن هذا الخلط في المواد اللهجية سببه أن هذه المواد اللهجية — حين عبرت التاريخ الطويل على أيدي الرواة — لم يكن السبيل إلى نقلها التلقي والمشافهة، بل كان السبيل وحده هو التخمين والاجتهاد وتفاوت الذوق بين الرواة ،ولهذا أصيبت بالمسخ والخلط حتى أن ديوان القبيلة — وهو الأثر الباقي من دواوين القبائل — لم يسلم من هذا العبث وسبق أن أثار الدكتور ابراهيم أنيس في كتابه اللهجات العربية (١) نقدا بناء حول هذا .

(ج) أن — المرّ — من غير همز بالتشديد هي لهجة هذيل ، يؤيد هذا أن الحسن البصري قرأها ، وقد أثبت أن الحسن البصري نشأ في ديار هذيل ، فانعكس على نطقه بعض لهجاتها .

(د) أن هذيلا تقع في منطقة الحجاز ، فالتأثير والتأثر ، والأخذ والعطاء قائم بينهما ولهذا تلقفها عنهم ابن شهاب الزهري ، والمدني الحجازي ، وكثيرا ما قرن الفراء الحسن البصري من أهل الحجاز في عدم همز بعضهم الصيغ(٢)

ويرى ابن جني في تحليله للهجة هذيل (المرّ) بتشديد الراء وعدم الهمز : « أن يكون أراد تخفيف المرء على قراءة الحسن وقتادة ، إلا أنه نوى الوقوف بعد التخفيف ، فصار (المرّ)ثم ثقل للوقف على قول من قال : هذا خالدّ ، وهو يجعلّ،ومررت بفرجّ، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف فأقر التثقيل بحاله ، كما جاء عنهم قوله .

ببازل وجناء أو عَيْهَلِّ
كأن مهواها على الكلكلِّ

يريد : العيهلَ والكلكلَ وكبيت الكتاب:
(ضخما يحب الخلق الأضخما)

فيمن فتح الهمزة، يريد الأضخم فثقل ثم أطلق ثم يقول ابن جني: وفي هذا « شذوذان،أحدهما الثقيل في الوقف، والآخر إجراء الوصل مجرى الوقف ، لأنه من باب ضرورة الشعر» (٣)

فابن جني رفض هذه القراءة وحملها على الشاذ لأنه وقع تحت سطوة القواعد ومعياريتها فحملها على الضرورة بدليل أنه خرج هذه القراءة التي مثلت لهجة هذيل على باب الشعر .

أما الحديث عن لهجة هذيل من الجانب الصوتي فيكاد ينحصر في سقوط الهمزة وإلقاء حركتها على ما قبلها فينتقل النبر إلى المقطع الأول من الكلمة ويضعف الساكن السابق عليها وهذا النبر في الكلمة نبر توتر وهو في هذيل كما أثبتنا .

١٠ — وفي قوله تعالى « تلك إذاً قسمة ضيزى (٤) » يقول الفراء في معاني القرآن(٥) « والقراء جميعا لم يهمزوا ضيزى ... » ثم يؤكد

---

(١) ٤٤ ط ٣ (٢) معاني القرآن للفراء : ٢/٣٠٦ (٣) المحتسب لابن جني ١/١٠١ المجلس الأعلى .
(٤) سورة النجم ٢٢ ، يعني : جائرة أو منقوصة مخالفة أو غير مستوية ، وجميعها متقاربة في المعنى.
(٥) ٣/٩٨

ذلك مرة أخرى بقوله « ولم يقرأ بها - أى بالهمز - أحد نعلمه » وعجبنا من الفراء ، فقد جاء عن أبى حيان (١) « وقرأ الجمهور ضيزى من غير همز » ، والظاهر أنه صفة على وزن فعلى بضم الفاء ، كسرت لتصح الياء ، ويجوز أن تكون مصدرا على وزن فعلى كذكرى ووصف به » وفى النشر (٢) أن ابن كثير قرأ ضئزى - بالهمز ، ووجهه أنه مصدر كذكرى ، ويؤكد ما جاء فى النشر :

١ - ما جاء فى السبعة (٣) لابن مجاهد ، حيث قرأ ابن كثير بالهمز .

٣ - ما ورد عن الكسائى من قوله ضاز يضيز ضيزى ، وضاز يضوز ضوزى ، وضأز يضأز ضأزا (٤) .

٣ - ما أنشده الأخفش :

فإن تنأ عنها تقتضيك وإن تغب
فسهمك مضؤوز وأنفك راغم(٥)

٤ - وما ورد فى المخصص(٦) عن أبى زيد أنه سمع رجلا من (غنىّ) يقول « هذه قسمة ضئزى » بالهمزة ، ولهذا نعجب من أبى حاتم أيضا حيث جاء عنه « لا يجوز الهمز فى ضئزى لأنها إذا همزت صارت صفة ، و فعلى لاتكون صفة » ولو كانت مهموزة لكانت ضُؤْزى » فأبو حاتم ينكر الهمز مع وروده فى قراءة سبعية ، كما أنه سمع من قبيلة عربية وهى (غنىّ)

احمد علم الدين الجندى



---

(١) البحر المحيط ٨/١٦٢
(٢) ٢/٣٩٥ (٣) كتاب السبعة ٦١٥
(٤) البحر المحيط ٨/١٥٤ (٥) البحر ٨/١٦٢
(٦) ١٢/٢٠٩



شرح مقامات الحريري لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي

تحقيق : الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم

تعريف ونقد : الأستاذ محمد عبد الغني حسن

(١)

ديباجة

بنا إلى أن نقول هنا شيئاً عن « مقامات الحريرى » ، وابتداع فن المقامات فى الأدب العربى، ومنشئ المقامات غير الحريرى إلى عصرنا الحديث ، واهتمام المستشرقين بمقامات الحريرى وترجمتهم لها ، أو شروحهم عليها ، بعد المقدمة الجليلة التى صنعها الأستاذ المحقق الكبير محمد أبو الفضل إبراهيم ، والتى استعان فى معارفها - فيما يختص بعلماء الاستشراق - بما كتبه إليه المستشرق الباحث العلامة الدكتور أرنست بانرت أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة فينا بالنمسا .

والحق أن الترجمة التى صنعها الأستاذ المحقق للحريرى صاحب المقامات هى - على إيجازها - من أدق ما يكتب عن الرئيس أبى محمد القاسم المعروف بالحريرى ، كما أن الفصل عن شروح مقامات الحريرى يعد من أوعى الفصول عن هذا الموضوع الذى لم يترك فيه المحقق مجالا لقائل ، ولا سؤالا لسائل . أما الترجمة الوجيزة لأبى العباس الشريشى صاحب الشرح الذى نهض الأستاذ أبو الفضل بعبء تحقيقه ونشره ، والتى نقلها عن « نفح الطيب » للمقرى فهى كافية للتعريف بهذا الشارح الشاعر الأديب المتبحر الكثير الاستطراد ، الذى كان قد رحل من الأندلس إلى المشرق ، فزار الشام ، وشغف بها ، فلما رحل عنها قال أبياتاً فى التشوق إليها يقول فيها :

يا جيرة الشام : هل من نحوكم خبر ؟
فإن قلبى بنار الشوق يستعر
بعدت عنكم ، فلا والله بعدكم
ما لذ للعين لا نوم ، ولا سهر
إذا تذكرت أوقاتاً نأت ، ومضت
بقربكم كادت الأحشاء تنفطر
كأننى لم أكن « بالنيربين » ضحى
والغيم يبكى ومنه يضحك الزهر
والورق تنشد ، والأغصان راقصة
والدوح يطرب بالتصفيق ، والنهر

ولقد سبق لشرح المقامات للشريشى أن نشر مطبوعاً فى بولاق سنة ١٣٠٠ هـ بتصحيح محمد الحسينى، وهى نسخة نفدت من زمان طويل، وبات الباحثون والأدباء ينتظرون طبعة جديدة

لهذا الشرح على أساس من التحقيق العلمي الحديث، ومقابلات النسخ المخطوطة . فنهض الأستاذ المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم بهذا العبء - وهو كفء له، وقادر عليه، بما عودنا من تحقيقات دقيقة لكتب كثيرة - ورجع إلى النسخة المطبوعة في بولاق فجعلها من مصادر تحقيقه، كما رجع إلى نسخ خطية ثلاث أخرى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت أرقام مختلفة، بعضها كامل، وبعضها ناقص .

وعلى الرغم مما بذله المحقق الفاضل الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم من جهد في التحقيق، وقعت بعض أوهام في الضبط ووزن الشعر ورسمه وأسماء الأعلام ونسبة الشعر إلى أصحابه الحقيقيين، نرى من الوفاء للعلم، والبر بالبحث أن نشير إليها هنا، وفاء لصاحبنا المحقق الفاضل، وإنصافا للحق الذي عودنا دائما أن يستمع له، ويصغى إليه . وبالله التوفيق :

* صفحة ٢ من مقدمة المحقق - السطر الثاني عشر، ورد اسم (الحجاج بن يوسف القضاعي) من علماء الأندلس الذين وفدوا من المغرب على الحريري وقرءوا عليه مقاماته . وفي الاسم وهم، وصوابه : (أبو الحجاج يوسف القضاعي) كما ورد صحيحا في كلام الشريشي نفسه صفحة ٥ من الشرح .

* صفحة ٦ من مقدمة المحقق - السطر الأول أن بطل المقامات أبا زيد السروجي هو كنية لرجل حقيقي اسمه « المطهر بن سلام » بالميم في آخره . وفي هامش صفحة ٢٧ من الشرح نفسه أن اسمه « المطهر بن سلار » بالراء في آخره . والذي نعرفه أن هذا الاسم ورد في الجزء الثالث من (أنباه الرواة) للقفطي الذي حققه الأستاذ أبو الفضل هكذا : المطهر بن سلار، بالراء في آخره ص ٢٧٦ . ولما ترجم له صديقنا العلامة الكبير المرحوم خير الدين الزركلي في «الأعلام» جعله بالراء كذلك، وقال في الهامش : (سلار ككتان، كلمة أعجمية، أظنها : سالار، بزيادة الألف، وهي بالفارسية الرئيس المقدم، ثم حذفت وشددت اللام) ومن هنا يتضح أن إيرادها بالميم في ص ٦ من مقدمة التحقيق وهم لا سند له .

* صفحة ٨٧ — ذكر المحقق أن الأبيات التي أنشدها أبو علي :

لا تفخرن بلحية	كثرت منابتها طويله
يهوى تفرقها الريا	ح كأنها ذنب الحسيله
قد يدرك الشرف الفتى	يوما، ولحيته قليله

هي في « اللسان » من غير نسبة إلى صاحبها، وفات المحقق الفاضل أن يذكر هنا أنها في صفحة ٢٨٢ من « الأمالي » لأبي علي القالي منسوبة إلى أبي العتاهية .

* صفحة ٩٦ — السطر الخامس، ورد البيت الآتي من شعر البحتري هكذا :

حملت عليه السيف، وعطفك ما انثنى
ولا يدك ارتدت، ولا حده نبا

وصدر البيت مضطرب مكسور الوزن وصوابه كما في ديوان البحتري :

حملت عليه السيف ، لا عطفك انثنى
ولا يدك ارتدت ، ولا حده نبا

* صفحة ١٠٠ — السطر الخامس عشر ، ورد البيت الآتى مضبوطا بالشكل هكذا :

وتبسم عن لؤلؤ كالوليع
تشقق عنه الرقاة الجفوفا

وتشديد السين المهملة ، وكسر الميم من الفعل : تبسم ، خطأ وصوابه :

وتبسم بكسر السين ، وضم الميم . والواقع أن ضبط المحقق لها بتشديد السين يوهم أن اللفظة مصدر ، مع أنها فعل مضارع .

* صفحة ١٠٩ — السطر الخامس : ورد البيت الآتى مرسوما هكذا :

وأحسن ما فى الوجوه العيو
ن وأشبه شىء بها النرجس

وهذا الرسم ، بجعل نون العيون فى الشطر الثانى ، يخالف الوزن ويكسره . وحق النون أن تكون فى آخر الشطر الأول ، لأن البيت من البحر المتقارب ، وهذا الرسم يكسره .

* صفحة ١١٨ — السطر الأول ، ورد البيت الآتى هكذا :

بعثت إليه بعــذره
من خاطرى أو فى السرور
لا تعــذلوه فأنمــا
أهدى الخدود إلى الثغور

وضبط التاء من الفعل « بعثتُ » وإسناده إلى تاء المتكلم خطأ ، وصوابه : بعثتْ بإسكان التاء ـ وهى تاء التأنيث لا تاء المتكلم . ومن حسن الحظ أن المحقق الفاضل قد صوبها فى جدول الأخطاء الملحق بذيل الكتاب ، وهو جدول ناقص ، فقد فات الأستاذ أبا الفضل تصويب أوهام أخرى كثيرة .

* صفحة ١٢٢ — السطر الثامن عشر ، ورد البيت الآتى هكذا :

بداهته مثل تفكيره
متى تلقه فهو مستجقع

بالقاف فى الكلمة الأخيرة من البيت ، والصواب أنها : « مستجمع » بالميم .

* صفحة ١٢٦ — الهامش ، وردت هذه العبارة : (لم يرد البيتان فى ديوان المطبوع) والصواب : (فى ديوانه المطبوع) .

* صفحة ١٢٩ — السطر الثالث ، ورد فى متن الشارح هذه النسبة : (ولابن الجد) ، ولم يذكر لنا المحقق شيئا عن « ابن الجد » هذا مع حرصه على التعريف الوجيز ببعض المغمورين كما صنع فى ص ١٢٤ — مثلا — حين عرفنا « بابن لبال » وهو أحد شراح مقامات الحريرى . أما ابن الجد فهو من أهل الأندلس . وانظر بعض أخباره فى « المغرب » ج١ ص ٣٤١ ، وفى « الصلة » لابن بشكوال ص ٥١٤ ، وفى ديوان ظافر الحداد ص ١٣

* صفحة ١٥٤ — السطر الثامن عشر ، وردت هذه العبارة : (فوالله ما علمته إلا ضيق الطعن)

وهو خطأ صوابه :(العطن) أى الصدر ، بتقديم العين المهملة على الطاء المهملة .

* صفحة ١٩٦ — السطر الأخير ، ورد البيت الآتى من شعر ابن لبَّال هكذا :

كأننى ـ والعصا تدب معى ـ
قوسها ، وهى فى يدى وتر

وعجز البيت مكسور مختل الوزن لأن به نقصا لم يصححه المحقق ، وصوابه :

كأننى ـ والعصا تدب معى ـ
قوس لها ، وهى فى يدى وتر

* صفحة ٢٤٠ — السطر السادس عشر ، ورد اسم « عريف القوافى » بالراء ،وصوابه : عويف بالواو . وهو عوف بن معاوية بن عقبة ، وكان شاعرا من أشراف قومه ، وطارت شهرته فى الدولة الأموية بالشام ، وخاصة بمدائحه فى الوليد بن عبد الملك ، وأخيه سليمان ، وعمر ابن عبد العزيز ، وتوفى فى نحـــو سنة مائة من الهجرة .

* صفحة ٢٥٦ — السطر السابع عشر ، ورد البيت الآتى لبعض الشعراء من ثلاثة أبيات ، مضبوطا بالشكل الآتى :

وحلة كساها كالحلى فى التهابه
فاستبطنت مديحا كالآرى فى نصابه
فراح فى ثيابى ورحت فى ثيابه

بضبط لفظة (كالحلى) فى البيت الأول بتشديد الياء ، وهو خطأ به ينكسر الوزن ، والصواب : كالحلي، بفتح الحاء ، وسكون اللام،

* صفحة ٢٦١ — الهامش ، علق المحقق الفاضل على البيت الآتى :

وعزمة بعثتها همة زحل
من تحتها بمكان الترب من زحل

بقوله : (لم أجده — يعنى هذا البيت — فى ديوانه ـ يعنى ديوان أبى الطيب كما ذكره الشارح الشريشى ـ كما لم أجده فى شعر أبى طالب المتنبى الأندلسى ، فيما أورده ابن بسام فى الذخيرة ، وعلى بن سعيد فى المغرب ...) ، وأقول : لا داعى لهذا العناء والبحث فى كتب الأدب الأندلسى عن قائل هذا البيت ، فأنه من شعر أبى الطيب المتنبى ـ كما قال الشريشى ـ وهو مثبت فى كل طبعات ديوانه ، وهو من قصيدة المتنبى التى مطلعها :

* أعلى الممالك ما يبنى على الأسل *

وانظر ديوان المتنبى شرح عبد الرحمن البرقوقى جـ٢ ص ٣٨ ، وانظر أيضا مختارات البارودى ، جـ٢ ص ٣٧

* صفحة ٢٧٩ — السطر العـــاشر ، ورد البيتان الآتيان :

إذا لم يعنك الله فيما تريده
فليس لمخلوق إليه سبيل
وإن هو لم يرشدك فى كل مسلك
ضللت ، ولو أن السماك دليل

منسوبين لأبى نواس، بالنون والواو ، وهو خطأ مطبعى — لا خطأ من الشريشى شارح

المقامات - وصوابه : لأبي فراس ، بالفاء والراء ، وهو أبو فراس الحمداني المشهور ، والبيتان في ديوانه ص ١٥١ .

* صفحة ٢٨٢ - السطر الثامن عشر ، وردت لفظة « إبالة » في البيت الآتي مضبوطة بالشكل بتشديد الباء هكذا :

في كل يوم من ذؤاله
ضغث يزيد على إبّالة

والصواب هنا : إبالة ، بفتح الباء من غير تشديد . فهي : الأبالة بالتشديد ، والإبالة بالتخفيف ، والأبيل ، والأبيلة . ويجب أن تكون في البيت مخففة ليستقيم الوزن ، فأن ضبطها بلغة التشديد يكسر الوزن . ومن حسن الحظ أن المحقق الفاضل تنبه لهذا الوهم فصوبه في جدول الخطأ والصواب بآخر الكتاب .

* صفحة ٢٨٣ - السطر الخامس ، وردت هذه العبارة هكذا : وقال ذو الرمة في الخمر :

رمى فأخطأ ، والأقدار غالبة
فانصعن ، والويل هجيراه والحرب

بأعجام الخاء من كلمة « الخمر » - كأنها الشراب المسكر - والصواب : الحاء المهملة بغير نقط ، وهي : الحمر ، جمع حمار ، الحيوان المعروف انظر الشوامخ للدكتور محمد صبري ص ٣٤ .

* صفحة ٢٨٨ - السطر التاسع ، ورد البيتان الآتيان المرويان لحسان بن ثابت الأنصاري شاعر الرسول عليه السلام هكذا :

إن يأخذ الله من عيني نورهما
ففي لساني وقلبي منهما نور
قلب ذكي ، وعقل غير ذي دخل
وفي قلبي صارم كالسيف مأثور

والشطر الأخير من البيتين مكسور ، وخطأ في الراوية ، وصوابه كما في ديوان حسان ابن ثابت صفحة ١٢٨ ، شرح محمد العناني :

قلب ذكي ، وعقل غير ذي دخل
وفي فمي صارم كالسيف مأثور

ومع رجوع المحقق الفاضل إلى ديوان حسان ص ١٦ للتأكد من الرواية ومن وجود الشعر ، فإنه قد حرف النص ، ولم يقومه فبدا على غير أصله .

* صفحة ٣٠٤ - السطر الثاني عشر ، ورد البيت الآتي مضبوطا بالشكل هكذا :

كأنه لون خدي حين تدفعني
كف « الرشيد » لأمر يوجب الغسْلا

بإسكان السين المهملة من كلمة الغسْل ، والصواب تحريكها بالضم ، لأن البيت قبلها الذي نظمت جارية « الرشيد » على غراره هو :

كأنه خد معشوق يقبله
فم الحبيب ، وقد أبقى به خجلا

وتحريك السين هنا في لفظة « الغسل » هو إحدى الضرورات الشعرية التي لا يلجأ إليها الفحول من الشعراء .

* صفحة ٣٢٤ ـــ السطر السادس عشر ، ورد بيتان نسبهما المحقق الفاضل وهماً إلى جرير الشاعر . وعلق المحقق عليهما بقوله : (لم يرد البيتـــان فى ديوانه) يعنى ديوان جرير . والبيتان هما :

كأنما خلقت كفاه من حجر
فليس بين يديه والندى عمل

يرى التيمُّـم فى بر ، وفى بحر
مخافة أن يرى فى كفه بلل !

وبالطبع لن يجد المحقق الفاضل هذين البيتين فى ديوان جرير ، ولو ظل يبحث عنهما إلى أبد الآبدين! فالبيتان للشاعر «حزين الدؤلى»، وليسا للشاعر جرير . وقد ورد البيتان منسوبين إلى قائلهما الصحيح : الحزين ، أو حزين الدؤلى ، أو الديلى ، فى «المؤتلف والمختلف» للآمدى ص ٨٨ ، ٨٩ . أما ورودهما فى الأمالى ، وفى شرحه للبكرى ، وفى شرح المقامات للشريشى منسوبين إلى جرير ـــ أو الجرير ـــ الدؤلى فهو وهم تنبه إليه العلامة المحقق الكبير عبد العزيز الميمنى أستاذ العربية بجامعة عليكرة بالهند ، وصححه فى «سمط اللآلى» ص ١٩٤ من طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٣٦ . والشاعر «الحزين الديلى» من شعراء العصر الأموى ، وكان هجاء خبيث اللسان يتكسب بالاستطالة على الناس بأهاجيه .

* صفحة ٣٤٢ ـــ السطر السادس . ورد البيت الآتى :

إذا لم أجد فى بلدة ما أريده
فعندى لأخرى عزمة وركاب

منسوبا إلى الشاعر أبى الطيب المتنبى . وقد وهم الشريشى شارح المقامات فى هذه النسبة. والحق أن البيت لأبى فراس الحمدانى ، وليس لأبى الطيب . وكان واجبا على المحقق الفاضل أن يصحح هذا الوهم . ولكن يبدو أنه اطمأن إلى الشريشى ووثق به فى النسبة فأوقعه فيما وقع هو نفسه فيه ...

وهذا البيت هو من القصيدة البائية لأبى فراس التى مطلعها :

أما لجميل عندكن ثواب ولا لمسىء عندكن متاب

* صفحة ٢٦٥ ـــ السطر السادس، وردت لفظة «السجن» فى البيت الآتى :

وأزور السِّجن لولا حاكم الأسكندرية

مجرورة بالكسرة، والصواب نصبها بالفتحة. وهى من أوهام الطبع ، ولم تصحح فى ذيل الكتاب .

* صفحة ٢٦٩ ـــ هامش الصفحة . ورد فعل : «يستبسلها» بسين وسين ، كأنه من البسالة والاستبسال . وهـــو وهم مطبعى ، والصواب : يستبيل ، أى يأخذ بول الإبل بيده.

* صفحة ٣٨٥ ـــ بالهامش . جاء أن هجاء ابن أبى نعيم للقاضى يحى بن أكثم هو فى ديوانه ـــ يعنى ديوان ابن أبى نعيم ... فمن ابن أبى نعيم هذا ؟ وأين ديوانه الذى يذكر المحقق الفاضل أن هجاء القاضى يحى بن أكثم فى جزئه الثانى

ص٣٠٢ ؟ وكنت أرجو أن يقف المحقق الفاضل وقفة قصيرة عند التهم الشنيعة التي اتهم بها القاضي ابن أكثم لعله يدفعها عنه أو يخفف من غلوائها، كما فعل في تحقيقه لكتاب «ثمار القلوب» للثعالبي حين ذكر في هامش صفحة ١٥٨ أن ابن خلدون في المقدمة قد فند ما نسب إلى يحيى بن أكثم من اللواط الذي اشتهر به حتى صار يقال في الإضافات المشهورة : « لواط يحيى بن أكثم » . وفي الجزء الثاني من « طبقات الحنابلة » دفاع كريم عن هذا القاضي الذكي المتقدم في الفقه وأدب القضاة ، والذي اتصل بالمأمون العباسي ، فولاه منصب قاضي القضاة ، وأمر بألا يحجب عنه ليلا ولا نهارا ، وأفضى إليه بأسراره ، وشاوره حتى في خاص أموره ...

* صفحة ٢٨٦ — السطر الحادي عشر ، ورد البيت الآتي هكذا :

وكنا نرجى أن نرى العدل بيننا
فأعقبناه بعد الرجاء قنوط

بزيادة هاء في آخر الفعل : فأعقبنا . وهي زيادة لا محل لها ، فوق أنها تكسر وزن البيت، والصواب حذفها ، فيصبح البيت هكذا :

وكنا نرجى أن نرى العدل بيننا
فأعقبنا بعد الرجاء قنوط

* صفحة ٤٠٣ — السطر العاشر ، ورد البيت الآتي من شعر ابن خفاجة الأندلسي الذي يعرف أيضا بالخفاجي ، هكذا :

كم دمع عين فيك قد أجريته
وقلب صب فيك قد طارا

وصدر البيت مكسور لزيادة لفظ فيه ، وهو (قد) ؛ وهي زيادة لا أدري إن كانت من الناسخ أم من المحقق ، أم من الطابع . ولكن المحقق — على كل حال — لم يصححها ، والصواب حذف : قد ، ليصبح البيت هكذا :

كم دمع عين فيك أجريته
وقلب صب فيك قد طارا

وواضح بالطبع أن « قد » تحذف من الصدر ، ولكنها تبقى في العجز . والبيت من بحر السريع .

* صفحة ٤٠٤ — السطر الرابع ، ورد البيت الآتي من شعر العباس بن الأحنف في طيب رائحة الفم ، هكذا :

وتذكرت بالتفاح منك سوالفا
وبالراح طعما من مقبلك العذب

وواضح أن الصدر مكسور ، لزيادة « الواو » على الفعل : تذكرت وهي زيادة لا محل لها . ولعلها من أوهام الطبع ، ولكنها لم تصحح في ثبت التصويبات بآخر الكتاب .

* صفحة ٤٠٤ — السطر الحادي عشر ، وردت الأبيات الآتية من شعر أحمد بن محمد الغساني هكذا :

له مبسم برقـــه خاطف
عقول الرجال إذا ما ابتسم

أقـــول له إذ بدا دره
شهدنا لصانعه بالحكم

أرى الدر يثقبه الناظمون
وما ثقبوا إذا فكيف انتظم ؟!

وواضح أن الشطر الأخير من الأبيات الثلاثة مختل الوزن ، مختل المعنى . لأن كلمة « إذا » لا معنى لها هنا ، والصواب : (ذا) بدون همزة ، أى هذا التى هى اسم اشارة . وبذا يصبح البيت الأخير هكذا :

أرى الدر يثقبه الناظمون
وما ثقبوا ذا فكيف انتظم ؟

* صفحة ٤٠٦ ـــ السطر الرابع ، ورد البيت الأول من شعر عكاشة بن عبد الصمد هكذا :

سقيا لمنزلنا الذى كابه
يوم الخميس عشية أصحابا

وجلىّ أن (كابه) لا معنى لها ، وأنها تحريف مطبعى لم يصححه فى ثبت التصويب ، وصوابه : كنا به وبذا يصبح البيت هكذا :

سقيا لمنزلنا الذى كنا به
يوم الخميس عشية أصحابا

* صفحة ٤٠٦ ـ السطر الحادى عشر ، ورد البيت الآتى من شعر بعض الشعراء هكذا :

كأن بنانها أقلام عاج
مرصعة الرأس بآبنوس

بإفراد كلمة « الرأس » . والبيت على هذا مكسور الوزن ، وصوابه الرؤوس بصيغة الجمع لا المفرد . وبذا يصير البيت هكذا :

كأن بنانها أقلام عاج
مرصعة الرؤوس بآبنوس

* صفحة ٤٠٧ ـ السطر الثانى عشر ، ورد البيت التالى من شعر ابن لبال القاضى هكذا :

فقالت ولم تكذب خشيت سقوطه
وأومت إلىّ فيها فنظمته ثغرا

بتشديد الياء من لفظة (إلى) ـ كأنها إلى الداخلة على ياء المتكلم ، وهو خطأ صوابه إلى ، مجردة وجارّة لكلمة : فيها ، بمعنى فمها .

* صفحة ٤١٠ ـــ السطر الثالث عشر ، ورد البيت الآتى من شعر المعتمد بن عباد الأندلسى مضبوطا بالشكل هكذا :

أخضرٌ فى أبيضٍ تبدّى
ذلك آسٍ ، وذا بهارى

بتنوين الراء من كلمة « أخضر » ، وكأن المحقق الفاضل قاسه على تنوين الضاد من كلمة « أبيض » فى الشطر نفسه . والصحيح أن « أخضر » هنا تمنع من الصرف ، « وأبيض » تصرف ، ليستقيم الوزن . وهذا الشعر من وزن مخلع البسيط كما هو معلوم .

* صفحة ٤١١ ـــ الشطر الثالث ، ورد البيت التالى من شعر أبى بكر البلوى هكذا :

انظر إلى ميت ولكنه
خلو من الأكفان والغاسل

بتشديد الياء من كلمة : « ميت » كما هو الأصل فى هذه اللفظة ، والصواب تخفيفها على وزن فعل ، كبيت ، فيصير الضبط هكذا :

انظر إلى ميْت ، ولكنه
خلو من الأكفان والغاسل

وهذا الشعر من بحر السريع .

* صفحة ٤١١ — السطر الأخير من المتن ، ورد البيت الآتى من شعر على بن بسام فى أخيه جعفر مضبوطا بالشكل هكذا :

أيامُ وجهك مصقول عوارضه
وللرياض على خديك أنوار

مما يوهم أن « أيام » مبتدأ ، وخبرها : مصقول . وهذا وهم كبير . والصواب أن « أيام » منصوبة على الظرفية الزمانية ، وأن « وجهك » مبتدأ ، خبره مصقول .

صفحة ٤١٤ — السطر الخامس ، ورد البيت الآتى من شعر أبى تمام هكذا :

قال الوشاة : بدا فى الخد عارضه
فقلت: لا تنكروا وما ذاك عائبه

بزيادة « واو » على ما النافية فى الشطر الثانى ، والصواب حذفها ليصير البيت موزونا هكذا :

قال الوشاة : بدا فى الخد عارضه
فقلت : لا تنكروا ما ذاك عائبه

* صفحة ٤٢٢ — السطر الرابع عشر ، ورد البيت الآتى من شعر بعض الشعراء هكذا:

أمسك سهام اللحظ أو فارمها
أنت بما ترى مصاب معى

وواضح أن الفعل « ترى » فى الشطر الثانى لا معنى له ، وصوابه : ترمى . وبهذا يصبح البيت هكذا :

أمسك سهام اللحظ أو فارمها
أنت بما ترمى مصاب معى

* صفحة ٤٢٥ — السطر الذى قبل الأخير ، وردت العبارة الآتية هكذا : (فعبر لى أنى أرزق علما غزيرا كعزة الكبريت الاحمر ...) ولا معنى هنا للعلم الغزير ، من الغزارة بمعنى الكثرة . ولكنه العلم العزيز — بالعين المهملة والزاى — من العزة بمعنى : الندرة ، كما يوحى به قوله : كعزة الكبريت الاحمر ، الذى يضرب به المثل فى الندرة ...

* صفحة ٤٢٦ — السطر الثانى ، ورد البيت الآتى هكذا :

تراه وشيكا شكساً إسته
كاوما جناها عليـــه فمه

ولا معنى لقوله: شكساً استه،والصواب. شكا استه

* صفحة ٤٣٢ — السطر الثالث ، ورد البيتان الآتيان من شعر أبى العباس القريعى مضبوطين بالشكل هكذا :

كان ألا قرا تحت دجى
فانجلى الليـــل ، ولاح القمرْ
أو كزهر فى كمام كامن
شققت عنـــه فتم الزهرْ

بإسكان راء الروى فى القمر ، والزهر ، والصواب تحريكها بالضمة ، والشعر من بحر الرمل كما هو واضح .

وبالله التوفيق ؟

القاهرة

محمد عبد الغنى حسن

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الخميس ٩ من صفر سنة ١٢٩٥ هـ (الموافق ٢٠ من فبراير سنة ١٩٧٥) أقام المجمع حفل استقبال أعضائه الجدد ، وهم السادة: الاستاذ بدرالدين أبو غازى ، والدكتور محمد يوسف حسن ، والدكتور محمود مختار . وفيما يلى ما ألقى فى هذا الحفل .

كلمة الافتتاح

للدكتور ابراهيم مدكور ، رئيس المجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

زملائى :

سيداتى :

سادتى :

يسعدنا أن نستقبل اليوم ثلاثة من شيوخ العلم والفن ، وهم السادة :

الأستاذ بدر الدين أبو غازى .

الدكتور محمد يوسف حسن .

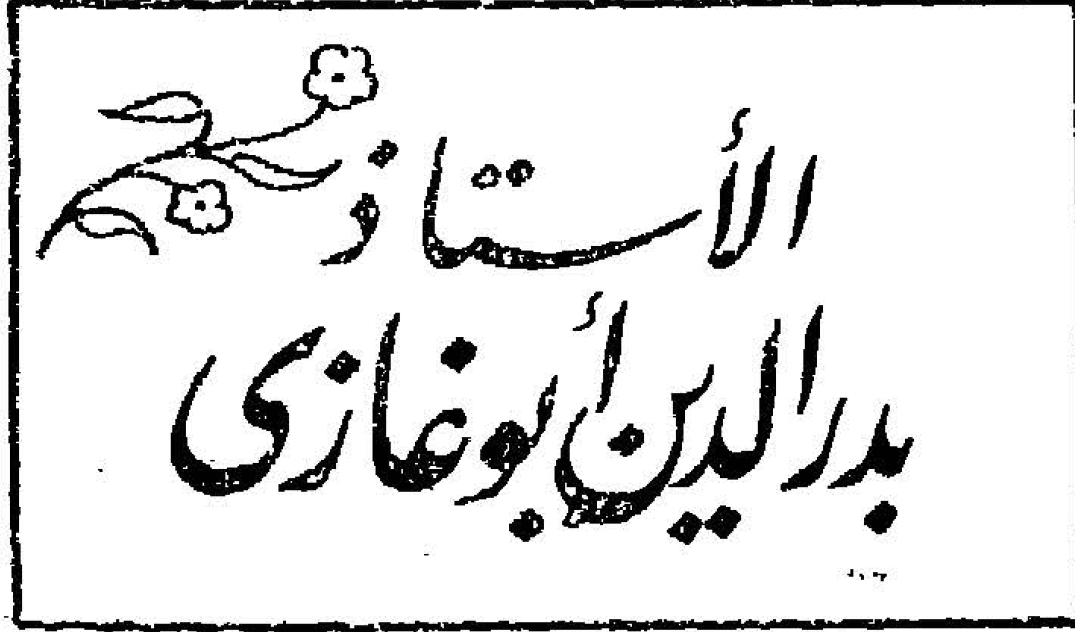
الدكتور محمود مختار .

وليس من بينهم أحد غريب عن المجمع ، فقد أعطوه من قبل وأجزلوا له العطاء ، ونحن نشكرهم على جزيل عطائهم ونرحب بانتمائهم إلى المجمع ، كما أننا على يقين أنهم سيسهمون معنا فيما نضطلع به من أعباء ، ونعول التعويل كله على جهودهم وإسهامهم بعلمهم وكفايتهم فى تحقيق رسالة المجمع .

وباسم المجمع يستقبل الدكتور محمد مهدى علام الأستاذ بدر الدين أبو غازى ، ويستقبل الدكتور عبد الحليم منتصر كلا من الدكتور محمد يوسف حسن ، والدكتور محمود مختار .

والكلمة الآن للدكتور محمد مهدى علام :

كلمة الدكتور محمد مهدى علام فى استقبال :



الأستاذ بدر الدين أبو غازى

كان من تقاليد القبيلة العربية أن تحتفل بظهور شاعر فيها ، وكانت تعد ذلك يوما عظيما من أيامها . وهذا المجمع — وهو سليل القبائل العربية ، وحامل لواء لغتها — يحتفل كذلك بيوم استقبال عضو جديد فيه . فهو تقليد يمد فى حياة المجمع ، ويبقى له نعمة الوجود . فمع أن الأعضاء المؤسسين لهذا المجمع قد رحلوا جميعا إلى جوار ربهم ، وتبعهم أفواج بعدهم ، مازال المجمع بحمد الله باقيا ، يحمل عنهم الأمانة ، ويؤدى الرسالة .

إن نهر النيل ليس فيه نقطة ماء مما كان بمجراه منذ عام واحد ، وهو مع ذلك نهر النيل الفياض بالخيرات .

وأمر هذا المجمع عجيب حقا ، فإن أعضاءه مهما اختلفت منابع ثقافتهم ، وتعددت دروب نشاطهم فى الحياة ، يلتقون آخر الأمر عند العربية ، إخلاصا فى حبها ، وبذلا فى خدمتها . وأعود فأرى هذا المجمع مرة أخرى أشبه بنهر عظيم ، يتدفق من منبعه ، ويسير فى مجراه سيرا وئيدا أو حثيثا ، ولكن مجراه لا تنقطع عنه المياه . فهناك هذه الروافد التى تمده بمياهها ، التى قد تختلف لونا أو طعما أو كثافة ، ولكنها ما إن تنساب إلى هذا المجرى العظيم حتى تصبح جزءا منه .

وهكذا يواصل تدفقه فى طريقه بكل ما جمع من عناصر الخير التى تبعث فى الثقافة الحياة والرفاهية ، وفى اللغة النماء والازدهار .

ومن خصائص هذا المجمع خصيصة يرجع بعضها إلى التخطيط السليم ، كما يرجع بعضها إلى تلقائية رائعة . ذلك أن أعضاء هذه الهيئة الموقرة يجمع العضو منهم بين نشاطين أو أكثر من أنشطة المعرفة — بل لا أتردد أن أقول — فى بعض الأحيان — من أنشطة التخصص الدقيق. ثم يحولها كلها إلى خدمة اللغة .

وهذه الحقيقة ماثلة فى أذهاننا منذ عرفنا المجمع ، ولكن نبهنى إليها فى يقظة واعية كتب زميلنا الجديد ، الأستاذ بدر الدين أبو غازى ، الذى أسعد باستقباله اليوم باسمكم ، أيها الزملاء؛ فإن التقاء الثقافات الرفيعة فى هذه الكتب — ثقافة الفن ، وثقافة الأدب ، وثقافة القانون والاقتصاد — قد أخطرت بذهنى تلك الصور الرائعة فى حياة هذا المجمع : الصور التى جمعت بين القانون والأدب فى عبد الحميد بدوى ، وعلى بدوى ، وعلى الخفيف ، ومصطفى الفللى ، ومصطفى مرعى . والتى جمعت بين الشعر والتاريخ والنقد فى عباس العقاد ، والمازنى.

وبين الفلسفة والأدب فى لطفى السيد وإبراهيم مدكور . وبين علم النفس والأدب فى زكى المهندس ، وعبد الحميد حسن ، وإبراهيم اللبان ، ومحمد خلف الله أحمد . وبين الطب واللغة والأدب فى أحمد عمار ، ومحمد سليمان . وبين الهندسة واللغة فى الشرباصى والدمرداش .

ولعلى قد تجاوزت حدود اللياقة حين شرعت أمثل مجرد تمثيل ، معتمدا على الذاكرة ، وما قصدت استقصاء . وأنا أستأذنكم أن تنسوا كل من ذكرت ، حتى لا يكون هنا غمط لمن لم أذكرهم . فلننس كل ذلك ، ولنكتف بمثال واحد ، نقره جميعا ، لأن العالم قد أقره ، وهو الدكتور محمد كامل حسين ، صاحب الجائزتين ، وفارس الحلبتين .

وعندما شرفنى المجمع بأن أنوب عنه فى استقبال زميلنا الجديد ، الأستاذ بدر الدين أبو غازى ، أحسست بعظم التكليف ، فما كان لى أن أتعجل الأمر فى كلمة ستظل محفوظة فى سجل المجمع ، تسبق العضو إلى عضويته ، وتعبر عن رأى المجمع على لسان من أحسن الظن بقدرته على حمل هذه الأمانة .

لذلك شرعت أقرأ كتب الأستاذ أبو غازى ، لأزداد معرفة به . ولكن هذه الكتب استغرقت انتباهى ، فلم أفطن إلى الهدف من قراءتها إلا بعد أن استمتعت بما فيها من تاريخ الفن بأسلوب الأديب الذى يحسن اختيار لفظه ، وتحديد موضعه فى بناء الجملة ، بنفس المقاييس التى يختار بها الفنان اللون الذى يريد أن يستعمله ، والموضع الذى يضعه فيه إلى جوار غيره من الألوان فى لوحته .

فلما عدت أسأل نفسى عن هدف هذه القراءة رأيتنى أنقل منها أقل القليل فى عبارة أو عبارتين أقدم بهما أسلوب هذا الفنان الأديب ، حين يقول مثلا عن وحى الشعوب الفنية فى الفن التشكيلى :

« فى الفنون الشعبية معين لا ينضب للآداب والفنون القومية ، فهى تبهرها بنسيج يؤكد أصالتها ، ويمنحها نبضها وطابعها الخاص . فمرور الزمن لا يذهب بها ، وتوافد التيارات لا يطمسها ؛ فعرقها السحرى دساس ينساب فى وجدان الشعب ، وتتوارثه الأجيال .

« والفنون الشعبية دائما صنو الحياة ، إبداعها هو جزء من ممارسة الناس لحياتهم ، لا عزلة ولا انفصال بين الفن والحياة . ومن هنا سر صدقها الخاص ، وقدرتها على الاستمرار والإلهام .

« لقد كانت هذه الفنون مصدر إلهام للأدب والفن فى عصور وبلاد مختلفة . ومن فيضها تحقق ثراء فى التعبير والرؤى ، وتشكلت للآداب والفنون القومية سماتها » .

[الفن فى عالمنا ص ٥٧]

وحين يتكلم عن الحياة الفنية فى مصر ، يشير إلى الخلفية التاريخية لنشأة هذه الفنون بقوله :

« على امتداد الأفق التاريخي تلوح مصر وعاصمتها القاهرة فى تطلعها الثقافى واحتضانها للفنون ، مركزاً من المراكز التى صنعت الحضارة فى عصور مختلفة .

« يكفى أن نمد البصر إلى تاريخ القاهرة الإسلامية ، لنرى الفن صنوا للحياة فيها ، وعنصراً من أبرز عناصر حضارتها . كان الفن أداة من أدوات الحياة يمتد إلى كل عنصر من عناصرها ، من الإناء إلى البناء ، ومن حلى الزينة إلى محاريب المساجد وشبابيكها ، ومن قطع النسيج الصغيرة إلى واجهات المبانى الضخمة.

« وكانت القاهرة فى مواكبها وأعيادها تستخدم كل عبقريتها فى التفنن . يطالعنا المقريزى فى خططه بملامح من بهاء الحياة الاجتماعية فيها ومن ارتقاء الذوق العام .

« ألم تحظ القاهرة منذ ستة قرون بما لم تحظ به باريس إلا منذ سنوات قليلة ، حين أمر الحكام بطلاء مبانيها باللون الأبيض ، فبدت وضاءة تزينها الألوان المتألقة فى أسواق النسيج والنحاس ومحلات الفاكهة والزهور !

« ألم تعرف قاهرة العصر الوسيط ما تسعى القاهرة المعاصرة الآن إلى بلوغه ، من تجميل واجهات المبانى العامة بروائع الفنون ! ويحدثنا الأستاذ جاستون فييت فى كتابه الرائع (القاهرة مدينة الفن والتجارة) عن المنشآت العمرانية فى العصر المملوكى ، ويقدم وصفاً رائعاً لمستشفى قلاوون وروعة بنائه ، وجمال تأثيثه ، وما حفل به البيمارستان القديم من أفاريز زينت جدرانه بمناظر الصيد والرقص ومجالس الطرب والموسيقى ، ومشاهد مما يحيط بالفنان من مرئيات تجيش بحرارة الحياة . »

[جيل من الرواد ص ١٠ – ١١]

إن صاحب هذا القلم هو زميلنا الجديد ، بدر الدين أبو غازى ، الذى ولد فى القاهرة فى سنة ١٩٢٠ لأب من رجال التعليم وأم ذات ثقافة أدبية ، وهى التى تعهدته بعد وفاة والده - وهو فى السادسة من عمره - فأتاحت له القراءة فيما كانت تقتنيه من كتب وصحف .

وقد ظهر أثر ذلك على قلمه فيما كان يكتب فى المدرسة ، فأثار إعجاب أساتذته وتشجيعهم . ولم يخيب الفتى المتأدب أملهم . فقد بعث - وهو فى مرحلة التعليم الثانوى - باكورة إنتاجه الأدبى مقالا إلى جريدة « الأهرام » عن الزعيم الوطنى « محمد فريد » فنشرته الجريدة فى صفحتها الأولى فى نوفمبر سنة ١٩٣٦ .

وقد شعر الطائر بجناحيه يحملانه فى سماء الأدب ، فحلق بهما منذ ذلك التاريخ .

وكان القدر قد عوضه عن فقد والده ، خالا عظيما ، هو الفنان المثال محمود مختار ، فتولى رعايته إلى جانب والدته . وقد اجتمع له الآن إلى جانب ميله الأدبى ميل جديد إلى عالم الفنون .

ومع ذلك فإن دراسته الجامعية لم تتجه به إلى أى من الميدانين : ميدان الأدب أو ميدان الفنون ، بل سارت به فى ميدان القانون .

واستطاع الأديب الفنان أن يحقق مصالحة بين هذين الاتجاهين ، والدراسات القانونية .

وحصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩٤١ وشاءت الظروف أن يبدأ حياته العملية فى مجال التشريعات الضريبية والمالية ، فتولى شئون المكتب الفنى للضرائب بوزارة المالية ، ثم شئون التشريعات المالية بصفه عامة .

وأوفد فى بعثات دراسية إلى إنجلترا وفرنسا لدراسة نظم الضرائب .

ولم تشغله الأرقام ولا مواد القوانين عن ميوله الأدبية والفنية . ففى سنة ١٩٤٩ أصدر كتابه الأول « مختار : حياته وفنه » وهو محاولة ناجحة فى أدب التراجم ، مع لمحات ذكية فى الدراسات النقدية .

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية ، ونال جائزة « واصف غالى » : مصر - فرنسا ، فى باريس .

وواصل الأستاذ أبو غازى كتاباته فى النقد الفنى ، فى الصحف والمجلات ، وأهمها : الأهرام ومجلة الفصول ، والأخبار ، ومجلات دار الهلال ، وروز اليوسف ، ومجلة المجلة ، والفكر المعاصر ، وعالم الفكر .

وظلت قائمة مصالحته التى عقدها بين ميله ونشاطه فى الفن والأدب ، وعمله بين الأرقام ومواد القوانين . فكان يمارس النشاطين فى إخلاص وحسن أداء :

مديرا عاما لمكتب وزير الخزانة من ١٩٥٨ حتى ١٩٦١ .

فمديرا عاما للتشريع المالى من ١٩٦١ حتى ١٩٦٤ .

فوكيلا لوزارة الخزانة من ١٩٦٤ حتى ١٩٧٠ .

وفى سنة ١٩٧٠ عين وزيرا للثقافة ، فكان ذلك إرهاصا لغلبة الفن والأدب على أرقام الميزانية وجداول الضرائب .

وقد دفع ضريبة لهذه الثقافة المتعددة النواحى التخصصية ، عضويته لكثير من الهيئات التى ساهم فيها بالرأى والمشورة ، كالمجلس الأعلى للأزهر ، والمجلس الأعلى لدار الكتب ، والآثار . وعهد إليه برياسة لجنة توحيد المصطلحات المالية فى جامعة الدول العربية .

وكان أوفر نشاط ثقافى فعال له ، فى لجنة الفنون التشكيلية بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . وفى هذه اللجنة أشرف على إعداد مصطلحات الفنون التشكيلية باللغة العربية .

وهو رئيس لجمعية محبى الفنون الجميلة ، وعضو فى مجالس عدد من الكليات والمعاهد الفنية والأدبية .

أما الكتب التى صدرت له ، والتى سعدت بقراءتها فى خلال الأسبوعين الماضيين فهى :

١ - محمود سعيد : التراث والعصر من حياته حول فنه .

٢ - جيل من الرواد : تناول فيه التأريخ لسبعة من رواد الفنون الجميلة فى مصر .

٣ - الفن فى عالمنا : بحث فيه علاقة الفن بالمجتمع ، وعلاقة الفن بالنقد ، وعلاقة الفن بالأدب .

٤ - من محيط الفنون : تكلم فيه عن

عصر العباقرة فى أوربا فى القرن السادس عشر والسابع عشر ، والثامن عشر ، وتكلم فى الفصل الأخير عن الفن المصرى الحديث فى النصف الأول من القرن العشرين .

٥ ــ مختار : حياته وفنه ، وهو كتابه الأول عن خاله الفنان العظيم ، صدر فى سنة ١٩٤٩ فى ١٦٠ صفحة .

٦ ــ المثال مختار : وهو كتابه الثانى عن خاله فى ٢٥٠ صفحة وقد صدر فى سنة ١٩٦٤ .

ولم يطلعنى الأستاذ أبو غازى على هذا الكتاب إلا منذ أربعة أيام ، حين كان يحدثنى عما جاء فى ذلك الكتاب عن الحفلة التى أقيمت لتكريم مختار بنادى القاهرة ونشرت خبرها جريدة الأهرام فى الثانى والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٢٠ ؛ فقال لى ـ على أسلاك التليفون ـ إن وصف هذه الحفلة يذكر من خطبائها : أحمد حشمت باشا ، والدكتور منصور فهمى ، والفنانان محمد حسن ، ومحمود خيرت ، والشيخ مهدى علام الأستاذ بمدرسة المعلمين العليا الذى ألقى قصيدة عصماء جاء بها ... (وذكرت الجريدة بعض أبيات القصيدة) .

وسألنى الأستاذ بدر الدين : أهذا من قبيل تشابه الأسماء ؟ فقلت له ـ وقد تذكرت كل شىء : إن هذا الشيخ مهدى علام ، هو مهدى علام الذى يسعده أن يستقبلك فى سنة ١٩٧٥ كما استقبل خالك العظيم محمود مختار عند عودته من باريس عقب عرضه لتمثاله العظيم « نهضة مصر » فى سنة ١٩٢٠ أى منذ ٥٥ سنة بتلك القصيدة التى كان مطلعها :

إن فى التصوير للناس هدى
وبيانا دونه كل بيان :
رقعة فيها خطوط ربما
أغنت الأقوام عن ذرب اللسان ،
ولرب اليوم تمثال لنا
يقرأ التاريخ فيه كل فانى .
يارعى الله أبا الهول ومن
أودعوه السر فى جوف الزمان !
إيه يامختار قد أيقظته
بعد أن قد كان رمزا للتوانى .
.... الخ الخ .

وقد تفضل عقب تلك المحادثة التليفونية فأحضر لى نسخة من ذلك الكتاب ، فضممتها إلى ما أبقاه البوليس السياسى من إنتاج ثورة ١٩١٩ .

وليس لى من تعليق على مانشرته « الأهرام » منذ ٥٥ سنة إلا أن أشكر على أنها « عينتنى » أستاذا فى كليتى قبل تخرجى منها بعامين .

وبعد فإذا كانت خمس وخمسون سنة تفصل بين استقبالى لخالك العظيم ، واستقبالى لك اليوم ، فإن خمس سنوات فقط تفصل بين أول استقبال لك فى هذا المجمع يوم زرته وأنت وزير الثقافة ، ويوم استقبالك الآن عضوا عاملا فيه .

لقد قلت فى سنة ١٩٧٠ فى تواضعك وأنت وزير تشرف على هذا المجمع : « أشعر أننى تلميذ بين أساتذة عظام » . واليوم تقدم أيها الزميل فاجلس بين زملاء كرام .

... كلمة الاستاذ بدر الدين أبو غازى

السيد الرئيس — السادة الأعضاء :

سيداتى — سادتى :

هل تستطيع كلماتى أن تعبر لكم عن شكرى وعرفانى ، فإن اختياركم لى شرف عظيم أعتز به ، ومن الذى لا يشعر بالاعتزاز بل بالزهو حين يرتقى إلى قمة الخالدين .

وهل أستطيع أن أفى الأستاذ الكبير الدكتور محمد مهدى علام حقه من الشكر على استقباله لى هذا الاستقبال الكريم .

وبعد فقد داخلنى شعور بالتهيب وأنا على أهبة الاستعداد لهذا اللقاء .

غير أن اجتماع الأسباب أذهب عنى القلق والتهيب .

وتلك هى سنة الحياة ، يكمن فيها سر من أسرار حفظها وبقائها ... يواجهنا الخطب الصغير فيستبد بنا الجزع وحين تتجمع الخطوب نحشد لها قوانا ، ونستبدل بضعفنا قوة لمواجهتها .

وإنى لأواجه أمرا عظيما .

فأنا أخلف أديبا من أدباء القمة ورجلا جاد بكل فضله وترك فى حياتنا الثقافية أثرا أكبر من أن أبلغه ، والتقاليد المجمعية تقضى بأن أحدثكم عن سلفى العظيم محمود تيمور ، وقد استقبله فى المجمع عميد الأدب العربى ، فأبن كلماتى من روائعه ، فى استقبال أهل الفكر والفن وفى رثائهم .

وتولى تأبين تيمور نيابة عن المجمع الأستاذ الجليل محمد خلف الله أحمد فكانت كلمته بحثا جامعا مانعا كما يقول أهل القانون .

ولم يكن لى من الوقت فسحة للطواف حول عالم تيمور وبلوغ أعماقه .

سادتى :

سأحدثكم عن محمود تيمور من رؤية جيل آخر تفصله عن جيله قرابة ربع قرن جادت فيه مصر بعطاء عظيم . فمن أواخر القرن الماضى وأوائل القرن العشرين كان ميلاد نوع جديد من العبقرية والنبوغ ... جادت الأرض بالموسيقى والمثال والقصاص ورجل المسرح والمصور بعد أن أنجبت من قبل الشعراء ورجال الفكر والقانون والطب والعلم وكأنها بذلك كانت تمهد لبزوغ عصر الفنون .

وما أن بدأنا خطانا حتى رأينا هذا الحشد العبقرى يشع علينا بسحر الفن ووضاءة الفكر فأدركنا معنى النهضة .

ومن حق جيلى أن يعتز بهذا الحظ العظيم .

ولى أنا بين هذا الجيل أن أعتز حين أجلس مكان رائد من رواد تلك النهضة .

وإن هذه الخلافة الجمعية التى تربط بين الذاهب والقادم برباط وثيق لتستدعى إلى خاطرى ذكرى وشائج قديمة وصلتنى بالتيموريين .

من عائشة التيمورية بدأت صلاتى بعالمهم .. تابعت سيرتها من خلال فصول نشرتها الأديبة مى فى مجلة المقتطف ، فأعجبت بشاعرة أشرقت فى عصر الحجاب وترنمت بشعر رقيق تتردد فيه أنفاس من شاعرنا المصرى البهاء زهير وانتابنى الأسى لفجيعتها فى ابنتها ومحنتها فى بصرها .

وعرفت محمد تيمور من صورته ومن سيرته . . . عرفت فيه فتى موفور الثراء والجمال والشباب ، يعيش فى باريس ويهجر كلية الحقوق إلى مسرح الأوديون ويندمج فى أجواء الأدب والفن ، ويعود بعد ذلك ليقدم لمصر أدباً مسرحياً وقصصياً ويسجل فى لوحات قلمية رائعة « ماتراه العيون » ثم يتصدى لكتابة تاريخ مصر والنيل ، برؤية فنان ... ولعل الفصل الوحيد الذى نشره من كتابه فى صحيفة « السفور » كان تمهيدا لهذا الأسلوب الذى فى تناول التاريخ الذى اكتملت صورته بعد سنوات فى كتاب « سندباد مصرى » .

وعلى « الأطلال » كان لقائى بمحمود تيمور .

رواية جمعت صدق الوصف لبيئة من بيئات مصر ، ولون من ألوان مجتمعها قبل الحرب العالمية الأولى وصورت حياة فتى فى هذه البيئة وحللت جوانب الصراع فى نفسه .

وإذا كانت أيام طه حسين قد بهرتنا بوصفها الرائع لحياة صبى فى الريف وصراعه مع القدر والظروف ، وكانت عودة الروح توفيقا رائعاً فى تصوير حياة بيت من الطبقة الوسطى فى إطار ثورة سنة ١٩١٩ فإن أطلال تيمور تمثل بصدق قطاعا من قطاعات المجتمع غابت عنا ملامحه .

غير أن الأطلال توارت وراء صرح كبير من أدب تيمور رغم مالها فى أدبنا المعاصر من قيمة تاريخية وفنية .

وتابعت كتابات تيمور حين كان القصص ميدان سبقه وصدارته ، وشاطرته على البعد حزنه على وحيده وهزتنى كلماته فى وداع الراحلين .

وكنت ألمحه يقصد فى ساعات العصارى مشرب « لوك » مع جماعة من أهل الأدب ، وعرفت من جيلى شبابا بدأ يطرق ميدان القصة ويتلمس عنده النصح والمشورة فكان بهم حفيا يلقاهم فى مجلسه ويسدى إليهم رأيه وفضله بل كان حريصا على أن يصلهم بأدبه ويبعث إليهم بما يصدره من مؤلفات مصحوبة بعبارات التشجيع والود .

كان جيلى يعترف بالأبوة له ولجيله من الرواد ويتطلع إليهم فى إكبار ويسعد برؤياهم ولو من بعيد .

وعرفت بعد ذلك تيمور عن قرب واتصلت بيننا المودة فعظم حبى له وتقديرى .

وتجلت لى صورة حياته وخصائص نفسه مرتسمة فى إشارات ابن سينا :

« العارف هش بش بسام يبجل الصغير من تواضعه مثلما يبجل الكبير وينبسط من الخامل مثلما ينبسط من النبيه ، وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شيء فإنه يرى فيه الحق ، وكيف لا يسوى والجميع عنده سواسية » .

وهو أيضا مثل العارف عند ابن سينا صفاح لأن نفسه أكبر من أن تحرجها زلة بشر ، نساء الأحقاد لأن ذكره مشغول بالحق .

ولقد عرفت تيمور باشا الأب بعد أن عرفت البنين قدرت جهده العظيم فى استقصاء معالم فن التصوير عند العرب الذى فتح الطريق لبحوث كثيرة فى هذا الميدان ونقبت فى مختاراته من كنوز اللغة والفن والأدب التى وصفها العقاد « بأنها » متحف واسع من مادة « تاريخ الحضارة » وتابعت فى إكبار عطاءه الذى ليس له فى حياتنا الثقافية نظير .

تلك هى خطوط صورة محمود تيمور ومحيط أسرته التى صيغ منها نسيجه فلا تكتمل رؤياه بمعزل عن هذه الأسرة التى أسهمت فى تشكيله .

أما أثر محمود تيمور فهو فيما تفوق به على أسرته وأضافه إلى تراثها الكبير .

ويتمثل هذا قبل كل شيء فى دوره كرائد من رواد القصة العربية وكاتب روائى ومسرحى ومؤلف دراسات ، أعطى الادب العربى من كل ذلك الكثير .

غير أن عالم تيمور عالم مترامى الأبعاد يرجع إلى أكثر من نصف قرن من الزمان .

وقد لا يتسع المجال للطواف بهذا العالم الرحب الفسيح .

حسبى إذن إطلالة عليه من منظور فنى .

لقد ظهر تيمور فى عصر كان من سماته بزوغ الفن .. تلاقى فيه النحت مع التصوير والمسرح مع الموسيقى . . وكان اتصال تيمور بعالم هذه الفنون وثيقا .

وإذا كانت كتابته لم تتسع للفنون التشكيلية كما اتسعت لها كتابات العقاد والمازنى وتأملات توفيق الحكيم ولمحات يحيى حقى إلا أن أدبه كان قريبا من التشكيل ، فهو من أدباء الصورة الذين سجلت أقلامهم « ألواحا قصصية » وفقاً لتعبيره .

شاطر فنانى جيله التطلع إلى البحث عن شخصية مصر والتعبير عنها من خلال عالم الريف وأفراد الشعب الذين يضطربون فى المدينة ... وتبدت « الصبغة المحلية الزاهية » والملكة التصويرية فى قصص مرحلته الأولى كما تبدت فى لوحات الفنانين التشكيليين . « الشيخ جمعة » له نظيره عند المصور محمود سعيد تلاقت مصادر وحيهما وظروف اتصالها بدنيا الفلاحين ... والمعلم عوف بجلد الكذب فى قصة الكسيح بنظراته المخيفة ووجه « كقطعة من الفحم الملتهب

تمتد منها ألسنة النار ، يستدعى إلينا أشباها له فى فنون التشكيل ، بل إن تيمور يبدو وكأنه يحمل مرقم مصور يسجل به ملامح الأشخاص ،

وتلتقى صورة الريف والأحياء الشعبية فى فنه مع بعض صور ناجى ويوسف كامل وراغب عياد .

فيه ما فيهم من جنوح إلى الواقعية فى مرحلة وجنوح إلى التحليل أحيانا حتى بلغ معهم ذلك التركيب القوى الزاخر بقوة التعبير .

كانت مصر تبدو فى ألواح الفنانين المستشرقين بلدا صحراويا بظلله النخيل وتخطر على أرضه الجمال ، وبيوتا تزخر بالطنافس وتتأرج بعبيق البخور . . . وكانت مصر فى الأدب وصفا مسجوعا براقا لا يشاكل الواقع إلا لماما وبقدر يسير فأخذ رواد الفن والأدب فى عصر تيمور يبحثون عن وجه مصر ، يحدوهم الصدق وهو جوهر الفكر والفن والحياة ومضى تيمور معهم يقدم قصصا مصريا ولكنه

عرف بعد تجاربه الأولى . أن القصة روح قبل أن تكون مظهرا ، وفكرة قبل أن تكون حادثا ، وأن روح القصة الحى وفكرتها الصحيحة يجب أن تكون قبسا من الإنسانية التى إليها مرد الفن الرفيع فى شتى صوره من أغان وموسيقى ورسم وتمثيل . . . هكذا قال — ونحو هذه الأهداف مضى حتى « استوى عناصر القصصى المصرى الصميم » .

وتوالت أعمال تيمور ، وظل الأشخاص محور الصورة فى أدبه . الشخصيات المريضة . . والشخصيات السوية ، وحقق بالجمع بين روح السخرية والدعابة ، بين جو الملهاة وجو المأساة هذه الوحدة من خلال التنوع ، واكتسب أسلوبه قوة تعبيرية وقدرة على الإيحاء بأوصافه الحسية التى تفصح فى لمحات صغيرة عن شتى الانفعالات.

وانفسح له عالم المرئيات فأصبح « المنظر الطبيعى » من اهتماماته كما كان من محاور الفن التشكيلى فى تلك الحقبة .

ومن خلال هذه الرؤية قدم صورا لمصر الريف ومصر المدينة . . . للبادية وللجبل . . واكتسب أدبه من خلال الرحلات بعداً آخر .

واستوحى تيمور تاريخ الفراعنة وأمجاد العرب كما طوف بعالم الأساطير ثم امتد بملكاته إلى المسرح .

هدفه فى كل ما أبدع من أدب هو الفن .

أليس هو القائل فى رسالة إلى المازنى :

« الأدب ليس له عندى غير اسم واحد هو الأدب بمعناه الواسع وليس له إلا هدف واحد هو الفن » وغاية الفن عنده هى « الكشف عن الجمال وتسجيل مظاهره وتذوق فتنته ... ولما كان الفن غايته الحب ، فالفن إذن يرمى دائماً إلى الخير » .

تلك هى عباراته فى مقدمة « الوثبة الأولى » ... ومنها يبين أن الفن عنده هو الحب والخير والجمال .

تطورت القصة بعد تيمور وشقت مسارب جديدة ورغم تساؤله فى أخريات حياته وبعد كل ما أعطى « هل أصبحت قصصياً حقاً ؟ » . .

فإنه سيبقى دائماً من البنائين الأوائل لهذا الصرح الشامخ فى أدبنا الحديث .

وسيبقى لتيمور دائماً فضل الريادة مهما اختلفت أساليب هذا الفن وتطورت . ولعل فصل الخطاب فى ذلك ما وجهه إليه طه حسين يوم استقباله له :

« إذا ذهب أحد مذهبك ، وجاء أحد فيما بعد بخير مما جئت به ، فلن يستطيع أن يتفوق عليك لأنك فتحت له الباب ، ومهدت له الطريق ، ويسرت له السعى ، وأتحت له أن ينتج وأن يمتاز وأن يتفوق » .

* * *

تبقى بعد هذا صورة أخرى لمحمود تيمور لا بد أن أتوقف عندها .. تلك هى صورة المجمعى العظيم الذى ما زال شاخصا بيننا بأثره وجهده وحضوره الصامت .

لقد اقترن اسم تيمور فى المجمع بألفاظ الحضارة والذستمع إليه فى جلسة استقباله يفصح عن منهجه فى هذا الميدان : « إنه فى غير مستطاع المجمع اللغوى أن يصنع الألفاظ صنعا ، أو أن يفرضها على المدلولات فرضا ، وإنما الذى يصنع أو يفرض هو البيئة المثقفة وحدها ، فالكتاب والعلماء والدارسون فى كل فن ومنحى هم الذين يستوحون ضرورة الاستعمال ، ويستلهمون ذوق التعبير ، وعلى المجمع بعد ذلك أن يستصفى ما يتلقاه من لغة المجتمع ، وأن يطبعه بطابع التأييد والإقرار .

« فعلينا إذن أن نذكى فى أرجاء البيئات المثقفة نزعة التجديد اللغوى ، طلبا للإفصاح وتنكبا عن العجمة والرطانة التى كانت وليدة الأحداث والمناسبات » .

وكان المجمع قد أمسك فترة عن ألفاظ الحضارة ، أمسك « على مضض » أو أمسك « إلى حين » كما قال ، ومع مقدمه سرى فى ألفاظ الحضارة نشاط عظيم ، فقد أعطاها من جهده ودأبه الكثير ، وأخذ يترصد الكلمات حيث تكون ثم يجرى عليها اختياره فيؤثر منها ما يؤثر ويعرضها فى مؤتمرات مجمعه ، وفى أعقاب محاضراته .

سار تيمور على نهج اختطه لطفى السيد فى لجنة ألفاظ الحضارة التى نشأت من توجيه أستاذ الجيل ، فنادى بأن يكون هناك معجمان أحدهما معجم اللغة لإثبات ما استقر من الكلم ، وذلك هو ديوان العربية وسجل ألفاظها كما قال .

والآخر معجم الحضارة لعرض مانجم ومما ينجم من جديد الالفاظ والتعبيرات أو للتعويض عن مصطلحات أجنبية طارئة وهذا المعجم الحضارى لا ينتقل من ألفاظه إلى المعجم اللغوى إلا ما تأصل التعبير عن معناه بين كثرة الناطقين وأن يكون حقيقا بالتسجيل والإثبات » .

وفى عام ١٩٦١ صدر معجم تيمور شاملا لحصاد جهده مسبوقا بكلمات تفيض بتواضعه الجيل إذ يقول « لم يكن لى عمل فى كثير من هذه الكلمات إلا أنى أرصدت له بعض الوقت . .

فتلقفته من هنا وهناك حفيا به آملا أن يحله المجمع محله من النظر والتمحيص ».

وهو بعد ذلك ينسب الفضل إلى غيره فيقول هذا « حصاد الناس » وتلك « ثمارهم ».

وحقيقة الأمر أن هـــذا العمل الكبير قد استأثر به واستنفد معظم طاقاته وكان ذلك لخير اللغة أكثر مما كان لخير فنه.

ولقد ظل محمود تيمور يتابع هذا الجهد بحماس، وغاب عنا وما زالت ألفاظ الحضارة فى عوز إليه.

ورغم أن حركة التعريب ماضية على نهجها بإيقاع العصر وتطوره فى مجالات العلوم والفنون فإن لغة الفن التى وجه إليها تيمور جانبا من جهده مازالت تتطلب الكثير.

اللغة والفن هما أبرز عناصر الوجود القوى.

وقد تحقق لنا منذ بزوغ عصر الفنون تراث ضخم ينبىء عنا ويدل علينا ولكن لغة الكلمات ليست طيعة لتفسير روائع هذه الفنون، وزاد الأمر عسرا تدافع المذاهب الحديثة فى الغرب وظهور أشكال فنية جديدة فاستعصى على كلماتنا أحيانا التعبير عن عالم الأشكال وتعثر توحيد المصطلحات رغم جهود ومحاولات.

لقد ساهم كتاب عصر النهضة منذ العقاد فى صياغة تعبيرات للغة الفنون فهو الذى أكد استخدام كلمة « الفنان » فى لغتنا بعد أن كان الشائع كلمة « الفنى » أو « المتفنن » إذ رأى فى هذا التعبير صيغة مبالغة أدل على الإبداع والإنشاء من مجرد نسبة الفنى إلى الفن كما تنسب المصنوعات، وهو أيضا قد سلك مسميات لكثير من المذاهب الغربية الحديثة وشاركه المازنى فى هذا المضمار حين كان يكتب فى نقد الفنون التشكيلية.

ولكن فى نفسى محبة للذين تراجع عنهم الضوء أو لم يأخذوا حقهم من التقدير.

لا أستطيع أن أغفل جهود هيئات ومجامع وأفراد فى صياغة مصطلحات الفنون ولكنى أود أن أشير إلى جهد اثنين غابا عنا وإن حملا رسالة المجمع من بعيد:

فزاد مرابط المعلم الأول لتاريخ الفنون فى مصر وقد خاض تجربة وضع مصطلحات الفنون باللغة العربية.

وبشر فارس الذى استطاع بامتلاكه ناصية اللغة وثقافة الفنون أن يتفنن ويتأنق فى صياغة مصطلحات لها.

ولقد اختص تيمور الفنون فى مجمعه ببعض مصطلحات... ولكن الطريق طويل... وعلينا أن نشرق قبل أن نغرب وأن نلتمس للفن لغته فى كنوز الأقدمين.

وإذا كانت كتب طبقات المصورين قد أتت عليها سنوات الشدة العظمى والغزوات التى اجتاحت الوطن العربى ولم يبلغنا منها إلا خبر كتاب « أنيس الجلاس وضوء النبراس فى أخبار المزوقين من الناس » الذى ذكره المقريزى غير

أننا نستطيع أن نجد عند ابن جبير وابن دقماق وابن عربى والتوحيدى وعبد القاهر مناهل نستقى منها تعبيرا عربيا عن لغة الأشكال .

إن فى تراثنا من كتب التاريخ والرحلات ونظريات الجمال وأسرار البلاغة وفى دواوين الشعر منابع فياضة لأدب الفنون التشكيلية .

. . .

وبعد فقد أثار محمود تيمور فى نفسى هذه الخواطر وحرك هذه الأشجان .

وإن روحه السمحة لتسعد بذكر من سبقه هو الذى كان يرد الفضل للآخرين .

لقد بقيت لنا منه تلك المودة الصادقة والأثر الذى لا يبيد إنه انتصار الحياة على الموت بحضور الراحلين الصامت وصحبتهم لنا وما ذلك بالقليل .

ولكن علينا نحن الذين نعرف فضله أن نسعى إلى تخليد ذكره ... فإن محمود تيمور الذى كان يعطى ويجود فى هدوء حفَّ به الصمت الذى كان من صفات حياته ، ولم ينل بعد ما يستحقه من تكريم .

أيها السادة :

بقيت كلمة أخيرة أقولها وأنا على عتبات مجمعنا العظيم .

إنى أراه بعد أكثر من أربعين عاما من حياته متجدد الشباب ، زاخراً بالطاقات مؤشرا بالوعود حافلا بالمهابة والجلال .

وتحضرنى كلمات قالها منذ سنوات الكاتب الكبير أندرى موروا عضو الأكاديمية الفرنسية عندما سئل عن جدوى الأكاديمية .

فى كلماته تصوير وتقدير لدور المجامع ومكانتها من خلال صورة أكاديمية فرنسا فهى عنده المؤسسة الوحيدة التى ظلت منذ ثلاثة قرون لا تحيد عن دستورها وأهدافها ومع ذلك استطاعت أن تبقى متجددة الشباب .

هى التى صانت اللغة من مفهوم خاطىء للحرية فيه مفسدة لها .

ويكفى أن معجمها المتطور مازال حكما بين النحاة .

وأن رجالها من أهل اللغة وأهل الفنون والتخصصات الأخرى يحققون بوفائهم لقضية الكلمة مأثرة عظيمة هى إغناء اللغة الفرنسية .

وتطلع موروا إلى مبنى الأكاديمية الجميل على ضفة نهر زاخر بالتاريخ وأشار إلى ما فى مراسمها وتقاليدها من قيم جمالية تنبىء عن دلائل عراقتها .

ومجمعنا الجليل على النهج يسير حافظا ومجددا فى إطار التقاليد .

وسيكون له بتوفيق الله على شاطىء نهر الحضارات مبنى يتفق مع ما يرمز إليه من معنى الخـلود .

ولعله يجمع فى طرازه وزخارفه ويستكمل فى مظاهره ومراسمه قيما فنيه تلائم عراقة اللغة وقيمها ليتفق المبنى مع المعنى ويلتقى الجمال مع الجلال .

أيها السادة .

سلام الله يرعاكم ويظل خطاكم ، ومنه أسأل التوفيق ، وإليكم أتجه بالشكر العميق .

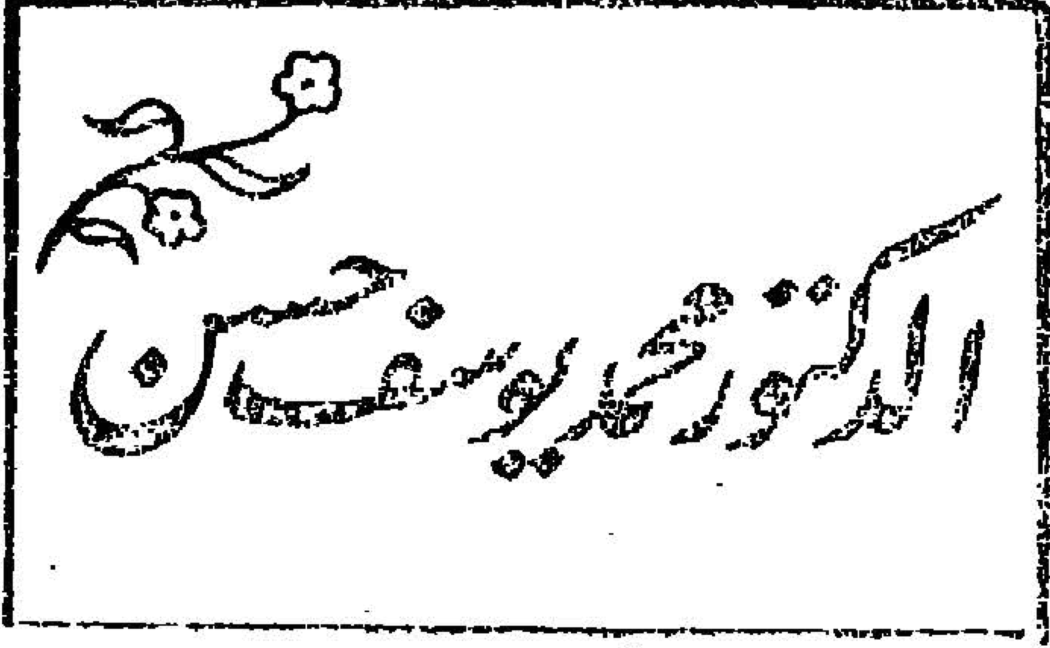
... كلمة الدكتور عبد الحليم منتصر

السيد رئيس المجمع

السادة الزملاء أعضاء المجمع الموقر

سيداتي وسادتي

إني لسعيد حقا أن أستقبل باسم المجمع زميلين كريمين شاءت الصدفة السعيدة أن يعشقا اللغة العربية إلى جانب تخصصهما فى العـــلوم الطبيعية التى نحن بأشد الحاجة إلى ملاحقة مصطلحاتها ، ترجمة ، وتعريبا ، وتعريفا . وكانت تلك الصدفة أن يتتلمذ كل منهما فى صغره وصباه على أستاذ للغة العربية ، يجيد العزف على قيثارتها الشجية، ويحسن اختيار الأمثلة من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وخطب البلغاء والفصحاء من رجالات العرب وأشعار عمالقة الشعر قديمه وحديثه . ومن هنا نتبين أهمية الدور الذى يلعبه مدرس اللغة العربية حين يحبب تلاميذه فى اللغة . ولا ينفرهم منها بالإصرار على تعقيدات نحوها وصرفها، والتعمق فى التخريجات والتأويلات والتقديرات، دون الاكتفاء بالتزام الصواب، ودون الطواف بغاباتها الأدبية الساحرة والتعرف إلى أزاهيرها النضرة فى حدائقها الغناء فنحن جميعاً من غراس هذا المدرس المفن الذى استطاع أن يحبب إلينا قطوفها الدانية، وأن يقصينا عن متاهاتها ودروبها . ومن هنا تكون الدعوة إلى العناية الفائقة بتخريج مدرس اللغة العربية الذواقة المعطاء، حفاظا على تنشئة الأجيال الصاعدة على حبها، ليزيدوها ثراء بمصطلحات العلوم والفنون مسايرة للعصر دون الانتقاص من ثروتها اللفظية وتاريخها المجيد ، وكذلك بالإضافة إلى تهيئة البيئة الصالحة لرعاية هذا الغراس .



أما الدكتور محمد يوسف حسن فهو طنطاوى من مواليد أخريات العقد الثانى من القرن الحالى . ورث حبَّ الأدب عن أبيه وحفظ نحو نصف القرآن الكريم وهو بعد طفل لم يغادر الكتاب ، وأعجب بكتاب كليلة ودمنة فحفظ أغلبه فى أثناء دراسته الابتدائية . سنحت الصدفة الأولى بعد صدفة المولد التى لا فضل له فيها ولا يستطيع أحد أن يدل على جهده فى صدفة الميلاد – إنها الصدفة الموروثة منذ أجيال وأحقاب ، لا يد لنا فيها، ولا فضل لنا بها ، ولا خيار لنا فى أمرها .

يقول الدكتور محمد يوسف : إن شخصية

الأستاذ على الخزرجى مدرس اللغة العربية سحرته إلقاء وبيانا، وقد نصحه بأن يقرأ كتاب الأيام لأستاذنا الدكتور طه حسين، فكانت صداقة وحباً بين التلميذ وأستاذه، ثم بين التلميذ وأستاذنا الكبير رحمات الله عليه، مما حببه فى اللغة العربية شعراً ونثراً وقصصاً وأدبا، وحقق له الحصول على أول جائزة وهو بعد فى الثالثة الابتدائية لحصوله على أعلى درجة فى اللغة العربية، وكأنما كانت هذه الجائزة هى الحافز الدؤوب ليتابع السير على الدرب، لتكون جائزته الثانية هى استقباله اليوم عضواً عاملا بمجمع اللغة العربية وحفاوتنا به اليوم، مما جعله يقرر ألا يترك المجمع إذا أجبر على المفاضلة بين عملى المجمع والجامعة. ثم كانت الصدفة الثانية التى زادت فى حبه للغة العربية وهوايته للأدب العربى حين أريد له أن يلتحق بمدرسة ثانوية قاهرية فكانت القبة الثانوية وكان وكيلها أستاذنا المرحوم محمد فريد أبو حديد الذى سمع عن شغف الطالب باللغه العربية وإجادته لها، فاستدعاه إلى مكتبه وهنأه على ما سمع عنه من ثناء من الأستاذ الشاذلى أستاذه فى اللغه العربية وكلفه الإشراف على مجلة المدرسة. ومضت الأيام ليعود إلى طنطا ويحال بينه وبين دخول القسم الأدبى، فيضطر إلى دخول القسم العلمى امتثالا لأمر العائلة، التى تريده طبيبا لا أديبا. وعادت الأزمة مرة أخرى عندما أصر على الالتحاق بكلية الآداب فاعتصم فى حجرته وأضرب عن الطعام. مصراً على عدم الالتحاق بكلية الطب، وأخيراً كان الحل الوسط هو الالتحاق بكلية العلوم هرباً من الطب والآداب معا.

وصرفته سنو الدراسة فى كلية العلوم عن هوايته الحبيبة وهى الأدب؛ فعبء العلوم ثقيل وواجباتها ومختبراتها ومجاهرها وأجهزتها مما يستغرق وقت الطالب وجهده، إلا أن الصدفة الثالثة فى حياته أن يعجب بأستاذ الجيولوجيا، وأن يصاحبه فى الرحلات إلى الصحارى والجبال حيث المناظر الطبيعية الخلابة، فأعطته هذه الرحلات شحنة قوية من حب الطبيعه، وغذّت خياله الأدبى إلى جانب تنمية موهبته فى الرسم.

استهواه فى كلية العلوم أستاذ روسى فى الجيولوجيا هو الأستاذ «زادانسكى» فقد كان أستاذاً بارعا استهواه أسلوبا وتعبيرا فى وصف الحفريات فكان جيولوجيا. واستهواه فيما يقول أستاذ آخر يحاضر فى علم النبات بلغة عربية سليمة، فحمد الله أنه لم يبعد عن الجو العربى واللغة العربية الجميلة، وكانت كلية العلوم فى ذلك العهد تموج أماسيها بمحاضرات ومناظرات من جيل العمالقة، من أمثال لطفى السيد وطه حسين وعلى مشرفة والعقاد وحسين هيكل وغيرهم من الرواد كنا ندعوهم لأماسى غاية فى الروعة والبهاء يسحرون عقولنا بسحر بيانهم، وسامى آدابهم وفصيح لغتهم العربية، فيحاضرون ويجادلون ويناظرون فى جو لعله بعكاظ أشبه، فتمسح هذه الأماسى الجميلة عناء المجاهر والمخابر وأبخرة المعامل وغازات المواقد.

وتتتابع الصدف الجميلة فى حياة صاحبنا فيلاقى أبا حديد مرة أخرى فى المجمع، حين عمل خبيرا به منذ ست عشرة سنة، ويتذاكران مجلة المدرسة

الثانوية ومقالاته فيها، ثم يلتقى أستاذنا الدكتور طه حسين مديرا لجامعة الإسكندرية ثم رئيسا للمجمع، ويلتقى جيل العمالقة مرة أخرى فى مجمعنا الموقر، فيجادل العقاد، ويشرح الجيولوجيا للطفى السيد وطه حسين. وإنه فى هذه الرحلة الطويلة لا ينسى واجبه الأول شارحا ومعلما للجيولوجيا ومفسرا لأحقابها وعصورها وحفرياتها، وناقلا إلى العربية أسماء أحافيرها وقياسات أحقابها وعصورها وإنه ليطوف بأرجاء مصر دارسا ومعلما من شبه جزيرة سيناء إلى فيافى الصحارى من شرقية وغربية، ومن السلوم إلى منخفض القطارة ومن جبال علبة إلى واحات سيوة إلى المناطق النائية فى هذه الفيافى وتلك القفار، مفتشا عن ثرواتنا المعدنية وهو من أوائل من كشفوا عن الفحم فى مصر، فقال بوجوده فى عيون موسى والمغارة. وإنه ليدرس الجيولوجيا بلغة عربية سليمة فكان من أوائل الملبين لدعوتنا فى استعمال اللغة العربية لغة للعلم، وخاصة حين تبين لنا أن قانون الجامعة ينص على أن العربية هى لغة التدريس وكل ما عدا ذلك كان استثناء، فنسينا وتناسينا حتى غدا الاستثناء هو القاعدة ولعلها فرصة أن نجدد الدعوة إلى تعريب العلم دون أن نهمل العناية بلغة أجنبية، لمتابعة الاطلاع على المسائل العلمية فى لغاتها الأجنبية كذلك. ذلكم هو زميلنا الدكتور محمد يوسف حسن الذى تخرج فى جامعة القاهرة منذ نيف وثلاثين سنة وحصل على درجة الدكتوراة من جامعة بريستول منذ نحـــو ربع قرن من الزمان. وهو أستاذ للجيولوجيا بجامعة عين شمس ثم بجامعة الأزهر وإنه لخبير بمجمعنا منذ ست عشرة سنة، وعضو لجنة خبراء العلوم بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وعضو الجمعية الجيولوجية البريطانية والجمعية الجيولوجية المصرية، وأمين الجمعية المصرية لتاريخ العلوم، وعضو الأكاديمية المصرية للعلوم. وله عشرات البحوث المبتكرة فى علم طبقات الأرض وعلم الحفريات وعلم الجيولوجيا الاقتصادية، شملت بحوثه مناطق شتى من صحارى مصر وليبيا، وفى أصقاع شبه جزيرة جرينلاند، وله مؤلفات فى مستوى التعليم الجامعى فى الجيولوجيا وبخاصة فى علم الحفريات باللغة العربية ولقى كتاباه: قواعد الجولوجيا العامة ومقدمة فى علم الحفريات انتشاراً عربياً واسعاً. ويعد الدكتور يوسف ثانى من ألف للمدارس الثانوية المصرية فى علم الجيولوجيا بعد المرحوم حسن صادق باشا، ويدرس كتابه فى المدارس المصرية والبلاد العربية.

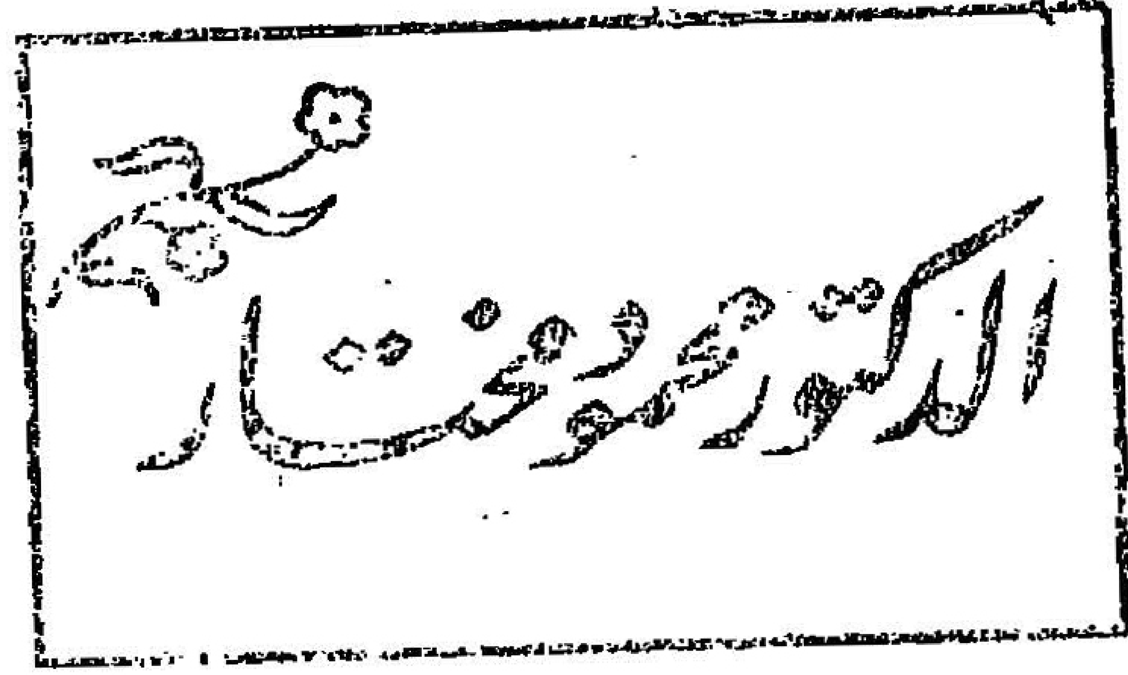
صنف خمسة عشر كتابا بين مؤلف ومترجم فى تبسيط العلوم، منها: فجر الحياة، الثروة المعدنية فى العالم العربى، قصة السموات والأرض، الإنسان والقمر، كل شىء عن الصخور، قصة كوكب، الأرض من تحتنا.

كما حقق مخطوطة «أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار» لأحمد بن يوسف التيفاشى، وشارك فى إصدار معجم الجيولوجيا الذى نشره المجمع سنة ١٩٦٤، كما نشرت له بحوث بمجلة المجمع منها: المصطلح الجيولوجى، وثراء اللغة العربية بأصول المصطلحات الجيولوجية.

أيها السادة:

يطول بى الحديث إذا أنا حاولت استقصاء صورة كاملة لزميلنا الجديد، الذى أرشحه وأستقبله

لحور أيه، لثقتى بأن زمالته مشرفة، فهو يجمع إلى الفضل التخصص الذى يسعى إليه فيه والحس الأدبى اللغوى، وهى الشروط الثلاثة التى أصر على استيفائها فى زميل مجمعنا الموقر. أقدمه واستقبله باسمكم متمنيا له التوفيق.



أيها السادة:

أما ثانى الاثنين، اللذين وكلتم إلى استقبالهما وشرفتمونى بتقديمهما إليكم فهو الزميل الكريم الدكتور محمود مختار قاهرى المولد من أخريات العقد الأول من هذا القرن. حببه إلى اللغة العربية مدرسه الشيخ أبو العينين جعفر الذى لايزال يذكر فضله عليه، ويشيد به فى كل مناسبة، كما حببه إلى علم الطبيعة مدرسه الأستاذ عبد العزيز الغباشى الذى تنبأ له أن سيكون أستاذاً لعلم الطبيعة، فقد كان يأخذ الدرجة النهائية فى علم الطبيعة فى جميع امتحاناتها عرف صاحبنا أستاذيه فى مدرسة الزقازيق الثانوية مع أن شغفه بالطبيعة وأجهزتها وأدواتها كان يدفعه إلى تفضيل مدرسة الفنون والصنائع، لولا الإصرار على أن يدخل المدرسة الثانوية ليتابع الدراسة ويكون مدرسا. مع أنه كان يفضل أن يكون مهندسا، فعندما افتتحت كلية العلوم لأول مرة فى مصر كان من بين الخمسة الطلاب الأوائل اللذين أجبروا على التحويل من مدرسة المعلمين إلى كلية العلوم دخلوها مكرهين، فلم يكن لمصر عهد بكليات العلوم. ماذا عسى أن يكون عمل المتخرجين فيها؟ حتى قال أحد وزراء ذلك العصر وقد قابله أفراد الدفعة الأولى ومنهم زميلنا الدكتور مختار ولم يكن قد وضع لخريجيها كادر — قال الوزير: لم لا نقول بكالوريا علوم بدلا من بكالوريوس علوم؟ كان هؤلاء الخمسة نواة لكلية العلوم شحنهم، فيما يقول زميلنا، ناظر المعلمين فى «تاكسى» ليذهبوا إلى كلية العلوم لمقابلة العميد الأجنبى ليرغبهم فى الالتحاق بهذه الكلية الناشئة التى لم يقتنع طلابها بعد بمستقبلها.

فمدرسة المعلمين تخرج مدرسين والمهندسخانة تخرج المهندسين ومدرسة الطب تخرج الأطباء، ولكن ماعسى أن يكون خريج العلوم؟ وما معنى تخصصه فى الجيولوجيا أو الكيمياء أو النبات أو الحيوان؟ وما عمل هذا المتخصص؟ وماراتبه؟ وما مستقبله؟ كل ذلك كان لا يزال ضرباً من الغيب ورجماً به.

وعلى هذا النحو وبهذا القلق التحق بكلية العلوم ليتتلمذ فيها على عملاق من عمالقة العلم فى مصر ذلكم هو المرحوم الأستاذ الدكتور على مشرفة، فقد كان من حظ مصر والعالم العربى أن يوجد فيها على مشرفة يدعو إلى تمجيد العلم والبحث العلمى، حين لم يكن أحد فى ذلك العهد يعرف ما هو البحث العلمى فى علومنا الطبيعية، فقد كان العلم المهنى صاحب الحظوة لدى آبائنا بل فى جيلنا كله، فوجد فيه رائده فى الرياضة والموسيقى معا، فقد كان أستاذنا الدكتور مشرفة

مشغوفاً بالموسيقى، ووجد فى تلميذه مختار الصورة المحببة إلى نفسه المنفذة لبحوثه ودراساته فى الموسيقى بعامة، والموسيقى الشرقية والعربية بخاصة، فلم لا يتخصص مختار فى علوم الصوت بأجهزته وأدواته وتسجيلاته ؟ ولم لا يعمل بإشراف الدكتور مشرفة مع مصطفى رضا والعقاد من أعلام الموسيقى فى هذه الحقبة ؟ ولم لا يسجل السلم الموسيقى الشرقى على أساس علمى ويمز بين الخصائص العلمية فى السلم الشرقى والسلم الغربى؟ كيف تختلف هذه الخصائص من عازف إلى آخر ومن آلة موسيقية إلى أخرى ؟ وكان لهذا البحث دويه فى ذلك الوقت ونشر مفصلا فى مجلة نيتشر. وها هو ذا يتابع بحوثه الموسيقية بعد وفاة أستاذه الدكتور مشرفة منذ ربع قرن من الزمان، يتابعها مع تلميذه الدكتور يوسف شوقى فيعيد تجاربه السابقة ليصل إلى النتائج نفسها ، ولكن بأجهزة أحدث وآلات أدق ، ومن بين دراساته الخالدة قياساته من تسجيلات سيدة الغناء العربى خالدة الذكر ومعجزة الغناء السيدة أم كلثوم، فيقول الدكتور مختار : إنه ثبت لديه أن فى صوتها دقة أداء لسلم الموسيقى الشرقية إلى حد لا يقارن بأى صوت آخر، وأن أداءها لينتقل بالسلم نفسه من أغنية إلى أخرى فى دقة بالغة وأداء بارع ليس له نظير .

لقد كانت هوايته للموسيقى نابعة من تخصصه الدقيق فى علم الصوت أحد فروع علم الطبيعة ، وكذلك اجتمعت الهواية مع العلم، نبعان من عين ثرة هى شخصية الدكتور مختار الفذة المحببة .

ذلكم هو الدكتور مختار. التحق بكلية العلوم بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ ، ضمن طلبة الدفعة الاولى التى افتتحت بها الكلية ، وتخرج فى سنة ١٩٢٩ متخصصا فى الطبيعة والرياضة ، ثم حصل على الدكتوراه من إنجلترا ، وتدرج فى وظائف التدريس بالكلية من معيد بها سنة ١٩٢٩ إلى عميد لها سنة ١٩٦٤ . رأس قسم الطبيعة زهاء عشرين عاما ، وحصل على وسام الاستحقاق لاشتراكه فى إنشاء مؤسسة الطاقة الذرية .

وهو رئيس للجمعية الفيزيقية المصرية ورئيس للشعبة المصرية للاتحاد الدولى للفيزيقا ورئيس لمجلس البحوث الفيزيقية بالمركز القومى للبحوث، وعضو المجمع العلمى المصرى والأكاديمية المصرية للعلوم .

وللدكتور مختار نشاط مرموق فى تأليف كتب مرجعية فى علم الطبيعة باللغة العربية منها أصول علم الطبيعة فى خمسة أجزاء ، وأساس علم الطبيعة فى خمسة أجزاء ، والطبيعة التجريبية ، وعلم الضوء. وفى مجال الترجمة العلمية قام بترجمة ومراجعة عدد كبير من المراجع العلمية بلغت فى مجموعها بضعة عشر كتابا . كما ساهم فى إخراج معجم الفيزيقا النووية، وهو باكورة إنتاج مجمعنا فى التخصصات الدقيقة الحديثة، كما أنه يسهم فى إعداد معجمين للفيزيقا العامة أحدهما للتعليم العام والآخر للتعليم الجامعى .

وفى مجال إحياء التراث العلمى العربى يتابع رائدنا الاول فى هذا المجال أستاذنا مصطفى نظيف ، ويحقق كتاب « تنقيح المناظر لذوى

الأبصار والبصائر » لمؤلفه كمال الدين الفارسى ، خطا رائده الأول الحسن بن الهيثم .

وقد خص الدكتور مختار الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والفيزيقية بالجزء الأكبر من نشاطه فى النشر العلمى ، حيث كان من رواد هذه الجمعية منذ نشأتها سنة ١٩٣٦ . وظل أمينا عاما لها طيلة خمسة وعشرين عاما ، وقام برئاسة تحريرها نحو ثلاثين عاما . وهذه المجلة هى الأولى من نوعها فى الوطن العربى ، وقد عملت منذ إنشائها على تشجيع النشر العلمى فى الرياضيات والفيزيقا باللغة العربية . أما ما ينشر بلغة أجنبية فيشترط أن يصحبه ملخص باللغة العربية وقد عرفت المجلة بمستواها الرفيع فى البحوث العلمية المبتكرة .

كما أنشأ مجلة متخصصة للفيزيقا النووية منذ ست سنوات لبحوث النظائر والإشعاع ، ورأس هيئة التحرير فيها ، وهى على نفس مستوى المجلة السابقة مع العنـــاية فى تطبيق استخدامات الإشعاعات النووية فى شتى المجالات العلميـة والإحيائية والطبية والهندسية .

أما فى مجال البحوث العلمية فقد اقتحم الدكتور مختار ثلاثة مجالات كان له فيها القدح المعلّى أولها : مايسمى بالفيزيقا الإشعاعية ، وذلك على أثر اتساع نطاق العمل بالإشعاعات النووية الخطرة وما استتبع ذلك من ضرورة الاهتمام بشئون الوقاية من أخطارها ، وتناولت بحـوثه كيفية وقاية العاملين فى الإشعاعات النووية .

وثانيها : علم الصوتيات ، فقد كان يعز عليه أن توصم الموسيقى الشرقية بصفة السماعية التى لا تخضع لأساس علمى ، فجند معارفه الفيزيقية وأجهزته الإلكترونية لخدمة هذه الموسيقى ، فقام بتسجيل السلم الموسـيقى الشرقى وصياغته على أسس رياضية علمية ، أبعدت عنه صفة السماعية وخلصته من شوائب كثيرة . كما أجرى بحوثا على الآلات الموسيقية الفرعونية القديمة .

وثالثها : فوق السمعيات . وإن الدكتور مختاز لمن رواد هـذا المجال فأنشأ مدرسة بحثية سايرت تطوراته الواسعة ، وأنتجت مئات البحوث التى تتناول الكثير من التطبيقات الأساسية والأصول الكلاسيكية .

أيها السـادة :

هذان هما الزميلان الكريمـان أقدمهما وأنا واثق أنهما سيمنحان المجمع كل وقتهما وجهدهما وعلمهما وخبرتهما . وقد رأيتم كيف أن أحدهما صرح بأنه يؤثر عمل المجمع على عمله الأصلى . أما الآخر فهـو يتفرغ تماما للمجمع ولجانه وجلساته وأعماله .

أيها السـادة :

قبل أن أختتم كلمتى أرجو أن تأذنوا لى فى أن أحيى لمسة الوفاء التى لمستها فى الزميلين الكريمين ، اللذين نستقبلهما اليوم ، فالوفاء عمـلة دارسة فى هذه الأيام ، ولكن الزميلين أصرا على ذكر أساتذتهما وأصحاب الفضل عليهما ، سواء فى تخصصاتهما العلمية الدقيقة أو فى اللغة العربية . فها نحن ذكرنا الخزرجى والشاذلى وجعفر

والغباشي وزاد نسكي ومشرفة ونظيف وطه حسين وفريد أبو حديد وحسن صادق ولطفي السيد والعقاد ، وغيرهم من أفاضل الأساتذة العلماء . وصدق البغدادى الذى يقول: إن العلماء لا يموتون أبدا ، وإنما يخلدون فى أعمالهم ويعيشون فى قلوب تلاميذهم . والواقع أن الفكر العلمى واللغوى والدينى والأدبى يتسلسل جيلا بعد جيل منذ فجر التاريخ ؛ فلكل عالم أستاذ سواء تتلمذ عليه مباشرة ، أو تتلمذ عليه فى كتبه . ومن هنا كانت الصنعة التى ورثناها عن السلف الصالح . إنها الأمانة والوفاء والاعتراف بالفضل لذويه . وكذلك اعترف علماء العصر الإسلامى بالفضل لأفلاطون وأرسطو من علماء العصر الإغريقى وخلعوا على أرسطو لقب المعلم الأول للإنسانية كما اعترفوا لجالينوس وديسقوريدوس وبطليموس وإقليدس من علماء العصر الإسكندرى . وكذلك نحن نعترف لعلماء العصر الإسلامى كابن الهيثم وابن سينا كما نعترف لعلماء عصر النهضة الأوربية من كبلر وكوبرنيق إلى والتن ونيوتن ، وهذا هو الوفاء أسمى سمة يمكن أن يتصف بها العلماء .

فلتحيوا معى الزميلين الكريمين متمنين لهما متابعة خدمتهما للعلم ، وللغة القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر ، والسلام .

. . . كلمة الدكتور محمد يوسف حسن

فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

سيدى الرئيس : سادتى

الله العلى القدير أسأل أن يهبنى عونا ، ويهدينى رشدا ، أتزود بهما فى حمل الأمانة الكبرى التى حملتمونى إياها ، أيها الخالدون . ولكم أخشى أن يكون فى هذا إسراف فى حسن ظنكم بقدرتى على حمل هذه الأمانة . . ولقد قدمنى اليوم إلى مجمعكم العظيم ، أستاذى الدكتور عبد الحليم منتصر نائبا عنكم ، فأضفى على من الصفات مالا أعتقد أنى أهل لها . وعلى منذ اليوم أن أبذل غاية الجهد حتى أحتفظ بحسن ظنكم بى ، وأكون خليقا بالانتساب إلى رحابكم .

إن هذه الثقة الغالية التى حبوتمونى إياها حين رأيتمونى قادرا على حمل الأمانة ، لأغلى وأعظم ما أعتز به من تقدير نلته أو يمكن أن أناله مدى الحياة . إن الامتحان الذى اجتزته أمام مجلسكم من أجل هذا التقدير ، ما شعرت فى امتحان قط بمثل ما شعرت إزاءه من هيبة وبلبلة هواجس ، برغم ما أحرزت قبله من إجازات وجوائز ، وعضويات علمية ، وبرغم ما علانى من شيب وما أثقل كاهلى من مسئولية . حقا لقد تبلبلت هواجسى لدى هذا الامتحان ، وأنا الذى كنت أنصح كل من علمت ألا يدع مجالا للخوف والهواجس تتسرب منه لتوهن

من عزيمته أو تعوقها عن إحراز النجاح فى أى امتحان .

هذا التقدير العظيم الذى نلته منكم ، حقه عندى أن أعاهد الله وأعاهدكم ونفسى على التفانى فى الحفاظ عليه ، وعلى البذل فى سبيل ذلك من أجل الإسهام فى تحقيق رسالة المجمع ، مهما تكلفت من تضحية ونصب أقدمهما عن طيب نفس وسعادة فى سبيل لغتنا الشريفة الغالية ، متمثلا فى ذلك قول رب السيف والقلم :

« ومن تكن العلياء همة نفسه
فكل الذى يلقاه فيها محبب »

والحق أيها السادة الأجلاء ، أنه ليس بعد الفوز بثقتكم من علياء يصبو إلى نوالها إنسان .

أيها الأساتذة الأجلاء :

لقد مر أكثر من شهرين منذ أن طابت نفسى بما نقل إليها البشير من فوزى بثقتكم ، وأصدقكم القول أنه بقدر ما أفعمت نفسى فرحا بتحقيق أعز أمنياتى ، أحسست فجأة بالاشفاق المضنى عليها ، من العجز عن تحمل أعباء هذه الثقة . وإنه لما زاد من وطأة هذا الإشفاق ما علمته من أنه قد قدر لى أن أنال شرف الجلوس فى مجمعكم على مقعد كان يملؤه قبلى رئيس مجمع الخالدين ، وعميد الأدب والفكر فى عالمنا العربى : المغفور له الدكتور طه حسين . إننى وقد مضى شهران منذئذ لم أستطع الخلاص من وطأة التهيب والارتباك التى تسيطر على كلما فكرت أنى سأخطو نحو هذا الشرف الرفيع الذى هيأته لى تقاليد مجمعكم التى لا تخالف . ولعلنى لا أجد فى هذا تعبيرا خيرا مما قاله أحد الخالدين فى هذا المقام حين أعلن أن الصدفة ظلمته كما ظلمت سلفه العظيم باستوائه فى مكانه « فاستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير » .

أيها العلماء الأعلام :

لقد كان لى الحظ العظيم منذ نيف وخمسة عشر عاما أن يختصنى أستاذى الفاضل الدكتور عبد الحليم منتصر الذى يعد من أبرز رواد تعريب العلم فى مصر ، بالدعوة لأشارك فى مهمة إعداد المصطلحات فى علم الجيولوجيا لمجمع الخالدين ، فصدر قرار المجمع باختيارى خبيرا لدى لجنة الجيولوجيا فى أول عهدها به تقريبا . وأخذ بيدى أستاذى الدكتور عبد الحليم منتصر لما آنس عندى من حب للغة ، وحرص على سلامتها ، وكلف بالرى من مناهلها . أخذ بيدى منذئذ نحو تحقيق ما ظل يراود نفسى منذ نعومة الأظفار من أمل فى العيش فى رحاب لغتنا ، والتمتع بنعماء جمالها وفنونها . ولم تمض سنة أو اثنتان حتى أذن أن يفتح لى باب مجلسكم الشامخ لأول مرة ، فأرى بعينى رأسى ما كان يضنينى به خيالى من كد فى تصور ما يدور خلف هذا الباب العظيم من محاورات الخالدين .

وما زلت أذكر بالتيه والانبهار تلكم المناقشات اللغوية والعلمية العالية التى أثيرت حول بعض ما كنت أعرضه من مصطلحات لجنة الجيولوجيا . كم كنت أخرج من

تلكم الجلسات ، وأنا أسائل نفسى عما إذا كنت جديراً حقا بالجلوس إلى هذه الصفوة الممتازة من الجهابذة الذين كنت أسمع عنهم فقط ، وأرى صورهم ، أو أقرأ أسماءهم على أمهات الكتب . وهل كنت موفقا حقا فيما يدور بينى وبينهم من محاورات ومناقشات ، وكنت أتيه وأفخر بما يقرونني عليه منهـــا ، وأرضى عن نفسى بل وأمتن عليها بما يختصوننى من ملاحظات عليها .

كم تعلمت فى مدرستكم العليا أيها الأساتذة الأجلاء ، وكم جعلتنى هذه المدرسة أزداد حبا للغة العربية ، واستمساكا وإيمانا برسالة تدريس العلوم فى جامعاتنا بها . لقد ألفت وأنا فى كنف مدرستكم الكبرى خلال خمسة عشر عاما ، أول ما كتب بالعربية فى بعض فنون الجيولوجيا ، وأول ما نشر على الجمهور من مبسطات هذا العلم ، فلاقت بنفحاتكم ما لاقته من نجاح .

إن مجمعكم العظيم هو صرح اللغة الشامخ المنيع . وإن جهاد سدنته هو أشرف جهاد عزت به لغة القرآن وانتصرت ، واتسعت مجالاتها . لقد حقق لها جهادكم حياة ملؤها الرغد والتنوع والقدرة على استيعاب كل الفنون والعلوم — لقد دأب مجمعكم العظيم على بذل عناية خاصة للنهوض باللغـة العلمية وصياغة مصطلحاتها ، وإنه ليكفينى أن أشير إلى جهاد أساطينه العظام فى هذا المجال ، وأرجو أن يأذن لى رئيس المجمع الدكتور إبراهيم مدكور فى أن أعبر عن مضمون هذا الجهاد ممثلا فى مقتطفات من أقواله عن المصطلح العلمى وعن لغة العلم حيث يقول : « تاريخ العلوم إلى حد ما تاريخ لمصطلحاتها » ، « على العلماء أن يحيوا أولا كل ما يمكن إحياؤه من المصطلحات القديمة ، فإن لم يجدوا ، فعليهم أن يقيسوا ، ويشتقوا من العربية نفسها » — « قيمة المصطلح فى انتشاره والأخذ به ، وبذا يصبح جزءا من اللغة العلمية » ، « لغة العلم وثيقة الصلة بلغة الأدب ، تتعاونان وتتفاعلان ، ولا تكاد توجد نهضة أدبية إلا وتصاحبها نهضة علمية » .

هذه باختصار ، معـالم الدرب الذى انتهجه المجمع لإحياء لغـة العلم العربيـة وإثرائها . وإنى لعلى هذا الدرب مررت وسأسير . وما أنا بحاجة إلى أن أؤكد هنـا أن التراث لزاخر من المصطلحات العلمية بالقيم والأصيل ، وأن الفصحى لغاصة بالأصول الصالحة لاشتقاق المصطلحات . وإنه لجدير بالمجمع أن يؤلف لجنة جديدة لتقصى المصطلحات فى التراث ، وإحصائها وتصنيفها وفهرستها ، وتحديث تعريفاتها ونشرها ، وكذلك لإحصاء الأصول الصالحة من اللغـــة للاستعمال العلمى فى المجالات المختلفة ، وبحث الاشتقاقات المناسبة للغة .

وسيكون هذا عوناً أى عون لمن يريدون الكتابة العلمية الأصيلة ، ولمن يبتغون ارتياد مجال تأليف البحوث العلمية المتخصصة بالفصحى . ولا يسعنى فى هذا الموقف إلا أن أقترح على المجمع تقديم النصح لوزارة التعليم العالى كى تتعاون معه فى تقرير تدريس اللغة العربية العلمية فى الكليات

العلمية بالجامعات والمعاهد العليا بجانب ما تقوم بتدريسه من لغات أوروبية علمية بها ، بل إنه لمن الخير — فى رأيى — أن تستبدل الأولى بالأخرى مع زيادة الاهتمام بتدريس أصول اللغـــات الأوروبية فى مراحل ما قبل الجامعة . ولعلنى أكتفى بهذا التنويه عما يراود نفسى من آمال فى تحقيق أعمال جديدة لمجمعنا ، وأترك تفصيله للبحث والمناقشة المستأنية .

أيها السادة العظام :

يأبى حفاظكم على التقاليد إلا أن يطلب إلى كل عضو جديد يشرف بمقعد فى مجمعكم المبجل ، أن يقول عند استقباله كلمة عن سلفه الذى سبقه اليه . وإنى لمطيع أحكام هذه التقاليد على ما فيها من إرهاق لى ، وعلى ما أشعر به من عجز فى موقفى هذا حين أجلس فى مقعد كان يتبوؤه طه حسين . فماذا عسى أن أقول فى رجل كان ملء الدنيا أدبا وفضلا ، ماذا أقول فى رجل كان أمة فى واحـــد ، بل كان عالما بأسره فى واحد :

فياله من فرد هو الجمع كله
بمبناه أو معناه حشداً مكدسا

أســــاتذتى : أنتم أقرانه ، وأنتم الذين عرفتموه عن كثب ، وإنى لأغبطكم على ذلك ، وما أنا إلا الذى حقه أن يستمع فى هذا منكم . وإن كان لا بد أن أقـول شيئـا ، فحسبى أن أتحدث عن طه حسين المجمعى المنافح عن حمى اللغة العربية ، العاشق لها ، المعنى بالوقوف طويلا أمام مشكلاتها . المنادى دائما بالبحث فى حل هذه المشكلات . كان عميق الإيمان باللغة العربيـة ، وبجدارتها كلغة علم وحضارة ، استطاعت كما لم يتح للغة قديمة أو حديثة أن تكون لغة رسمية لكثير من الأقطار فى زمن جـــد قصير ، بل استطاعت أن تتجاوز هذا النطاق الرسمى فغزت شعوب تلك الأقطار — على حد قوله — فى عقر دورهم حتى أصبح الناس يتحدثون بها فيما بينهم ، ذلك أنها لغـــة محببة قريبة إلى النفس تستطيع أن تترجم عن أفكار من يتحدث بهـا فى طواعية ويسر وحسبنا أن نستمع إليه يقول « ويكفى أن نرى كيف استطاع العرب أن يسيغوا ما كتب عن فلســـفة ارسطو وطب جالينوس إلى آخر هذه العلوم التى استطاعت اللغة العربية أن تسيغها وأن تطوعها لقواعدها وأن تطوع لها قواعدها أيضا ولننظر إلى قوله :

« انها لغة خلقت لتكون لغة عاطفية بأوسع معانى هذه الكلمة وأدقها دون أن تنزل عن أصولها ، وعن قواعدها ، وعن خصائصها التى تمتاز بها من سائر اللغات . ولعل أهمها بجانب هذه القوة ، ما تمتاز به من المقاومة العنيفة التى تحميها من طغيان اللغات » .

ولم يقف هذا الدفاع المجيد القوى عن العربية فى سبيل تفهمه لمشكلاتها عند حد . فلم تغب هذه المشكلات عن خاطره ووجدانه ، بل ظلت تلح عليها أشد الإلحاح حتى لقد وقف طويلا أمام هذه المشكلات ، وقفة محب للعربية حدب عليها معنى بمستقبلها كعنايته بحاضرها وماضيها .

فرأى بثاقب فكره أن أهم مشكلاتها التى

تهددها اثنتان : الأولى : مشكلة الكتابة، والثانية مشكلة الإعراب . لقد واجه هاتين المشكلتين بجرأة وشجاعة يعرف بهما ، دافعهما الحب والحرص ، لا مجرد النقد ، والضيق بالقديم والمألوف . وتحدث عن العربية وأهلها فقال :

« لغة حية مرنه قادرة على التطور ، يتكلمها قوم لا يزالون فى حاجة إلى الحياة ، ولا يزالون فى حاجة إلى التطور »

لقد بين فى أسلوبه الدامغ الساخر الساحر كيف أن القدامى أنفسهم كانوا يطالبون بتطوير النحو وتيسيره ، وأن الذى يطالب به ليس بدعا بل هو سنة جارية ، وكان يستشهد فى هذا مداعبا بقول أحدهم :

ماذا لقيت من المستعربين ومن
تأسيس نحوهم الذى ابتدعوا
إن قلت قافية فيما يكون له معنى
يخالف ما قاسوا وما صنعوا
قالوا : لحنت وهذا الحرف منخفض
وذاك نصب ، وهذا ليس يرتفع
وحرشوا بين عبد الله واجتهدوا
وبين زيد ، فطال الضرب والوجع

وهو مع هذا كله كان يرفض الدعوة إلى العامية ، كلاما أو كتابة رفضا باتا ، ويهاجم الداعين إلى ذلك هجوما مبرحا ، ويقول فى هذا أنا مطمئن إلى أن هذه الدعــوة لن تلق من يستجيب لها ، وأصحابها أنفسهم لا يستجيبون لها — فيما بينهم وبين أنفسهم — وإنما هم قوم حيل بينهم وبين أن يتعلموا تعليماً صحيحا ، وحيل بينهم وبين تذوق هذه اللغة ...

وكان يرى أن تيسير الكتابة أساس لتيسير القراءة الصحيحة والإعراب ، ومرتبط عضويا بتيسير فهم قواعد اللغة وتذوقها . لذلك كان دفاعه من أجل تيسير الكتابة لا يقل حماسا عن دفاعه من أجل تيسير الإعراب . وقد أحس بذلك وهو الذى لم يكن فى حاجة إلى أن يكلف نفسه مؤونة الانشغال بحل مشكلة الكتابة . ولكن بالشجاعة والحب والإيثار — تتجلى كلهـــا فى قوله : « ولا تسألونى أنا عن تيسير الكتابة كيف يكون ؟ . ولكن لكم الحق — كل الحق — فى أن تسألوا المجمع والحكومة أيضا والحكومات العربية والمجامع العربية فى إصلاح الكتابة ، فهى التى ينبغى أن تسأل فى هذا ، وأشهد لقد جد مجمعنا فى إصلاح الكتابة منذ سنين ، وما أرى أنه قصر ، إذا لم يكن قد وفق إلى هذا التيسير ، ولكنه فى حاجة إلى العون الذى يتيح له أن يمضى فى التيسير ... » .

إن هذه المشكلات التى وقف طه حسين المجمعى الفذ أمامها بجرأة وشجاعة منذ أكثر من ربع قرن ، وطالب بمواجهتها ومعالجتها والتغلب عليها ، ما زال معظمها يواجهنا حتى الآن ، وما زالت اللجان تشكل والمؤتمرات تعقد وتنفض وهذه المشكلات قائمة . وسوف يعقد اتحاد المجامع بخصوص تيسير النحو فى الصيف القادم مؤتمراً فى الجزائر نرجو له التوفيق فى تحقيق الكثير مما كان يدعو إليه طه حسين .

وما أظن المقام يتسع لإيفاء حق هذا العلم فيما جاهد فى سبيل الفصحى وتيسير تعلمها ، لكننى أجد لزاما على أيضا أن أنوه بفضله على

وضع المعاجم العلمية . وقد كان صاحب اقتراح وضع المعجم الطبي عام ١٩٤٧ ، وكان يدعو إلى إحصاء الكلمات الطبية العربية التي استعملها القدماء كابن سينا والرازي وأضرابهما أولا حتى تكون بين أيدي من يقومون على إخراج المعجم فيردونها فيه إلى مصادرها . كما كان يدعو إلى العكوف على المصطلحات العلمية في سائر العلوم التي خلفها لنا علماؤنا القدامى .

أيها الأساتذة الأعلام :

يعز على أن أترك مكاني هذا دون أن أتحدث عن مدى ما تركه طه حسين من أثر في حياتي ، وعن ذكريات غالية أحملها له . لقد عشت عصره بكل أبعاده نعم عشت زهاء نصف قرن من عصره الزاهي . فقد قرأ على والدي — رحمه الله — كتاب الأيام فيما كان يقرؤه على من كتب الأدب ، ولم أكن قد تجاوزت بعد سن الثامنة وقد كنت شديد التعلق بهذا الكتاب ، لقد كان أول كتاب أدبي أقرؤه بنفسي حين صرت قادرا على القراءة . ومن خلال الأيام أحببت لغة الضاد ، وعشقت أدبها منذ نعومة الأظفار .

كم قرأت الأيام في صباي ، وفي شبابي ، وفي كهولتي ... وفي كل مرحلة من عمري كنت أتزود من « الأيام » بزاد جديد من المتعة والأدب والعلم . كانت الأيام لي سحرا دائما على مر السنين وقد قرأتها آخر مرة عام ١٩٧٣ ، بعد وفاة العميد ...... ويا لإبداع التصوير الذي تصوره لحياة الرجل العظيم ، وأيام الرجل العظيم ، وكفاح الرجل العظيم .

لقد كنت أقرأ الأيام منذ تفتح صباي حين لم تكن الحضارة قد امتنت بعد على أسماعنا بالمذياع الذي أخذ ينقل إلينا ذلك الصوت الساحر الفريد الذي تتردد فيه أصداء الفصحى كلها : تاريخاً وملاحم وأمجاداً وعبقريات ... أما كيف كنا نتنادى ونجتمع لسماعه في حلقات المذياع بالمدرسة الثانوية في « حديث الأربعاء » ، فإن هذا لمن أبقى ملامح ذلك العهد في ذاكرتي . ثم تعلقت بأدبه وأسلوبه ، وأقبلت عليه في عمق وتبتل حين درسنا تحقيقه لنقد النثر ، وحين صدر له : « صوت أبي العلاء » و « مع أبي العلاء في سجنه » و « أديب » و « دعاء الكروان » و « جنة الشوك » وغيرها ...

ثم شببت ودخلت الجامعة ، وتدخل القدر فأقصاني عن الجو الأدبي مدة ، لكنه لم ينه صلتي بطه حسين . فشاء أن أعمل بعد التخرج معيدا بالجامعة التي كان أول رئيس لها ، ولم يكن يصدر له كتاب أو مقال حينذاك إلا وكنت أقرؤه وأعيده . ولم يطل مقامي في جامعة الاسكندرية وما بقيت فيها إلا حباً في جواره ، فتعللت بالأسباب لأعود أدراجي إلى القاهرة التي انتقل طه حسين إليها ، فطلبت الانتقال إلى جامعة عين شمس وأشهد أني جئت إلى القاهرة تحدوني الآمال في ان احظى بحظ أوفر من جواره . وفي جامعة عين شمس ، أسعدتني الأيام بزمالة أعتز بها وأفخر ، زمالة مع استاذي الدكتور منتصر ، الذي أحاطني برعايته وفضله ، والذي مهد لي الطريق إلى مجمعكم العظيم ، أطرق أبوابه ، واستهدى سبيلي إلى

أروقته منذ عام ١٩٥٨ بالدرس والمثابرة والتفانى فى الإخلاص للفصحى . ولى عند هذه الأبواب، وفى رحاب هذه الأروقة أروع ذكرياتى التى أحلها لطه حسين ... ويا ليتنى حظيت منها بالكثير وهى - على القلة - جلها « من بعيد » ، حتى أذن الله أن يكون بعضها من قريب؛ عندما أوكل إلى شرف عرض مصطلحات الجيولوجيا على مجلسكم الموقر وطه حسين نائباً للرئيس، فرئيسا للمجمع . وأشهدكم أحسست كأنى حبيت الخلد حقا وأنا اتخذ مجلسى بجانبه أتاق منه كلمة او كلمات ، او إشارة رضا او بسمة ارتياح .

وواهـاً لقلبي من الذكريات القاسية عن السنوات الأخيرة من عمر الرجل العظيم ، عندما ثقلت عليه وطأة الداء . وما كان يتغيب عن جلسات المجمع إلا نادراً . وكان يتحمل العذاب فى هذا بصبر وشموخ . لم أذكر له مرة واحدة فى كثير من الجلسات التى حضرتها يطلب رفع الجلسة بنفسه، مع ما كان يبدو واضحا عليه قرب نهايتها من تعب وإرهاق . كم وقفت فى تلك السنوات بشرفة المجمع أرقب العبقرى المهيب يصعد درجاته بمشقة ونصب معتمداً على ذراع زوجه أو كاتم سره أو كليهما . وكم كنت أرقبه بألم وخشوع بعد ذلك، وهو يصعده محمولا على كرسيه ، لا يتأخر موكبه دقيقة عن موعد الاجتماع .

ولا أنسى يوما من شتاء عام ١٩٧٢ ، ذلك العام الحزين ، والراحل العزيز العظيم محمولا على كرسيه نحو قاعة الجلسات ، وكنت وصاحبي أحد عمداء الكليات الحاليين نقف بأقصى الشرفة نرقب العبقرية المحمولة أمامنا ، ونحن نحبس الأنفاس خشوعا ورهبة وإكباراً . ولما مر الموكب العبقرى، قلت لصاحبى : ياليت كل شباب اليوم يرون معنا هذا المشهد حتى يتعلموا احترام المواعيد ، واحترام الواجب والعمل ، واحترام الحياة .

كم كان عظيما شامخا طه حسين ، وكم كان فى نفس الوقت حانياً ، جم التواضع . وإن أنسى لا أنسى ما حييت انبهارى بعبقريته وحافظته الفذة حتى آخر جلسة فى المجمع لعرض مصطلحات الجيولوجيا فى عهده ، وكانت قبل وفاته ببضعة أشهر . لا أنسى وعورة مسالك المادة فى تلك الجلسة ، كما لا أنسى صدق متابعته لها وعمقها ، وسديد ماساقه فى المناقشات من آيات من القرآن الكريم ، وأبيات من الشعر القديم . ولا أدرى لماذا حرصت جداً فى ذلك اليوم على أن أمثل بين يديه بعد الجلسة لأودعه على أمل اللقاء فى العام المجمعى التالى ، ولتحظى منه مسامعى بكلمة، واعتذرت له عما بدا على مصطلحات الصخر والحفريات من ثقل... ومازالت آخر كلمات حظيت بها منه تتردد فى أذنى وفى كيانى عندما قال : « لا يأستاذ ، على العكس من ذلك، فانها ممتعة جدا » .

ياله من عظيم ، ما أظن الزمان يجود على الإنسانية بمثله قبل مئات السنين ، وصدق عبد الرزاق محي الدين فى رثائه حينما قال :

« ياثانى اثنين فى العليـــاء دونهما
تقعى الدهـارير مـما آدهـا السفر
ألف مضت ، وهى وحمى فيك مثقلة
حتى ولدت ، فهل ألف بها أخرى ؟ »

... كلمة الدكتور محمود مختار

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدى الرئيس . أيها السادة :

اسمحوا لى أن أقدم أخلص الشكر وأصدقه على ما طوقتم به عنقى من فضـــل عظيم وما منحتمونى من شرف يتوج حياتى بتاج من الفخر ، إذ قبلتمونى جنديا فى مجمعكم الموقر العريق الذى يغص بالقادة والأبطال فى شتى ميادين الآداب والعلوم . إن اختياركم لى شرف أعتز به فحمدا لله وشكرا لكم كل الشكر . وإنى أدعو الله تعالى أن يجعلنى أهلا لهذه الثقة الغالية ويعيننى على أن أضيف لبنة إلى صرح هذا المجمع الشامخ .

ويشرفنى كذلك أن أضيف شكرا خاصا وخالصا لأخى وزميلى الأستاذ الدكتور عبد الحليم منتصر الذى تفضل فقبل مهمة تقديمى إليكم اليوم ، على كل ما فى هذه المهمة من صعوبة وما فى جعبتى من حصيلة متواضعة . ولكن سماحته فى السخاء وسلاسته فى التعبير قد جاءتا بما فاق كل حسبانى ، فإذا بصعوبة المهمة تذوب فى أسلوبه السلس ، وإذا بضحالة حصيلتى تختفى فى طيات بيانه البليغ ، جزاه الله عنى خير الجزاء .

سيدى الرئيس . أيها السادة :

جرت تقاليد هذا المجمع الحميدة بالاعتراف بالفضل والوفاء لذويه ، وخاصة إذا كانوا من رجاله الذين انتقلوا إلى عالم الخلود ، بعد أن أسدوا إليه وإلى اللغة العربية الحبيبة من حبات قلوبهم ما لا تمحوه الأيام . كما جرت التقاليد أيضا بأن يتولى الأعضاء الجدد هذه المهمة . لا أكتمكم سرًّا أيها السادة إن صرحت لكم بأنى أشفقت على نفسى مرتين : الأولى عندما علمت أننى سوف أخلف عملاقا من عمالقة المجمع هو المرحوم الأستاذ على السباعى ، وأشغل الكرسى الذى ملأه قبلى بجدارة . والثانية عندما علمت أن الوفاء للراحل الكريم يتطلب الإشادة بآثره ، وكلكم أيها السادة أعرف بها منى ولكن يسَّر على الأمر ما كان يتمتع به الأستاذ على السباعى من اسم لامع وصيت ذائع وعلم فياض وإشعاع نافذ استنار به حتى من لم يسعده الحظ بحضور مجالسه والاستمتاع بأحاديثه . فقد كان الجميع يشيدون بصفتيه المتلازمتين : الدينية والعلمية .

أما الدينية فتظهر جلية فى استظهاره القرآن الكريم على الوجه الأكمل ، ومداومة قراءته قراءة عميقة واعية . أما العلمية فتظهر جلية كذلك فى وفرة تحصيله وسعة اطلاعه فى أصالة رأيه وصفاء قريحته ، فى إحاطته بأمهات المراجع اللغوية ، فى معينه الغزير فى الفتوى بأمانة ، الأمانة التى لا يتردد معها فى أن يقول لا أدرى فيما لا يدريه . ومما يذكر له كذلك بكل فخر وتقدير قراءته الفاحصة لكتب اللغة العتيدة من

أمثال لسان العرب، وإثبات ملاحظاته وتصويباته عليها، مما لا يجرؤ عليه إلا أولو الرأى المتمكنون من أصالتهم فى العلم والتحصيل من أمثال على السباعى .

وفى مجال التدريس، صعد الأستاذ السباعى السلم من مبدئه إلى أعلاه، وتخرجت على يديه أجيال من الطلاب كتب لها حظ التلمذة والسير على خطاه، سواء كان ذلك فى التعليم العام أو فى التعليم الجامعى فى مصر أو فى الخارج.

أما عن رسالته فى هذا المجمع الموقر، فبالرغم من أن القدر لم يمهله أكثر من سنتين اثنتين فى عضويته إلا أن آثاره فيه كانت واضحة وبصماته جلية يشيد بها الجميع . ويكفى للتدليل على ذلك ما جاء على لسان رئيس لجنة الأصول فى حفل تأبين الفقيد حيث قال : إن اللجنة قد فقدت فيه ثروة لغوية ضخمة ليس من السهل أن تعوض .

فلندعو الله أن يتغمد الأستاذ على السباعى بواسع رحمته وأن يجزيه أحسن الجزاء على ما بذل من جهد، وما قدم من عمل صالح عميق الأثر فى إعلاء شأن اللغة العربية ومجمع اللغة العربية .

سيدى الرئيس، أيها السادة :

فى الثلاثينات من هذا القرن، بعد ما تخرجت فى كلية العلوم، كنت أنظر إلى هذا المجمع الموقر على أنه مجمع لأساطين اللغة والفصاحة والبلاغة والأدب فحسب . أما العلميون فلا محل لهم من الإعراب فيه . وكم تمنيت آنئذ وأنا أخطو أولى خطواتى فى التأليف والترجمة العلمية، وأتعثر وألهث أمام طوفان المصطلحات العلمية الحديثة، أقول : كم تمنيت آنئذ بل كم تطلعت إلى هذه القلعة الشامخة أستجدى منها العون والمساعدة . وفى شىء من التردد تلمست يوما طريقى إليها ودخلتها على استحياء بحثا عن بعض المراجع العربية، وهناك شرفت بلقاء أكثر من قائد من قادة المجمع . وتطرق الحديث بيننا إلى آمال العلميين فى المجمع . وهنا كانت المفاجأة لى فقد تبينت أن المجمعيين حريصون كل الحرص على أن يفسحوا للعلميين مكانا لائقا ويحلونهم بينهم على رحب وسعة، بأكثر مما كان يتوق إليه العلميون أنفسهم . وما هى إلا بضع سنين حتى رأينا المجمع يفتح أبوابه بل أحضانه للعلميين، ويزيد من أواصر الصلة بهم، ويمحو من آثار تلك العزلة التى باعدت بينهم وبين المجمع زمنا .

ثم دخلت مصر الحديثة عصر العلم والتكنولوجيا، فكان من حسن الطالع أنها وجدت لغة العلم والتكنولوجيا أداة طيعة فى ركابها، تمهد لها الطريق، وتوفر لها مقومات السير فيه . وطرقت لغة العلم الحديث كل أبواب النشاط، حتى أصبحت على حد تعبير الأستاذ الكبير رئيس المجمع لغة نعيش معها فى الحقل والمنزل، ونرى آثارها فى المصنع والمتجر، يرددها الأطفال فى مدارسهم ويعنى بها الشباب فى جامعاتهم ويسجلها العلماء فى دراساتهم وبحوثهم « ومن حق المجمع علينا نحن العلميين أن ندين له بالفضل ونعترف له بالسبق وبعد النظر، فقد أحس بالفعل منذ نشأته، وكأنه كان يقرأ صحف الغيب، بما سيكون للغة العلم والتكنولوجيا من شأن

فى حياتنا العلمية والتكنولوجية ، فأورد لها نصا صريحا فى لائحته يقول بأن « من أهم أغراض المجمع أن يجعل اللغة العربية وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها ، وملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر الحاضر » . وقد وفى المجمع رسالته فهنيئا له ولكم ، وبشرى للعلميين .

سيدى الرئيس . أيها السادة :

منذ أكثر من خمسة عشر عاما دعيت أعمل خبيرا فى لجنة مصطلحات العلوم الفيزيقية والهندسية ، حيث تتلمذت فيها على يد رائد الجيل الفيزيقى المجمعى العريق المرحوم الأستاذ مصطفى نظيف . وما كان أسعدنى بهذه الدعوة الكريمة التى نالت منى كل تقدير وترحيب ، إذ وافتنى وأنا غارق فى خضم المصطلحات الفيزيقية الحديثة ، مابين مصطلحات للفيزيقا الكلاسيكية فى صورة جديدة متطورة ومصطلحات للفيزيقا التى صبغت العصر الحديث بصبغتها حتى تسمى باسمها ، فعرف بعصر الطاقة النووية وعصر الإلكترونيات وعصر الفضاء وما إلى ذلك . وكان تلاحق هذه العصور سريعا بحيث لم يترك لنا نحن الفيزيقيين فرصة لالتقاط الأنفاس ، وشغلنا باستيعاب الجديد من العلم عن الاهتمام بالمصطلحات وتعريبها . وتصدى عدد من الهيئات العلمية لميدان التعريب ومنها الاتحاد العلمى العربى وأكاديمية البحث العلمى وغيرها ، ولكنها لم تصمد أمام تيار المصطلحات العنيف . وعندئذ جاء المجمع الموقر الذى لم ينس رسالته السامية يوما فأسرع بإدلاء دلوه ، فشكل لجانا متخصصة تخصصا دقيقا ، تضافر فيها العلمى المتخصص واللغوى الضليع ، وأذكر منها بصفة خاصة لجنة الفيزيقا النووية التى كان لى شرف الانتماء إليها ، وأمدها المجمع بالعديد من المراجع العلمية الحديثة والمراجع اللغوية الأصيلة .

وبدأت اللجنة مسيرتها بخطا وئيدة تتحسس طريقها الوعر الطويل بحذر تام ، وترددت أول الأمر فى خطاها ما بين الترجمة والتعريب ، ما بين تسجيل المصطلح الحديث وإحياء القديم ، ما بين الأخذ بالنحت والاشتقاق والنسبة أو رفضها . ودارت المناقشة فى مضمون المفهوم الأساسى للغة عامة ، وما أكدته اللغة العربية خاصة من قدرة على استيعاب الجديد مع احتفاظها بجوهرها القديم الخالد . بهذا المنطلق المتفتح سهل الأمر على اللجنة ، إذ أصبحت مهمتها مقصورة على اختيار الأسلوب الذى يناسب كل مصطلح على حدة ، على أن يخضع هذا الأسلوب لأسس وضوابط أوجزها على الوجه الآتى :

أولا — أن على اللجنة تسجيل ما اصطلح عليه المختصون مادام لا يتعارض مع أصول اللغة .

ثانيا — أن تبحث اللجنة عن جذور عربية للمصطلح الجديد فى مراجع اللغة فإن اهتدت إلى لفظ مناسب له فبها ونعمت ، ولكن دون تزمت . فنحن قد نكلف لغتنا شططا إن نحن صممنا على التنقيب عن أصل عربى لمصطلح لم يكن موجودا أصلا فى العربية . وفى هذه الحال يصبح التعريب هو المخرج الوحيد .

ثالثا — أن التعريب ليس بدعا فى اللغة

العربية أو فى أى لغة سواها ، وبالتالى ليس لنا أن نخشاه أو نعمل على تحاشيه . ولنا خير قدوة فيما أخذ به العرب قديما فى التعريب من جميع اللغات المعاصرة . بل إن فى التعريب إثراء واضحا للغة من ناحية ومجاراة للغات العالمية العلمية من جهة أخرى. وهذا العامل الأخير له وزنه أمام طوفان المصطلحات الجديدة وتقارب اللغات العلمية الحية فى عصر يتسم بالتقارب والتعاون الدولى فى شتى المجالات .

رابعا — أن المعنى الواحد يجب أن يؤدى بلفظ واحد فقط سواء كان مترجما أو معربا ، على أن يكون هذا اللفظ صالحا للاشتقاق والنسبة ما أمكن .

بهذه الضوابط والأسس وضح طريق اللجنة واتسعت خطاها ، وآتت أولى ثمارها بإخراج المعجم الأول المتخصص فى الفيزيقا النووية . وهو خير هدية يهديها المجمع إلى الوسط العلمى الفيزيقى وغير الفيزيقى ، لا فى مصر وحدها بل فى أقطار الوطن العربى وأرجائه الواسعة .

سيدى الرئيس . أيها السادة :

مادمنا فى سياق الحديث عن الترجمة والتعريب فأرجو أن يتسع صدركم فتأذنوا لى بعرض وجهة نظر لها عندى أهمية خاصة ، لأنها تتناول اسم العلم الذى أتشرف بتمثيله فى المجمع ، هذا العلم هو مادرجنا على تسميته فى مصر باسم « علم الطبيعة » . هذا الاسم ترى فيه اللجنة المتخصصة ترجمة غير وافية لكلمة Physics اللاتينية . فإن كان لابد من الترجمة بالتنقيب عن المعنى الأصيل له فلتكن تسميته « علم دراسة قوانين الطبيعة » . ولكن حتى هذه التسمية الوافية من حيث اللفظ أو التسمية الأولى المختصرة المخلة ، عليهما أكثر من مأخذ .

أولا : أنها وضعت على أساس مفاهيم محدودة لهذا العلم ، وهى مفاهيم تقصر اليوم عن الإحاطة بمضمونه الحديث .

ثانيا : أن ترجمة لفظ Physics بالطبيعة يلتبس مع ترجمة لفظ nature بالطبيعة أيضا ، وهذا اللبس كثيرا ما يوقعنا فى مأزق إذا ما اجتمع اللفظان معا فى عبـــارة واحدة كأن نقول The physical natvre of Sorso

من هنا رأى عدد من الأقطار العربية تعريب اللفظ Physics ووضعوا له لفظ « فيزياء » ولكن للأسف جاء هذا الاختيار أيضا غير واف بمبادىء وأصول التعريب السليم لبعده عن الأصل وتحرفه دون مسوغ ، اللهم إلا إذا كان المسوغ هو ما يحمله لفظ فيزياء من سجع مع لفظ كيمياء وهو مسوغ غير مقنع . وبالبحث فى مراجعنا العربية عثرنا على لفظ أكثر استقامة وملاءمة وهو لفظ « فيزيقا » الذى يجمع بين الاختصار وسلامة التعريب بالاحتفاظ بالأصل وبين النطق العربى الجميل . هذا بالطبع بالإضافة إلى تمشيه مع اللغات العالمية المعاصرة . ويسرنى أن أسجل فى هذه المناسبة أن الفضل الأول فى إحياء هذا اللفظ « فيزيقا » يرجع إلى المرحوم الأستاذ مصطفى نظيف رائد الفيزيقيين .

سيدى الرئيس . أيها السادة :

إن رسالة المجمع نحو العلم والتكنولوجيا كما أراها ، يجب ألا تنتهى عند وضع المصطلحات وتحقيقها وتقنينها . بل يجب أن تنشر هذه المصطلحات على أوسع نطاق بين المشتغلين بالعلم فى الوطن العربى الكبير المتعطش لها فى كل مكان . وأننا نحن العلميين نبارك هذه البادرة الجديدة للمجمع فى إخراج المعاجم العلمية العالية المتخصصة ، ونأمل منها المزيد والمزيد ولن أكون مغاليا إن ذكرت لكم أن أساتذة الجامعات وطلابها يعانون اليوم الكثير من الشطط والمشقة فى لغتهم العلمية وعندى الدليل على ذلك مما يسمعه الكثير منا من المتصلين بالتدريس الجامعى فى الكليات العلمية ، حيث وتنتشر اليوم لغة لا هى بالعربية كما تقضى به اللوائح وما يجب أن يكون عليه الأمر ، ولا هى بالانجليزية تمشيا مع الاستثناء الوارد باللوائح . ولكنها لغة ثنائية إن جاز لنا أصلا أن نسميها لغة ، فهى لغة تخلط بين اللغتين معا ، وياليته خليط مفهوم ، ولكنه خليط عجيب من لغة عربية ركيكة ولغة انجليزية أكثر ركاكة مندمجين معا أو متدهورين معا . هذه الصورة المضحكة المبكية لما آلت إليه حال حال اللغة العلمية اليوم فى الجامعات وغيرها هى فى نظرى ناقوس الخطر الذى أدقه للمجمع العريق لكى يزيد جهوده الموفقة التى بدأها على الطريق السوى خدمة للعلم والتعليم وإنقاذا للغة العلمية مما هوت إليه من حضيض .

سيدى الرئيس : أيها السادة :

استميحكم عذرا عن هذه الإطالة . وأطلب الصفح منكم عن زلاتى . وأشكر لكم سماحتكم وسعة صدوركم فى الاستماع إلى .

وأدعو الله لى ولكم بالتوفيق والسداد .

والسلام عليكم ورحمة الله

... كلمة الدكتور إبراهيم مدكور

فى ختام الجلسة

سيداتى : سادتى :

لا أشك فى أنكم لمستم فى هذه الجلسة الطويلة الممتعة أنها تربط الحاضر بالماضى ، وتلك سنة هذا المجمع لا ينسى ماضيه مطلقا ، ولا يغفل ضرورات العصر بحاجة ، وأظنها السنة السديدة التى نرجو الله أن نوفق لها دائما ، ولاشك أن سنة التجديد المعجمى نفسها معينة ونافعة فيما نضطلع به ونجد له .

ومرة أخرى أهنىء السادة الزملاء بمساهمتهم واشتراكهم معنا ، وأشكر لكم جميعا حسن استماعكم وعظيم جلدكم ، فهكذا المجمعيون دائما فاعذروهم إن كانوا قد أطالوا عليكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٩٥ هـ الموافق ٢٦ من مارس سنة ١٩٧٥ أقام المجمع حفل تأبين عضوه المرحوم الدكتور مراد كامل، وفيما يلى ما ألقى فى الحفل :

كلمة الافتتاح

للدكتور ابراهيم مدكور، رئيس المجمع

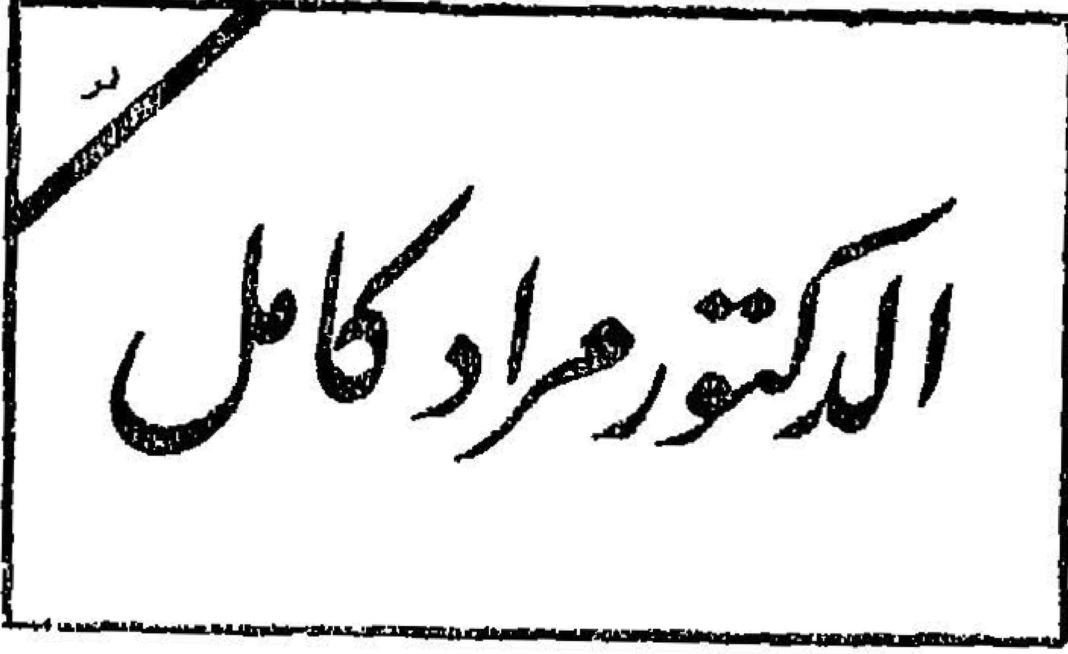
سيداتى، سادتى ..

نودع اليوم زميلا كريما، وعالما جليلا، هو الدكتور مراد كامل الذى أعطى مجمع اللغة العربية طوال ربع قرن أو يزيد، أعطاه وأجزل له العطاء، حين كان خبيرا فى لجنة المعجم الكبير نحو ثلاث عشرة سنة، وحين أصبح عضوا به نحو خمس عشرة سنة. وأعطاه وأجزل العطاء فى لجانه ومجالسه، وفى مؤتمره، وفى مجلته، وغذاه ببحوث مفصلة عميقة، ودقيقة، فجزاه الله المجمع، وعما قدمه من دراسات لغوية خير الجزاء.

ويقوم الزميل الدكتور عثمان أمين بإلقاء كلمة المجمع فى تأبينه، وسيتولى الدكتور بولس عياد إلقاء كلمة الأسرة.

والكلمة الآن للدكتور عثمان أمين عضو المجمع.

كلمة الدكتور عثمان أمين فى تأبين :



منذ نحو نصف قرن من الزمان ، انعقدت بينى وبين الفقيد الراحـــل وشائج قوية غذتها الجامعة المصرية . فى العام التالى لإنشائها جامعة أميرية ، التحقنا — مراد كامل وأنا — بكلية الآداب ، وقد كانت الحياة فى كلية الآداب آنذاك حياة جوانية بمعناها الصحيح : الأساتذة وهيئة التدريس والعاملون والطلاب أسرة واحـدة متآزرة ، يلتقى أفرادها عـــلى التعاطف العقلى والانتماء الحضارى ، وكذلك كان شأن الجامعة على العموم ؛ لا فرق بين كلية وكلية ، و لا بين قسم وقسم من أقسام الكلية الواحدة . الجامعة المصرية كانت رمزا وشعارا يعتز الجميع بالانتساب إليه .

وفى بداية الربع الثانى من هذا القرن كانت الروح الوطنية لا تزال متأججة مشبوبة لم تخمد لها نار . فقد أدرك سعد زغلول بفطنته ورجاحة عقله أن « المصرية » هى الغذاء الصحيح لهذه الأمة ، وأدرك الملك فؤاد برجاحة أفقه ان لمصر رسالة حضارية عريقة ، وأن موقعها الثقافى يجعلها أجدر الشعوب بالتوسط بين الشرق والغرب ، كما قال « رومان رولان » بحق منذ نصف قرن .

ولقد وعت الشبيبة من جيلنا الجامعى هذه المعانى ، وحرصت على أن تجعلها نبراسا لها فى حياتها الدراسية ، ومن بعد ذلك فى حياتها العامة والخاصة . وكان ذلك علينا ميسورا ؛ فقد شهدنا المثل الطيبة يحققها أمام أبصارنا قادة أمتنا . فزعيم ثورة ١٩ لم يتردد لحظة فى أن يعهد بأمانة الوفد إلى مكرم عبيد ، وأن يختار من معاونيه رجالا من أمثال واصف غالى وويصا واصف وسينوت حنا وغيرهم . وبفضل سعد وشعوره العميق بمصريته التف الشعب حول فكرة واحدة هى فكرة الوطنية، وآمن بعقيدة راسخة هى الأمة المصرية. وبهذه الروح النابضة استطاع وعى مصر وضميرها أن يسدا الهوة التى أرادها المستعمرون الغاصبون للتفريق بين الأقباط والمسلمين .

وما أحسب أن أحداً من أبناء جيلى ممن أتيح لهم ما أتيح لى يستطيع أن ينسى يوماً مشهوداً حقا من أيام مصر ، حين وقف شيخ الأزهر مع شيخ القبط ، واليد فى اليد ، يخطبان الجماهير المتراصة الحاشدة فى ساحة الجامع الكبير وسط حماسة منقطعة النظير . وما أستطيع أن

أنسى خطبة سمعتها آنذاك من مكرم عبيد عن « شخصية سعد » ، وقد كانت فى نظرنا وما تزال من روائع الفن الخطابى العربى ، يجرى فيها الخطيب القبطى على غرار البيان القرآنى ، ويفتن فى ذلك أيما افتنان .

ولقد كنا جميعا — مراد كامل وأنا وزملاؤنا من الدارسين فى ربوع مصر — حريصين أشد الحرص على استظهار هذه التحفة والترنم بها فى لقاءاتنا وغدواتنا وروحاتنا . فلا غرابة فى أن « مراد كامل » ، وقد نشأنا فى هذا الجو الحق فى بلغة القرآن ، يختار أن يلتحق بقسم اللغة العربية واللغات الشرقية بكلية الآداب .

وقد حظيت هذه الكلية فى أول عهدها بنخبة ممتازة من الأساتذة الأوربيين حرص المسئولون عن الجامعة على استقدامهم من أكبر جامعات الغرب ، أذكر منهم الأساتذة الفرنسيين « لالند » و « برهييه » و « لوبروتون » و « ميشو » والأستاذ الإنجليزى « دوبريه » والأساتذة البلجيكيين « جريجوار » و « جرادور » و « هوستليه » . وأذكر طائفة من الأعلام المستشرقين : « نلينو » و « جويدى » الإيطاليين و « برجستراسر » و « ليتمان » الألمانيين . كما حظيت الكلية بغير قليل من أعضاء هيئة التدريس المصريين النابهين ، أخص بالذكر منهم : طه حسين ، وأحمد أمين ، ومصطفى عبد الرازق ، ومنصور فهمى ، وشفيق غربال ، ومصطفى عامر ، وعبد الوهاب عزام ، وعبد الحميد العبادى ، وإبراهيم مصطفى — رحمهم الله رحمة واسعة .

وقد كانت الصلة بيننا وبين أولئك الأساتذة جميعا صلة وثيقة ميسورة ، وكانت أسبابها لدينا موفورة ؛ فعدد الطلاب محدود معقول ، وجميعهم مقبلون على الدرس والتحصيل ، نازعون إلى الجد والرجولة وإلى ضرب من المثالية العاملة المنبثقة من التجربة المصرية ، والمستغنية بأصالتها عن التوجيهات الأجنبية .

والنظرة المثالية هذه من حيث إنها تدفع الناظر إلى التفانى فى نصرة القضية التى يؤمن بها . هى الجانب الذى استهوانى فى شخصية « مراد كامل » ، جعلنى أرى فيه ممثلا لفريق من الصفوة يؤمنون بالفكرة ، ويحيون فى عالم جديد من صنعهم ، هو أرفع فى نظرهم من العالم الواقعى الذى يقنع به « البرانيون » و « الترابيون » ، ولم يكن عجيبا عندنا أن يرى « مراد كامل » فى أقل الأشياء قيمة فى نظر الناس سحرا وبدائع وأعاجيب ، ذلك لأن الإبداع والجمال مستقران فى النفوس قبل أن يكونا فى الأشياء . وقد كان الشاعر الإنجليزى على حق حين قال : « إن الجمال فى أعين الناظرين » .

لقد حدثنا عباس العقاد عن صديقه المازنى فوصفه بأنه كان « منذورا » للأدب العربى بكل ما نفهمه اليوم من معنى لكلمة « النذر » ، وقد كان الأقدمون إذا قيل لهم عن أحد من الناس إنه منذور لهذا المعبد أو هذا الحرم ، فهموا من ذلك أنه قائم فى خدمة معبده طول حياته ، وأنه لا يملك أن ينحرف عن خدمته باختياره ، لأن أرواح المعبد وجنوده ترده إليه إذا انصرفت

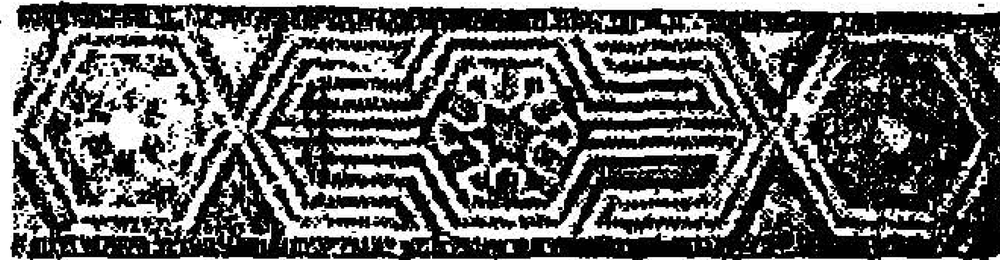
وجهته عنه ، فلا تبقى لنفسه بقية لغير الوفاء بنذره وإذا جاز لى اليوم أن أستعير هذا الوصف فى الحديث عن مراد كامل ، قلت إنه كان منذورا للغات السامية وللكنيسة القبطية . كان منذوراً للغات السامية التى أثرى بها بحوثه فى اللغة العربية وآية هذا إسهامه المشكور فى جلاء ألفاظ المعجم الكبير ، وكان منذوراً أيضا للكنيسة القبطية ، فكانت رسالته أن يبرز فى آثاره وبحوثه العديدة « مكانة الأقباط فى ركب الحضارة العالمية » ، وأحسب أنه قد مهد لأداء هذه الرسالة بدراسات فى صلة الأدب الحبشى بالأدب القبطى ، وفى الرهبنة فى الحبشة ، وفى بلاد النجاشى ، وفى مكتبة ديرسانت كاترين فى طور سيناء !

للفيلسوف الإنجليزى فرنسيس بيكون كلمة مأثورة تخطر ببالى حين أفكر فى مراد كامل ؛ يقول « بيكون » : « إننا يجب أن نصير كالأطفال إذا أردنا أن ندخل مملكة العلم » ومعنى هذا أن من نذر نفسه للمعرفة فما ينبغى له أن يتخلى عن خلق الدهشة والمبالاة والإعجاب ؛ ينظر إلى الأشياء فى نفسه وفيمن حوله وكأنه يفتح عينيه لأول مرة ، كل شىء يستوقفه ويستثير انتباهه . وكذلك كان مراد كامل ، كما عرفته على المدى الطويل ؛ فكل ما له صلة بشاغله الجوهرية من قريب أو من بعيد ، فهو يقف أمامه عن طيب خاطر ويملأ منه عينيه ويروى الفكر فيه .

إن حياة مراد كامل حافلة بهذه المعانى: نشوة المعرفة ، وخدمة الثقافة ، فلا عجب أن يخلف لنا فى هذين المجالين ثروة لا يستهان بها ، حصلها فى عكوف وصبر وأناة ؛ فهذه المكتبة العلمية الزاخرة التى أهداها للكنيسة المرقسية ، وهذه البحوث اللماحة والمقالات النفاذة التى نشرها على مدى أربعين عاما ستبقى ثروة مصرية إنسانية ، وهى عندنا مناط الاعتزاز حين يتفاخر غيرنا بالاموال .

أمام ظاهرة الموت وقف حفنى ناصف يتساءل:
أتقضى معى إن حان حينى تجاربى ؟

ونحن نجيبه فنقول : « كلا لن تقضى معنا تجاربنا » . والفضل فى ذلك كله راجع فى كل زمان ومكان إلى درجة الوعى عند الأحياء من المريدين والأنصار : وما أحسب إلا أن طلاب مراد كامل وتلاميذه العديدين سيذكرونه ويترسمون مثاله ؛ لأن اللحد الحقيقى للأموات ليس هو القبور التى تملأ الرحاب ، بل هو قلوب الأحياء حين يعتريها النسيان .



... كلمة الأسرة

ألقاها نيابة عنها الدكتور بولس عياد

أستاذى كما عرفته :

عملاق من عمالقة القرن العشرين .

عبقريته خلاقة ، وقريحة متفتحة .

حاضر البديهة ، لماح ، ثاقب الفكر .

يعمل ليل نهار بلا ملل أو كلل .

قارئ ممتاز يقبل على الكتب بكل شغف وجد حتى ينهى كل ما يقع بين يديه منها.

نبيل فى تصرفاته ووقفاته .

خدوم لكل من يسأل خدمة .

لا يئن أو يتذمر حتى فى أشد أوقات مرضه.

لم أسمعه قط يشكو أو يتضجر مهما مرت العواصف فى حياته .

لا يعبس ولا يقطب الجبين

مبتسم ، سريع الفكاهة .

متواضع ، هادئ النفس وديع القلب .

رحيم ، شفوق ، لا يحب القسوة .

لا يحمل الإساءة لمخلوق .

يغفر للآخرين ولا يعرف معنى للانتقام .

واسع الأفق، يقبل التفاهم حتى لو كان الطرف الآخر على اختلاف معه فى وجهات النظر .

من خلال مناقشاته الهادئة وأحاديثه العابرة تحس أنه عالم نادر المثال .

كانت صداقته للآخرين مبنية على الصداقة الخالصة ، تبعد عنها المصالح الشخصية .

فى وفائه للجنس البشرى يشعرك أنه ينتمى لكل أمة من أمم الأرض .

محسن بغير حدود ، عطوف على من غدر به الزمن .

على دراية واسعة بأمور الحياة ولوازمها.

له ذوق فنان فى اختيار ما يناسبه من أمور حياته .

هذا هو أستاذى الدكتور العلامة مراد كامل .

سمعت عنه من بعيد وعرفته عن قرب ، سمعت عنه عندما كنت بالسنة الأولى بكلية الآداب، وكان بعض زملائى يذكرون أمامى بين الحين والحين أن هناك أستاذا علامة يجيد العديد من اللغات الأجنبية وعلى جانب عميق فى تدريسه وأبحاثه . وبمضى الوقت سمعت عنه الكثير حتى رأيته ذات يوم فى أحد مدرجات الكلية بمناسبة « ندوة » خاصة بمشكلة من مشكلاتنا . وكانت طريقته فى الإجابة عن أسئلتنا وقدرته على الإقناع أخاذة ، أدهشتنى وأدهشت كل من سمعه . ورأيته مرة أخرى فى امتحان اللغة المصرية القديمة (الفرع الهيروغليفى منها) فكانت ورقة الأسئلة غير واضحة ، وسألنا الأستاذ المراقب أن يتكرم فيخبر لجنة الامتحانات بالكلية عن مشكلتنا، وفعلا تحدث مع المسئولين ووجدنا بعد دقائق الدكتور مراد كامل بيننا ، يقرأ لنا ما غمض من ورقة الامتحان، وجميعنا يعرف أن سيادته متخصص فى اللغات السامية ، وها هو يجيد اللغة المصرية كذلك !!

ثم تكرر لقائى مع الدكتور مراد كامل، وخاصة عندما التحقت بمعهد الدراسات القبطية ١٩٥٦، وكان لى شرف الالتحاق بقسم الدراسات السامية الذى يتولى سيادته الإشراف عليه، وبينما كنت أقوم بالدراسة معه فى هذا المعهد طلبت أن يسمح لى بشرف آخر، وهو أن أقوم بالتحضير معه للدكتوراه، فوافق سيادته، ثم وافقت الكلية، وبدأت أتعامل مع أستاذى أكثر فأكثر حتى عرفته عن قرب.

وطوال دراستى معه (١٩٥٨ — ١٩٦٣) لم أر أستاذى يضن على بعلمه، فكان رحمه الله كريما فى نصائحه مخلصا فى توجيهاته، مشجعا لى ولغيرى على القراءة والبحث والتنقيب والكتابة والنشر، وكثيرا ما كنت أجد أسماء مراجع أجنبية مذكورة فى بعض الكتب ولا أجدها فى مكتباتنا المصرية فأذكر هذا له، فكان يعيرها لى حتى لا أتعطل عن أبحاثى. وعرفت من زملائى أن أستاذنا كان كريما أيضا مع طلابه أجمعين، لم يبخل على أحد منهم بنصيحة مخلصة، بل دائما يقف بجوارهم يشد أزرهم لكى يواجهوا الحياة وما فيها من معوقات، حتى يتم لهم النصر بفضل ما جبل عليه أستاذنا من محبة لنا وتقدير، يجعلنا نعمل ليل نهار حتى نغترف من منابع العلم، فبذلك نصل إلى المكانة التى تليق بإشرافه علينا.

ومع كل هذه السنين التى عرفت فيها أستاذى عن قرب لم أره إلا جم التواضع، يحترم كل من يعمل معه، ولم أسمعه يوما أنه ذم إنسانا أو حقر من قيمة فرد أو تعالى على مخلوق. وكل هذه الصفات جعلت من أستاذى رائدا من رواد التربية فى بلادنا العزيزة.

ومن الأمثلة الحية على تشجيع أستاذ لنا، أننى فى يوم — نتيجة لقراءاتى — بدأت أكتب عن نظرية جديدة، مخالفة للنظريات التى سبقتنى وعرضت نتيجة أبحاثى على أستاذى، فما كان منه إلا أن قال: «استمر فى عملك هذا، فأنا واثق أن ما حصلت عليه من نتائج يعتبر صائبا، وأنا أتفق معك، وأختلف مع علماء اللغة الآخرين». وأكملت نظريتى بعد حصولى على الدكتوراه ونشرها تحت عنوان.

The Topography of Elephantine, according to Aramaic Papyri.

وقد وجدت قبولا من علماء اللغات السامية الذين أهديتهم بحثى.

وهكذا كان لتشجيع أستاذى لنا أن نخرج دائما بنظريات جديدة وآراء لم يسبقنا فيها أحد، وما من طالب تتلمذ على يد الدكتور مراد كامل إلا وقد تعلم منه الكثير، فقد كرس حياته لخدمة طلابه ونشر علمه، ولا عجب فهؤلاء الطلبة هم الآن أساتذة يتولون مراكز مرموقة فى الدولة والفضل الأول مرده إلى أستاذى.

وأذكر أن جامعة روما أوفدت الطالبة الإيطالية إدة برشيانى: Edda Bresciani لكى تستكمل دراستها على يد الأستاذ العالم مراد كامل واستمرت دراستها معه لمدة عام من (١٩٥٨ — ١٩٥٩) وقد قابلتها فى هذه الأثناء؛ فوجدتها تشيد بالخير والثناء على المجهودات العلمية العظيمة التى بذلها أستاذى معها وكيف أنه لم يبخل عليها بعلمه أكثر من هذا فقد أشركها فى التأليف معه فى كتابه الذى ظهر تحت عنوان:

Edda Bresciani and Murad Kamel, « Le lettre aramaiche di Hermopoli,

Atti della Accademia Nazionale dei Lincei, Classe di Scienze Morale Memorie Ser VIII, 12. Roma, 1966.

وعثرنا فى مكتبته على العديد من كرتات وخطابات التهنئة والشكر المرسلة إليه من الخارج من طلابه المصريين والأجانب ، يشكرون فيها أستاذهم الدكتور مراد كامل ، على تدريسه أو لما أداه لهم من خدمات علمية أو أنسانية ، عندما كان يقوم بالتدريس لهم فى جامعات الغرب .

أستاذى ونشأته الاولى :

ومع معرفتى الطويلة بأستاذى لم أسأله يوما عن نشأته الأولى والتقيت بشقيق الدكتور مراد كامل وهو الأستاذ جرجس كامل « مدير عام بمؤسسة الكهرباء بالقاهرة ، وعضو مجلس إدارة بالشركة العامة للمشروعات الكهربائية » وسألته عن نشأة أستاذى الراحل فقال : كان أخى مراد وأختى (زوجة المستشار عبد الشهيد يسى) وأنا ، نعيش فى منطقة الظاهر والفجالة وسكنا ونحن فى عهد الطفولة فى شارع الجد ، وكان لنا فيه أملاك وحديقة ضخمة ، كما كان والدى يمتلك أكثر من مائة فدان ، وقد عصفت بنا الأحداث ونحن فى سن مبكرة جدا إذ توفى والدنا عام ١٩١٤ ومراد فى سن السابعة من عمره ، وتوفيت والدتنا عام ١٩٢٠ وقد بلغ مراد الثالثة عشرة ، فتولت عمتنا تربيتنا ، وقد التحق مراد بالمدرسة المارونية الابتدائية وبعدها أكمل دراسته بمدرسة التوفيقية الثانوية . وعندما حصل على شهادة البكالوريا ، التحق بكلية الآداب قسم اللغة العربية واللغات الشرقية وتخرج من الجامعة عام ١٩٣٠ ، فأوفدته الجامعة على نفقتها فى بعثة إلى ألمانيا لكى يواصل دراسته للغات السامية وقد حصل على الماجستير وبعدها دكتوراة الجامعة عام ١٩٣٥ .

وبعد ثلاثة أعوام من الدراسة المتصلة حصل على دكتوراه الدولة من نفس جامعة توبنجن بألمانيا عام ١٩٣٨ وأثناء تحضيره للدكتوراه حصل على دبلومين: الأول فى اللغة اللاتينية يونيه ١٩٣٤ والثانى فى اللغة اليونانية أكتوبر ١٩٣٤ .

ومنذ أن التحق مراد بالتعليم الابتدائى حتى حصوله على أعلى الشهادات الدراسية وهى Dr . Phil Habil كان من المتفوقين دائما فى مراحل تعليمه ، وحصل على العديد من الجوائز نتيجة لهذا النجاح المرموق ولذكائه النادر .

وسألت الأستاذ جرجس كامل عن أسباب تخصص الدكتور مراد فى اللغة العربية وباقى اللغات الأخرى ، فأجاب سيادته ، أن حب مراد للغة ليس بجديد على العائلة فكان جدى وهو الأستاذ « جرجس ميلاد » بالرغم من وفاته فى القدس ولم يبلغ من العمر ٤٢ عاما ولكنه أجاد العربية والانجليزية ، وقد وضع قاموسا « انجليزى — عربى » كما قام الأستاذ جرجس ميلاد بتحرير إحدى الجرائد التى كانت تصدر فى ذلك الوقت لمحاربة المستعمر وعنوانها « المستقل » وربما تكون هذه إحدى الأسباب التى دفعت مراد لحب اللغة العربية وباقى اللغات التى تخصص فيها فيما بعد »

استاذى وثقافته :

لم تكن ثقافة الدكتور مراد محدودة بتخصصاته ، وحتى تخصصاته كان يضيف إليها الجديد فى كل يوم بما يقرأه من مراجع وكتب ،

وبما يسمعه من محاضرات وندوات ، وبما يشاهده من متاحف وبلدان ، وبمن يقابله من علماء . ومن ثم فقد أتقن أستاذى عديدا من اللغات ، ومن بين اللغات التى كان يؤلف ويتحدث بها : العربية والأمهرية والألمانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية . أما عن اللغات التى كانت محور دراسته وتدخل فى نطاق تخصصاته ، نعدد منها اللغة السومرية بنقوشها الإسفينية .

اللغات السامية : البابلية والآشورية ، وهذا هو الفرع الشرقى منها ، أما عن الفرع الغربى فقد أجاد سيادته إجـــادة تامة : الكنعانية ، والفينيقية ، والبونية ، والعبرية ، والمؤابية ، والآرامية بلهجاتها الشرقية والغربية على السواء ، والعمورية والأوجرتية (لغة رأس شمرا بشمال سوريا) والنبطية ، والتدمرية . والفروع السابقة هى الفرع الشمالى من اللغات السامية . أما عن الفرع الجنوبى منها ، فقد أحب سيادته اللغة العربية ، وكثيرا ما كان يتحدث بها بطلاقة وله أسلوب بليغ أخاذ استخدمه فى تأليف أبحاثه .

كما أتقن سيادته اللغة السبئية والمعينية والحميرية والثمودية واللحيانية ، بالإضافة إلى اللغات غير السامية فى الجزيرة العربية . وأخذت اللغة الحيثية ـ وهى لغة آسيا الصغرى ـ نصيبا كبيرا من دراسته

أما عن اللغات الإفريقية ، فكان يرغب سيادته فى تأليف مجلد عنها محاولا أن يجعل منها لغة إفريقية موحدة عالمية .

وقد أتقن سيادته اللغة المصرية القديمة ، والقبطية بلهجاتها البحيرية والفيومية والصعيدية والأخميمية . وعند رجوعه من ألمانيا فى عام ١٩٧٤ عرض عليه الأستاذ الدكتور عبد المنعم أبو بكر عميد كلية الآداب السابق والأستاذ بكلية الآثار أن يدرس منهجا لطلبة الآثار ، عن اللغة المصرية القديمة ـ الفرع الهيروغليفى منها ـ لطلبة السنوات النهائية ، فاعتذر سيادته لضيق وقته ولتعب صحته .

ومن بين اللغات التى درسها لطلبته وخاصة فى الغرب اللغة السواحيلية ، كما أتقن اللغة النوبية المسيحية ، وكنا مزمعين أن نضع مؤلفا عن هذه عن هذه اللغة ، وقد سرت بأبحاثى قدما فى هذا المجال ، ولولا انتقال أستاذى لعالم الخلود لواصلنا البحث حتى الانتهاء منه فى مدة وجيزة .

كما ألم أستاذى إلماما كبيراً باللغات السودانية وباقى اللغات الإفريقية الأخرى ، واستمعت إليه وهو يحاضر فى حديث طلى فى أكثر من مناسبة عن هذه اللغات الإفريقية ، وكانت إحداها فى معهد الدراسات القبطية بالقاهرة .

وقد تخصص سيادته فى اللغات الأثيوبية الفرع السامى منها وغير السامى ، وقد نشر سيادته الكثير من المخطوطات التى كتبت بالجعز ، أما عن الأمهرية فكان يتحدث بها بطلاقة أدهشت كل من كان يسمعه يتحدث بهـــا ، ومن أجل هذا الإتقان وحبه للحبشة وخدماته الجليلة لهذه البلاد ـ عندما كان رئيساً للبعثة التعليمية فى الحبشة ـ اتخذته الحكومة الأثيوبية مستشارا فنيا لها فى وزارة المعارف ، كما اتخذه الامبراطور السابق « هيلاسلاسى » صديقا حميما له وامتدت صداقته لعدد كبير من الأثيوبيين .

أما عن اللغات الآسيوية ، فلم يهملها أستاذى فقد أعطاها حقها من الدراسة والبحث والإتقان ومنها الأرمنية والروسية والسنسكريتية ولغات الهند ، كما تعلم وهو فى الخمسينات اللغتين الصينية واليابانية .

ونال سيادته دبلومين فى اللغات الأوربية القديمة وهما اللغة اليونانية واللغة اللاتينية .

ومن هنا جاءت الخمس وأربعون لغة التى أتقن أستاذى معظمها .

المناصب التى شغلها أستاذى : فى التدريس والمؤتمرات التى انتدب اليها .

وبعد رجوع الدكتور مرادكامل من بعثته عين بوظيفة مدرس بقسم اللغات السامية بكلية الآداب جامعة القاهرة . وتدرج سيادته فى سلك التدريس حتى رقى إلى وظيفة أستاذ ورئيس القسم ، وبالإضافة إلى عمله فى الجامعة فكانت المعاهد والكليات الأهلية تحاول أن تستفيد بخبرات أستاذى فى مجالاته ، فتطوع للتدريس بالكلية الإكليريكية وبمعهد الدراسات القبطية ، كما قام بالتدريس فى معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، كما استعانت به الجامعة الأمريكية بالقاهرة للإشراف ومناقشة بعض رسائل طلبتها فى الماجستير والدكتوراه ، مع قيامه أحياناً بإعطاء بعض البرامج الدراسية فى نفس الجامعة .

ولم تجد الحكومة والجامعات والهيئات العلمية المصرية أفضل من الدكتور مراد كامل لكى تعتمد عليه فى كثير من النواحى الأكاديمية فأوفدته وزارة التربية والتعليم (وزارة المعارف العمومية سابقا) مديرا للبعثة التعليمية المصرية إلى أثيوبيا ، واستمر هنـــاك حوالى عامين (مارس ١٩٤٣ — أبريل ١٩٤٥) . كما مثل الجامعة المصرية فى مؤتمر المستشرقين ٢١ المنعقد فى باريس فى يوليه ١٩٤٨ ، كما أعاد إنشاء مدرسة الألسن واختارته الحكومة لكى يكون أول مدير لها عام ١٩٥٢ . ثم انتدب كأستاذ زائر لجامعة « انزبروك » فى صيف ١٩٥٢ . ومثل الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) فى أكثر من مؤتمر ؛ كمؤتمر دراسات العهد القديم المنعقد فى « كوبنهاجن » فى ٢٥ يوليه ١٩٥٣ ، ومؤتمر المستشرقين المنعقد فى « كامبردج » فى أغسطس ١٩٥٤ ، ومؤتمر المستشرقين المنعقد فى ميونخ فى أغسطس ١٩٥٧ ، كما قدم عددا كبيرا من المحاضرات فى سالزبرج فى أغسطس ١٩٥٦ .

الهيئات التى أشترك فى تأسيسها :

واشترك أستاذى فى تأسيس بعض الهيئات العلمية منها مدرسة الألسن العليا ، وأكاديمية العلوم المصرية ، ومعهد الدراسات القبطية ، كما اختير من بين خمسين عالما لإنشاء إحدى الجامعات السويسرية .

الجمعيات والهيئات والمعاهد التى نال زمالتها وعضويتها :

ومن أجل الشهرة التى نالها أستاذى فى مراحل حياته اختير عضوا عاملا بالهيئات الآتية:

عضو المجمع العلمى المصرى عام ١٩٥٠ ، عضو المعهد الشرقى ١٩٥٣ ، عضو معهد الدراسات الشرقية ١٩٥٤ ، عضو الجماعة الدولية لعلوم دراسة الأسماء بلوفان (بلجيكا) ١٩٥٥ ، عضو الأكاديمية الألمانية للآثار — برلين ١٩٥٩ ، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٦١ ، عضو شرف المعهد التشيكوسلوفاكى لدراسة الآثار المصرية بجامعة كارل براغ ١٩٦٥ ، عضو لجنة نوبل للسلام ١٩٧٠ . كما كان وكيلا لمعهد الدراسات القبطية بالقاهرة ، ووكيلا لجمعية الآثار القبطية بالقاهرة . وبعد بلوغه سن الستين عين أستاذا مدى الحياة فى جامعة فرايبرج بألمانيا ، كما كان عضوا بأكاديمية العلوم الألمانية.

الاوسمة التى حصل عليها :

وبسبب ما أداه أستاذى فى مجالات الآداب والعلوم الاجتماعية للعالم أجمع ، كرمته الدول فمنحته أوسمتها تقديرا لكفاءته الممتازة وعلمه الغزير . فقد منحته ألمانيا وسام جوته الفضى عام ١٩٥٧ ، ومنحته الحبشة وسام أثيوبيا الذهبى عام ١٩٥٨ ، ووسام كوماندور (النجمة) عام ١٩٥٦ ، وإيطاليا منحته وسام كوماندور (الاستحقاق) عام ١٩٦٠ ، وحصل من مصر على وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى عام ١٩٦٨ ، وميدالية التقدير من بطريرك الأقباط الأرثوذكس عام ١٩٦٨ ، ووسام التقدير من بابا روما عام ١٩٦٨ .

مؤلفات أستاذى :

وبلغت مؤلفات الأستاذ الدكتور مراد كامل حوالى مائة وسبعين بحثا مما يدل على أن سيادته كان على إلمام ضخم بالميادين الآتية :

١ — اللغويات : أصول اللغة وقواعدها وتاريخها .

٢ — الآداب العالمية .

٣ — دراسة المخطوطات وتحقيقها .

٤ — علم الخطوط .

٥ — البرديات والنقوش وشواهد القبور والاستراكا (الشقف) .

٦ — الفنون القديمة والحديثة .

٧ — دراسة الأديان .

٨ — تاريخ وحضارة الشرق فى عصوره القديمة والوسيطة والحديثة .

٩ — سير العلماء .

١٠ — الفهارس (الكتالوجات) والمعاجم (القواميس) .

وسنفرد هنا بعضا من أبحاثه فى الميادين السابقة الذكر .

١ — اللغويات: أصول اللغة وقواعدها وتاريخها

فقد ألف فيها سيادته حوالى الاربعين بحثا . وكان أول ما نشر عن اللغويات ، بحثه بعنوان: العربية وتأثيرها على لغة التحدث النوبية . وقد نشر البحث فى عام ١٩٢٧ .

ومن أبحاثه فى اللغويات : مباحث عربية ، اللغات السودانية الشرقية ، ترجمات من العربية إلى الأدب الأثيوبى . المطالعة العربية للمدارس الأثيوبية ، الأساس فى القراءة الأمهرية ، قواعد اللغة العربية للمدارس الابتدائية ، ثلاثة

عثر عليها فى سيناء، خط القرمة فى المصرية .

٥ ـ البرديات والنقوش وشواهد القبور والاوسترا كا (الشقف) :

خطابات آرامية وجدت فى تونة الجبل المقال نشر بالاشتراك مع الاستاذ الدكتور سامى جبره ملاحظات على الأوراق الآرامية المكتشفة فى هرموبوليس ، وثيقة آرامية على الجلد من القرن الخامس ق . م ، المكتشفات الآرامية الأخيرة فى مصر ، أوستراكا سريانية ، نقش أثيوبى وجد فى مصر ؛ الأوراق الخاصـــة . بتونة الجبل ، خطابات لأثيوبيا من البطريـكين يؤنس الثامن عشر (١٧٧٠ — ١٧٩٦) ومرقس الثامن (١٧٩٦ — ١٨٠٩)

٦ ـ الفنون القديمة والحديثة

الفن الأثيـــوبى ؛ فنون القبط وحضارتهم القصة المصورة فى الفن الحبشى ، الـكائنات السماوية فى خيال المصورين (جلبرت هايت) ترجمة د . مراد كامل ، الفنون الشعبية السودانية أرنست كونل : عاش للفنون الإسلامية .

٧ ـ الاديان

الرهبنة فى الحبشة ، يوحنا النقيوسى ، الآباء الحاذقون فى العبادة الجزء الأول والثانى : تمهيد القبط فى ركب الحضارة العالمية ، المرحلة الأخيرة فى العلاقات التاريخيه بين الـكنيسه القبطيه المصرية والـكنيسه الاثيوبيه، والقديس باسيليوس الـكبير نسكياته ، قوانينه الـكنسية ، مصر القبطية ، إسرائيل فى التوراة والإنجيل ، حضارة مصر القبطى ؛ الخمس مدن الغربية ؛ العلاقات بين الـكنيسة المصرية والأثيوبية .

٨ — تاريخ وحضارة الشرق :

كنوز الفاطميين للدكتور زكى محمد حسن — نقد كتبه بالألمانية المستشرق كالا — نقله إلى العربية الدكتور مراد كامل ، بحثان عن التقويم الأثيوبى ، مقالان عن الفلاسفة الأثيوبيين فى القرن السابع عشر ، مقالان عن « عامان فى الحبشة » ، مقالان عن إريتريا — مشاهدات وآمال فى هضبات الحبشة ، فى بلاد النجاشى ، مشروع بحيرة تانا ، هل المصرى سبة ، بلاد النجاشى ، فاسيلا داسى نجاشى الحبشة، نظام الطرق فى بلاد الشرق القديم ، روائع مدفونة فى اليمن ، الحبشة بين القديم والحديث ، الألعاب الرياضية عند قدماء المصريين ، المجتمع العربى قبل الاسلام ، تاريخ مصر من فجر التاريخ حتى إنشاء مدينة الإسكندرية تأليف الـكسندر شارف — ترجمة الأستاذ الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومراجعة الدكتور مراد كامل ، فلسطين بين يدى التاريخ ، الإستعمار الإفريقى للدكتور زاهر رياض — نقد الدكتور مراد كامل ، بين العرب والهند قديماً ، تاريخ الحضارة المصرية (العصر اليونانى والرومانى والعصر الاسلامى). المجلد الثانى ٣ و ٤ من ديوقلديانوس إلى دخول العرب ، الرمز فى الـكيمياء عند العرب ؛ مركز المرأة فى مصر ، حضارة مصر فى العصر القبطى .

٩ — سير العلماء :

كان أستاذى يذكر أصدقاءه بكل خير ،

وكان يحب أن يكتب عنهم ، فخصص بعضاً من أبحاثه حول هؤلاء لكى يذكرهم التاريخ ولا ينساهم بعد أن أدوا دوراً مرموقاً لخدمة المجتمعات الإنسانية العالمية .

نخص بالذكر منهم أساتذته وبخاصة أستاذه الراحل عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين . كما كتب بحثين عن أستاذه العظيم أنو ليتمان الأول تحت عنوان « إنو ليتمان Ennolittmann ١٦ سبتمبر سنة ١٨٧٥ — مايو ١٩٥٨ » فى مجلة كلية الآداب ، والثانى عن إنو ليتمان : أستاذاً وأباً . وقد ترجم مقالا فى عام ١٩٢٩ من كارلو ألفونسو نلينوا تحت عنوان « المستشرق نلينو — حياته وآثاره » للعلامة المستشرق البروفسور إنو ليتمان .

وسجل استاذنا الراحل عام ١٩٤٢ كلماته فى مقال عن أحد أساتذته العمالقة المعروف عالميا لكل من يعمل بالآثار المصرية أو باللغات السامية — وهو إيجين متفوخ Eugen Mittwock (١٨٧٦ — ١٩٤٢) .

وفى عام ١٩٥٠ كتب عن كارلو كونتى روسينى مقالا نشر بمجلة كلية الآداب . كما دون بحثاً عن كارل بروكلمان فى عام ١٩٦٠ بالمجلة . وفى نفس العام كتب « حياة جورج جراف » فى مجلة جمعية الآثار القبطية .

١٠ — الفهارس والمعاجم :

فهرست مكتبة دير سانت كاترين بطور سيناء ، كتالوج لكل المخطوطات فى دير سانت كاترين بطور سيناء ، المعجم الكبير — ١ — ، أخى ٥١٩ صفحة ، قاموس المصطلحات العسكرية : ٣٠٫٠٠٠ كلمة إنجليزى — ألمانى ، فرنسى — عربى ، المعجم الألمانى : ألمانى عربى — تأليف الأستاذ وديع فانوس مراجعة مراد كامل ، قاموس الكتاب المقدس حرف الدال من صفحة ٣٥٥ إلى ٣٨٣ ، المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة : (تأليف على بن إسماعيل بن سيدة ، الجزء السادس تحقيق الدكتور مراد كامل (عدد الصفحات ٥١٦) .

* * *

واحتوت هذه البحوث على كتب ومجلدات ضخمة كما كتبت بالعربية والألمانية والإنجليزية والفرنسية والايطالية والأثيوبية . وسوف تظهر جميع منشوراته بالكامل فى كتاب أعد خصيصا لهذا الغرض .

ومن أجل كل هذه التخصصات فى الميادين المختلفة العالمية والمحلية ، والتى ظهرت فى هذا العدد الضخم من مؤلفات أستاذى ، فقد أشار إليه علماء العالم فى أمهات مراجعهم وأبحاثهم أمثال دريفر G.R Driver ، أميل كريلنج Emil G. Kraeling بذاإل بورتن Bezalel Porten ، كازل ؛ H. Cazelles بومان ؛ R A .Bowman ؛ مفس Y. Muffs ، أندريه دوبل سومير جينسبرج Ginsberg ، بيير جرلوت pierre Grelot ، إده برشيانى Edda Bresciani ، A.D uPont-Sommer كورير B Curoyer ، سامى جبره S. Gabra

وكثيرون غيرهم ذكروا اسم الدكتور مراد

كامل » وكتبه كمرجع أساسى لا يستغنى عنه باحث أو مؤلف . وجاءت تلميحاتهم عنه كالآتى : « انظر كامل » ، حسبما يقول كامل » ، « تبعا لكامل » أو تأتى عباراتهم بصوره أخرى :

« إن البحث الرائع الذى كتبه كامل ... إن الكتاب الممتاز الذى ألفه كامل ... ، إن المقال العميق الذى نشره كامل ... » وغير هذا كثير من مثل هذه العبارات التى تشهد لأستاذى أنه حقا كان أحد أساطين العلم فى عصره .

وليس هذا بغريب على أستاذى الفاضل مراد كامل الذى تتلمذ على يد نخبه ممتازة من العلماء فى مصر نخص بالذكر منهم الأستاذ الدكتور عميد الأدب طه حسين ، كما تتلمذ على يد فئة من الأساتذة الأجانب وصلت إلى قمة العلم فى عصرهم ومنهم : أرنولد Th. Arnold ، « برجسترسن Bergstrassen » ، جودى « M,Juidi » ، نلينو (C.A,Nallino) ، إنوليتمان (Ennolittmann) « تشخت Schacht » ، وتشيدر Schaéder

وعندما أوفدته جامعة القاهرة فى بعثة علمية تتلمذ على يد عدد آخر من العلماء المشهورين فى الساميات والمصريات منهم :

« انوليتمان Ennolittmann » ، « متفخ E.Mittwoch » ، تشيدر Schaeder » ، « ميسنر Meissner » ، زيته Sethe « جرابو GraPow ، هب Heepe ، تشلوبيز Schlobies ، « وسترمان westermann » .

أسفاره ورحلاته :

وتعددت أسفار الدكتور مراد للدول الأجنبية والبلاد العربية فقد قضى فترة طويلة فى ألمانيا عندما كان يحضر لدرجة الدكتوراه وبعد حصوله على درجاته العلمية استمر يزور ألمانيا فى كل عام مرة أو مرتين ، كما زار سيادته إنجلترا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وإسبانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا ودويلات البلقان واليونان وإيطاليا وبولندا ورومانيا ، والنمسا وسويسرا .

وزار سيادته كذلك بعضا من الدول الآسيوية بالإضافة إلى العديد من الدول الإفريقية أما عن البلاد العربية فقد نالت حظا وفيرا من زياراته بسبب تخصصاته العلمية أولا وبسبب الصداقات التى كانت تشده إليها منذ أمد طويل

أما عن مصر فقد تعددت سفرياته فى كل أرجائها ، فكثيرا ما كان يصحب أصدقاءه الأجانب إلى الأماكن الأثرية كمنطقة الجيزه (الأهرامات) ومنطقة سقارة وبنى حسن وملوى والأشمونين وتونة الجبل والبلينا وإدفو والأقصر شارحاً لهم تاريخ مصر القديم وآثارها ، وما يحتويه هذا التاريخ وهذه الحضارة من عظمة الأجداد .

كما زار دير سانت كاترين والأديرة القبطية والكاثوليكية التى بوادى النيل .

وهكذا تعددت أسفار أستاذى إلى معظم قارات العالم ، إما طالبا لعلم أو كأستاذ زائر أو بحثا عن المخطوطات القديمة أو لإلقاء محاضرات فى فروع تخصصاته .

كانت حياته حافلة بالشىء الكثير : فلم يضع دقيقة واحدة من عمره إلا وقد صرفها فيما يفيد.

علاقته بالكنيسة القبطية .

إن تخصصات الدكتور مراد كامل وبخاصة فى اللغة العبرية والسريانية والاثيوبية والقبطية بلهجاتها قد شدت انتباهه إلى دراسة الكتاب المقدس ، فتدريسه ، فتأليف عنه وعن شعوبه ، وساعدت هذه كلها إلى أن يمتد نشاط سيادته ليعمل بكل جهد وقوة فى كنيسته ، وبالذات عندما سافر إلى أثيوبيا وعمل فيها كمستشار فى لوزارة المعارف الاثيوبية فأخذ على عاتقه أن يهتم بالعلاقات السائدة بين الكنيستين ،الكنيسة القبطية الأم، والكنيسة الأثيوبية ، وبعد أن عاد من الحبشة اشترك فى أكثر من هيئة وأكثر من لجنة كنسية وعمل جاهدا أن يؤلف عن الكنيسة فظهر له العديد من الكتب فى هذا المجال .وحبه لكنيسته دفعه أن يهتم بالتراث القبطى الذى انحدر عن المصريين القدماء ، فخصص لهوقتا غير قليل من التأليف والنشر ، كما ساعد على أن يكون واحدا من الرواد الأوائل ، الذين عملوا بكل همة لتأسيس معهد الدراسات القبطية ، والذى أصبح وكيلا له. ومن أجل مجهوداته غير المحدودة وعلو قامته اختير بالإجماع لكى يكون وكيلا لجمعية الآثار القبطية بالقاهرة ، فعمل مع المسئولين فى الجمعية حتى وصل مستواها إلى أعلى المستويات العالمية فى الحفائر والبحث والتنقيب عن الآثار القبطية فى وادى النيل ، وأصبحت مجلة الجمعية المرآة التى يرى فيها العلماء الأجانب قيمتها الفريدة، إذ أنها هى المجلة الوحيدة التى تصدر باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والالمـــانية والإيطالية في جميع أنحاء الشرق والعالم أجمع ، والتى تتناول هذا التراث الخالد بالبحث والدراسة .

ولرفع مستوى الكلية الإكليريكية من الناحية العلمية ، ولكى لا تقتصر دراستها اطلاعها على المستوى الدينى، اختير لها أساتذة علماء من هيئة التدريس بالجامعات المصرية ، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور مراد كامل ، الذى عمل مع غيره لرفع مستوى الكلية الإكليريكية حتى غدت كمستوى الكليات فى جامعاتنا المصرية ، وكان رحمه الله يقبل العمل فى كل هذه الهيئات القبطية متطوعا .

وقد امتد هذا النشاط الدينى العلمى إلى باقى الكنائس الشرقية الكاثوليكية والبروتستانتية فأشركوه فى كثير من أنشطتهم ، وأصبح على علاقة قوية وصداقة متينة بالكثيرين من رؤساء هذه الكنائس حتى إن بابا الكرازة المرقسية منحه وساما ، كما أن بابا روما منحه وساما تقديرا لخدماته واعترافا بأفضاله .

مكتبته :

وقد أنشأ الدكتور مراد كامل مكتبة ضخمة بلغت عشرين ألف كتاب فى مدى خمسين عاما . وكان كريم النفس عندما أوصى قبل وفاته بعام واحد أن توهب المكتبة إلى بطريركية الأقباط الأرثوذكس ، وقد استلمتها البطريركية فعلا بعد انتقال الدكتور مراد بيومين إلى جوار الله .

ونصت الوصية أن تحفظ المكتبة فى دواليبها وأن يخصص لها قاعة كبيرة باسم صاحب المكتبة. وأن يصرف عليها من مؤلفات الدكتور مراد التى تطبع للمرة بعد المرة ، لكى تزود دائما

بالكتب التى تصدر حد ثا وفى نفس تخصصاته.

فقد تعاون نيافة الحبر الجليل الأنبا صموئيل أسقف الخدمات العامة مع الأستاذ جرجس كامل وجمعا كتب الدكتور مراد فى صناديق ضخمة بلغت أكثر من ستين صندوقا، وحفظت كما هى لمدة أيام فى مكتبة الكلية الإكليريكية.

وقد اهتم حضرة صاحب القداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث بالمكتبة اهتماما عظيما لندرة الكتب التى تحتويها وعملا بوصية صاحبها فأفرد قاعة كبيرة فى المبنى المقابل للكاتدرائية الجديدة، وأشرف على ترتيب المكتبة بنفسه كما كانت فى منزل صاحبها، ووضعها فى القاعة المعدة لذلك، وبدأ قداسته فى تعيين نخبة ممتازة من الأمناء لعمل فهرس «وكرتات»، وزين المكتبة بصور صاحبها وشهاداته وأوسمته التى كان قد حصل عليها فى حياته كما زودها بما تحتاج إليه من خزائن ومناضد الدرس، وقد أعجب كل من زار المكتبة من المصريين والأجانب على السواء للمكان المعد لها وللكنوز التى بالمكتبة.

وجاءت المكتبة متنوعة فى موضوعاتها كتنوع صاحبها فى علمه فشملت كتب اللغة وبخاصة اللغة العربية والسامية وآدابها، والمخطوطات التى كتبت فى عصور مختلفة، وكتب عن تاريخ الشرق وحضارته. ولاهتمام صاحب المكتبة بإفريقية فقد حظيت المكتبة بمجموعة ضخمة من الكتب الإفريقية أما الكتب الدينية فوجد منها الكثير.

وفى المكتبة عدد ضخم من كتب الفنون وسير الأشخاص والعلاقات بين الشعوب وعلم الخطوط وكتب الوثائق التى نشرت عن البزدى والأوستراكا، والقواميس المتعلقة باللغات القديمة والحديثة على السواء.

ووجد أعداد هائلة من المجلات العلمية والدينية والاجتماعية.

ما كتب عنه :

وكتب عن الدكتور كامل فى حياته وبعد مماته كثيرون، فقد كان أستاذنا معروفا عالميا لعدد غير قليل من علماء العالم، كما كان معروفا للألوف من أفراد شعبنا الكريم. والذين كتبوا عنه من علماء العالم كانوا من زملائه الذين تخصصوا فى دراساته وعرفوا قدره.

أما بعد انتقاله، فقد كتب الأستاذ أنطون سيدهم بجريدة وطنى الصادرة ١٩٧٥/١/١٩ كلمة رقيقة أقتبس بعض كلماتها :

« فقدت مصر هذا الأسبوع ابنا بارا من أبنائها الذين أدوا واجبهم بإخلاص وأمانة، وصدق إزاء الوطن .. فقد اختار الله إلى جواره المغفور له الأستاذ مراد كامل، العالم، الفيلسوف الباحث، بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال فى مختلف مجالات الفكر، والأدب، والتاريخ، واللغات.

لقد كان رحمه الله موهوبا لا يضن بعلمه، بل يقدمه لخدمة وطنه مصر، وللإنسانية جميعها بسخاء يؤكد أصالة وعلو كعبه فى كل مجال تناوله بالبحث البناء، بالعمل الدائب المثمر

وبالفكر العميق الجاد .

وقد عرفت المحافل الدولية مكانته العلمية الرفيعة ووقفت على قدرته الفذة فى البحث العلمى المستند إلى الحقائق فأقبلت على إنتاجه تنهل منه ما يمهد أمامها الطريق ، وهى تقوم ببحوثها فى مختلف مجالات الفكر .

وانعكس أثر هذا الاهتمام الدولى فى الجامعات الأوربية والأمريكية ، فاستعانت بمؤلفاته الكثيرة التى تجاوزت المائة، فى بحوثها التى تسعى للاستفادة بالماضى من أجل الحاضر ، والاستفادة بالحاضر من أجل مستقبل زاهر يظلل البشرية بسعادة ، وخير ، وطمأنينة ، وسلام ..

وقد اعتمدت الدراسات اللغوية عليه اعتمادا كبيرا ، كما اعتمدت دراسات تراثنا الفرعونى والعربى على إبداعة العبقرى .

هذا بالإضافة إلى أنه — رحمه الله — كان أول عميد لكلية الألسن فى مصر ، ثم شغل بعد ذلك منصب رئيس قسم اللغات السامية بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

ومما تعيه ذاكرتى ويذكره الكثيرون أيضا أن الحكومة الأثيوبية قد استعانت به فى تنظيم وزارة التعليم بها وإعداد برامج الدراسة فى مدارسها المختلفة .

وأدى الفقيد الكريم خدمات جليلة للكنيسة القبطية ، فقد كان مرجعا رئيسيا ورائدا تعتمد عليه فى البحوث والدراسات .

كان الفقيد العظيم فى الحقيقة أستاذا ، وعالما . كان صاحب قلم وفكر ودين... كان مصريا قوميا .. محبا لبلده .. لأمته .. لعروبته . كان صديقا عزيزا يحب صديقه ويتمنى له الخير دائما ، لقد ترك وراءه الألوف من تلاميذه ومحبيه ومريديه .. فإلى جنة الخلد .. رحمه الله ، وطيب ذكراه » .

وكتب الأستاذ فريد عبد السيد بجريدة وطنى الصادرة فى ١٩٧٥/١/١٩ عن أستاذنا الراحل كلمة رائعة حلل فيها سيادته جوانب عدة من التى كانت للدكتور مراد كامل . وهذه بعض فقرات مما جاء فيها :

« فقدت مصر عالما جليلا ومفكرا عظيما ، نذر حياته من أجل الثقافة واللغات والفكر أكثر من ٤٥ عاما . فقدت مصر الدكتور مراد كامل ، الذى أجاد أكثر من ٤٠ لغة ، وقدم أكثر من ١٧٠ كتابا وبحثا، وكان عطاؤه الفكرى جزيلا فى جامعات مصر والخارج ، فاختير عضوا فى أكبر هيئة علمية فى العالم ، هى هيئة الترشيح لجائزة نوبل للسلام العالمى فى تاريخ الأدب واللغة ، واختارته جامعة فرايبرج بألمانيا بعد انتهاء خدمته الرسمية بمصر أستاذاً مدى الحياة » .

كما نعاه الأستاذ كمال الملاخ فى جريدة الأهرام بالكلمات الآتية :

« فقدت مصر أمس عالما كبيراً من علمائها هو د . مراد كامل عضو المجمع اللغوى والوحيد

فى الشرق العربى الذى يجيد ٤٠ لغة ، بينها اللغة الأمهرية ، وهو أحد خبرائها العالميين .

توفى د . مراد كامل (٦٨ سنة) فى المستشفى بعد مرض لازمه شهرا » .

حبه لوطنه « مصر »

أمنية رددها الأستاذ الدكتور مراد كامل وهو أن يدفن فى تراب مصر ، مصر التى أحبها كل الحب وكرس حياته بأكملها من أجل خدمتها وخدمة أبنائها ؛ فتدريسه فى الجامعة ومؤلفاته الخالدة وأسفاره والمؤتمرات الدولية التى اشترك فيها والهيئات العالمية التى كان عضوا بها ، كل هذا أشعر العالم أجمع بمدى الخسارة الفادحة التى خسرتها مصر والعالم بانتقال الدكتور مراد إلى جوار ربه .

لقد أحب أستاذى مصر حتى إنه لم يكن يتصور أن يعيش بعيدا عنها مدة طويلة، وعندما وصله خطاب الجامعة منذ عام لكى يقوم بالتدريس فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، سر كثيرا جدا، وكان فى منتهى السعادة أن يعود إلى مصر ليواصل كفاحه فى بلاده ويعيش بين طلابه وأصدقائه وعارفيه ومقدرى علمه ، لقد ترك عالم الغرب وعاد إلى مصر ، ولكن ما هى إلا بضعة أشهر قضاها بيننا حتى انتقل إلى جوار ربه بعد مرض لازمه أربعين يوما ، وفى هذه الفترة القصيرة زاره فيهـا أهله وأصدقاؤه وعارفوه وطلابه ، وكانت بمثابة توديعهم له الوداع الأخير ، وهكذا تحققت إحدى رغبات أستاذى وإحدى أمانيه وأن يدفن فى تراب مصر » .

أستاذى الخالد :

أشرقت شمسك بنور المعرفة على القريب والبعيد ، فأنت عملاق سموت فى علمك ، تألقت فربطت بين الحضارات قديمها وحديثها ، فكنت خير سفير لمصر فى المجال العالمى . كنت لى وللكثيرين أبا روحيا ، ومعلما ، وموجها ، ورائدا . ولن أنسى مدى الحياة ، ما قدمت لى ، فى محبة خالصة وأبوة صادقة . لك الخلود ولنا العزاء .

وإن كانت شمسك قد غربت ، فالجنة مثواك وأعمالك العديدة ستخلد ذكراك ، بين الخالدين ، ومحبيك وعارفى فضلك .

رثاء الدكتور طه حسين

للدكتور عبد الله الطيب عضو المجمع من السودان

ثوى الحبرُ طه لدى ربِّهِ
وخلّده الله في حـزبهِ

وكان لعمري عديم النظير
ومَنذا الذي كان من ضَرْبه!

وكان شُجاعا وكان جريئا
وكان ذكيّا وأَعْظِمْ به

وأسلوبه يسحر القــارئين
ويَخْلُص للمرء في لُبّـه

شُغِفْنا به في زمان الصّبا
وذُقْنا التّذوّق من عذبه

وقد كان فذًّا وجيلا بنى
بما قرأ النّاس من كتبه

وكم قلّد النّاسُ أسلوبَه
ومنـذا يطُول إلى هضبه

وينساب مثـــل انسياباته
وينهلُّ مثل حَيا سُحْبه

وقد نال شِدّة أَسْرِ القديم
وكان الجديدُ إلى جَنْبه

ولا نَثْرَ أسلس من نثره
وسَهْلُ الكلام سوى صعبه

وبالعـلم قد وَرِثَ الأنبياءَ
والفنُّ كان رحى قُطْبه

وكان عميقاً بإيمـــانه
وشاهِدُ ذلك في قَلْبه

وقد كان حرًّا بتفكيره
ومتّقدَ الحسِّ في خِصْبه

وكان الطّواغيت قد راعها
بثَوْرته وسنــــا شُهْبِه

ولم يكن الزّيف من دهره
ولا مَلَقُ النّاس من طِبّه

يشعّ عليــــك بإشراقه
مهيب الجــلالة في قُرْبه

لطيف الدُّعابة حلو الحديـ
ـث، وسَلْ في الخطابة عن خطبه

تدفُّقه ونـــدي صَوْتِهِ
وإسماحِه وقُوى جَذْبِهِ

فصـاحة سَحْبانَ فى سمتـه
وقسّ الإيادىّ فى ثوبه
وأحيا لنا الجاحظَ العبقرىّ
بإبداعـه ومـدى وثبه
ومثـل المعـرّىّ لـكنـه
أضاف إلى الشرق من غربه
وراد لنـا نهضـةً لا نزا
ل نسلك فيهـا على دربه
عرفنـا به الأدب الجاهلىّ
وصدق الرّواية من كِذْبه
وعلّمنا فَهْمَ نهـج الجزا
لة حتّى ثبتنا على حبّـه
قرأنـا تصانيفه فاستفدْنا
بعبّ السُّـلافة من شربه
ونحن بهـا من تلاميـذه
وأىّ أولى الفضل لم تَسْبِه
وقد كان بَعْدُ شديد المرا
س مُرَّ الشّـكيمة في حربه
كذاك يكون الأديبُ الأصيـ
ـل الذى طَلَبُ الحقّ من دأبه

وقد زرت مصر رجاءَ اتصالٍ
به وانتسـابٍ إلى رُحْبه
ونوّه بى بين أهل الحجا
أيَجْزيه عنّى سوى ربّه ؟!
وعاداك قَوْمٌ بإحسـانه
إليك وراموا إلى ثَلْبـه
وقد كان طه كثير الحياء
رقيـق العبارة فى عتبـه
ويُعْرِض إعراض حلم الكريـ
ـم عمّن يريد إلى سبّه
ويبسم حتى ضياء البصيـر
ة تبصره العـين من صوبه
وقد كان ملتزما بالوفاء
وحسن الثّناء على صحبـه
وكان حبيبـاً إلى شَعْبِه
ويأوى الأديبُ إلى شِعْبِه
وأحزننى الناس لمّا نعـوه
إلىّ ومجـدى من سيبه
يعيبوننى حين أُثنى علىّ
بخير، أفضلى من ذنبـه ؟!

وإنّ دموعى هذا القريض
ولست أُفَتِّرُ من سكبه

وأطربه حين أنشدته
قريضى وهشّ إلى ضربه

وقد قال : إنّك أشعر مما
تظنّ كثيراً ولم أُنْبِهِ

وأثنى علىّ الثناء الذى
يموت عدوّى من غبّه

فلا تأسَ قلبا على حاسدٍ
يَعيبُ وذلك من عَيْبه

وحسبك طه وإقباله
عليك وكان فتى عُرْبه

وفى جَنَّةِ النّفر الصالحيـ
ـن مَضْجَعُ طه لدى ربّه

فجادت ثرى قبره رحمة
وسحّ رضا الله فى تربه

عقيلةَ طه فلا تَحْزَنى
فإنّكِ شاركتِ فى كَسْبِهِ

بحُبِّك إيّاهُ قد كان طـ
ـه مع الفنِّ يأمَنُ فى سِرْبه

فذاكِ عزاءٌ ، وكلُّ الوَرَى
يَسُوقهمُ الموتُ فى رَكْبِهِ